دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية محكمة
تعنى بتاريخ العرب

السنة الخامسة والعشرون- العددان/ ٨٥- ٨٦/ آذار- حزيران/ ٢٠٠٤

دراسات تاريخية

تصدرها وتشرف على تحريرها
لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

المدير المسؤول

أ. د. محمد عصام عوا
رئيس جامعة دمشق

رئيس التحرير

أ. عبد الكريم علي

هيئة التحرير والإشراف

أ. د. محمد عصام عوا	أ.د. طيب تيزيني	أ. د. علي أحمد
أ. د. فيصل عبد الله	أ. د. محمود عبد الحميد أحمد	أ. د. عيد مرعي
أ. د. شاكر الفحام	أ. د. سلطان محيسن	أ. د. محمد الزين
أ. د. سهيل زكار	أ. د. ابراهيم زعرور	د. سمير اسماعيل
أ. د. خيرية قاسمية	د. محمد شعلان الطيار	د. ابراهيم توكلنا
د. عبد الرحمن بيطار	د. فاروق اسماعيل	أ. د. محمود عامر
أ. عبد الكريم علي		

تصميم الغلاف: د. بثينة أبو الفضل

دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية محكمة

«تعنى بتاريخ العرب»

تصدر عن لجنة كتابة تاريخ العرب - جامعة دمشق

السنة الخامسة والعشرون /العددان/ ٨٥-٨٦/ آذار - حزيران/ ٢٠٠٤

الاشتراكات	للأفراد	للمؤسسات	للطلاب
في القطر العربي السوري	(٢٠٠) ل.س	(٤٠٠) ل.س	(١٠٠) ل.س
في الأقطار العربية	(٢٠) دولار أمريكي	(٤٠) دولار أمريكي	
في البلاد الأجنبية	(٣٠) دولار أمريكي	(٦٠) دولار أمريكي	

يمكن الاشتراك بمجموعات الأعداد الصادرة بالبدل نفسه لكل عام، ويتم تسديد بدل الاشتراك بشيك إلى لجنة كتابة تاريخ العرب، أو بتحويل المبلغ إلى حساب جامعة دمشق في مصرف سورية المركزي رقم ٣٣٢٣ / ٢٣.

المراسلات: لجنة كتابة تاريخ العرب - مجلة دراسات تاريخية - جامعة دمشق

المكاتب: جامعة دمشق - هاتف /٢١٢٤٤٦١/

شروط النشر في المجلة

إنّ مجلة دراسات تاريخية هي جزء من مشروع كتابة تاريخ العرب، وخطـــوة مـــن خطوات تخدم كلها وبمجموعها الغرض الأساسي، وهو كتابة تاريخ العرب من منطلق وحدودي، وضمن منظوري الفهم الحضاري للتاريخ والتقيد بأسلوب البحث العلمــــي، تحاول طرح الجديد في ميدان البحث في التاريخ العربـــي، وتســليط الضـــوء علـــى التيارات العامة التي حركت تاريخ الأمة العربية وأعطته خط مساره الخاص، وإيضاح ما لفه الغموض، وتصحيح ما شوه وكشف الزيف إن وقع، وكل ما يمكن أن يثير جدلاً علمياً واعياً ينتهي عند الحقيقة الموضوعية.

والمجلة ترحب بكم قلم يشارك في إغناء فكرتها وبكل مقترحاً ورأي فـــي مســيرتها، وتنشر البحوث والدراسات في تاريخ العرب وما يتصل به، على أن يراعى فيها مـــا يلي:

آ- أن تتوافر في البحث الجدة والأصالة والمنهج العلمي.

ب- أن لا يكون منشوراً من قبل.

جـ- أن يكون مطبوعاً على الآلة، خالياً من الأخطاء الطباعية.

د - تعرض البحوث، في حال قبولها مبدئياً، على محكمين متخصصين لبيان مـــدى صلاحيتها للنشر، وفق المعايير المذكورة أعلاه، والتعديلات اللازم إدخالها عليـها عند الاقتضاء. وتبقى عملية التحكيم سرية.

وتحتفظ المجلة بحقها في الحذف والاختزال، بما يتوافق مع أغراض الصياغة.

ولا تنشر المجلة قوائم المصادر والمراجع، ولذلك يحسن أن يتقيد الســـادة البـــاحثون بشكليات التوثيق المتعارف عليها، على النحو التالي:

أ- في ذكر المصادر والمراجع (للمرة الأولى):

ذكر اسم المؤلف كاملاً وتاريخ وفاته بين قوسين ( ) إن كان متوفى، اسم المصدر أو المرجع وتحته خط، عدد المجلات أو الأجزاء، اسم المحقق إن وجد، الناشر، المطبعة ورقم الطبعة إن وجدت، مكان النشر وتاريخه، الصفحة.

ب- في محاضر المؤتمرات:

ذكر اسم الباحث كاملاً، عنوان الدراسة كاملاً بين قوسين مزدوجين « »، عنوان الكتاب كاملاً، اسم المحرر أو المحررين، الناشر، المطبعة ورقم الطبعة إن وجدت، مكان النشر ومحله، الصفحة.

جـ- في المجلات:

اسم الباحث كاملاً، عنوان البحث بين قوسين مزدوجين « »، اسم المجلة كاملاً وتحته خط، رقم المجلد أو السنة، رقم العدد وتاريخه، الصفحة.

ثم ذكر الرمز الذي يشار به إلى المجلة في المرات التالية.

د - في المخطوطات (للمرة الأولى):

نسم المؤلف كاملاً، عنوان المخطوط كاملاً، الجهة التي تحتفظ به، تاريخ النسخة وعدد أوراقها، رقم الورقة من الإشارة إلى وجهها (آ) وظهرها (ب). ثم ذكر ما يشار به إلى المخطوط في المرات التالية.

وتكتب الأسماء الأجنبية بالعربية واللاتينية بين قوسين ( )، ويشار إلى الملاحظات الهامشية بنجمة * . وترقم الحواشي بأرقام تتسلسل من أول البحث إلى آخره، دون التوقف عند نهاية الصفحات.

يمنح الباحث نسخة من العدد الذي نشر فيه بحثه والأعداد الصادرة خلال ذلك العام، مع عشرين (مستلة) من البحث.

محتويات العدد

- **أنماط العمارة ونماذجها في العصر الحجري الحديث قبل الفخاري في الأردن** ص ٣

د. خالد محمود أبو غنيمة

- **التقويم السلوقي وأهميته التاريخية والحضارية** ص ٢٩

د. محمد الزين

- **الإمبراطور الروماني فيليب العربي (ماركوس يوليوس فيليبوس)** ص ٨١

د. عبد المجيد حاج حمدان

- **سياسة الدولة الأموية إزاء قبائل الجزيرة وأثرها** ص ١٠٧

د. محمد إحسان النص

- **دور الكندي في إغناء الحضارة العربية الإسلامية** ص ١٤١

د. حامد ابراهيم

- **ابن حزم في كتابات المستشرقين سانتشـث البرنس (Sanchez–Albornoz) رينهارت دوزي (Reinhardt DOZY) نموذجاً** ص ١٧١

د. علي دياب

- **الخطط البابوية تجاه مصر والمشرق العربي في القرن الرابع عشر حسب ما جـاء في كتاب الأسرار لمارينو سانوتو** ص ١٩٣

د. ابراهيم محمود زعرور

- **أوضاع دمشق في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي من خـلال كتـاب ((الذيل)) لأبي شامة صاحب الروضتين** ص ٢٢٥

د. وفاء جوني

- **أثر السيطرة السياسية والعسكرية العثمانية على الخليج العربي مـا بين ١٥٤٦ و١٩١٤ م** ص ١٦٣

د. محمد رجائي ريان

أنماط العمارة ونماذجها

في العصر الحجري الحديث قبل الفخاري في الأردن

الدكتور خالد محمود أبو غنيمة

معهد الآثار والأنثروبولوجية

جامعة اليرموك

Architectural Patterns and its Models during Pre-Pottery Neolithic in Jordan

Dr. Khaled Abu Ghanimeh

أنماط العمارة ونماذجها في العصر الحجري الحديث قبل الفخاري في الأردن

الدكتور خالد محمود أبو غنيمة

معهد الآثار والأنثروبولوجية

جامعة اليرموك

Architectural Patterns and its Models during Pre-Pottery Neolithic in Jordan

Dr. Khaled Abu Ghanimeh

Abstract

Inspite of the importance of the architectural development during popery Neolithic. It has not received the attention that it deserves. This purpose of the research study will be to examine the development of the Neolithic architecture in Jordan from the simple circular buildings in Epi-Paleolithic Period to the rectangular forms with their various shapes. This will be based on the role of the house as an important focus to the study the architectural remains which dates back to the Neolithic period, as it seems that the purpose of the development in the structural ways of building was to provide the people with sleeping shelters to accommodate their needs to suit his developing cultural, social and economic needs.

ملخص:

تعدّ دراسة التطوّر العمائري في العصر الحجري الحديث قبل الفخاري من الدراسات التي لم تنل اهتماماً كبيراً من الباحثين العرب رغم أهميتها، وعليه سيقوم البحث بدراسة تطوّر عمارة العصر الحجري الحديث قبل الفخاري في الأردن من خلال تتبع الانتقال من بداية ظهور المسكن الدائري البسيط في المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم إلى المسكن المستطيل بأشكاله المختلفة، وذلك من خلال اعتماد وظيفة المسكن كمحور رئيسي لدراسة البقايا العمائرية المكتشفة والعائدة إلى العصر موضوع الدراسة. إذ إن التطوّر في تقنيات الأساليب البنائية هدفت في الدرجة الأولى إلى سدّ حاجة الإنسان إلى مسكن يأوي إليه ويتلاءم مع احتياجاته المتزايدة بسبب تطوّره الثقافي والاجتماعي والاقتصادي.

أنماط العمارة ونماذجها في العصر الحجري الحديث قبل الفخاري في الأردن:

شعر الإنسان القديم بحاجة إلى مكان يقيه تقلبات المناخ وخطر الحيوانات المفترسة. ولقد نما هذا الشعور مع الإنسان وتطوّر بتطوّر المجتمعات، وانتقال الإنسان من العيش في الكهف، والملجأ الصخري، فالكوخ، فالبيت السكني، الذي تطوّر مع تطوّر الإنسان الثقافي، والاجتماع، والاقتصادي.

وعلى الرغم من المدة الطويلة التي عاشها الإنسان القديم في العصور الحجرية، إلا أنه لم يهتدِ خلالها إلى الاستقرار والبناء إلا في أواخر هذه العصور، لأنه عاش متنقلاً بين هنا وهناك بحثاً عن الطعام بأسلوب الجمع والالتقاط والصيد. ويعدّ بعض الباحثين الكهوف والملاجئ الصخرية وصادات الرياح من أقدم الوسائل التي استخدمها الإنسان القديم في محاولاته للسيطرة على البيئة(١).

لم يختلف الإنسان القديم في الأردن عن مثيله في مناطق بلاد الشام الأخرى في سعيه للحصول على مسكن يقيه من عوامل الطبيعة والحيوانات المفترسة، فقد استخدم الملاجئ الصخرية وبعض المناطق في العراء كمأوى ومكان إقامة له خلال العصر

الحجري القديم (Paleolithic). ودلّت المسوحات الأثيرة التي جرت أخيراً في المناطق المختلفة في الأردن على أن إنسان (العصر الحجري القديم الأدنى) (Lower Paleolithic) سكن المناطق المكشوفة، ومن أهمها "أبو هابيل" و"أبو الخس" في غور الأردن، و"عين الأسد" في منطقة الصحراء الشرقية، و"الخناصري" في شمال الأردن، و"الفجيج" في جنوب الأردن[٢].

ويعدُّ موقع "اللطامنة" على نهر العاصي في سورية من أقدم مواقع بلاد الشام التي قدّمت دلائل مبكّرة على البناء، حيث كشف عن كوخ أقيم على ضفة النهر، منذ حوالي نصف مليون عام، ذي أرضية محاطة بمجموعة من الحجارة الضخمة المنقولة من مناطق مجاورة للموقع. كما عثر في موقع "القرماشي" إلى الجنوب من اللطامنة على كوخ أحدث مشابه يعود إلى حوالي ٢٠٠ألف عام[٣].

وفي (العصر الحجري القديم الأوسط) (Middle Paleolithic)، استمر إنسان "النياندريال" في السكن في العراء، إضافة إلى الملاجئ الصخرية ومن أهمها في الأردن "طور صبيحة"، و"طور فرج"[٤]، و"ملجأ الدفلى"، و"جرف الدراويش"، و"موقع وادي الحسا ٦٢١" في جنوب الأردن، ومواقع "السخنة" و"المزرة الجنوبية"، و"أبو علوبة" في غور الأردن[٥]، ونلاحظ نمواً في الشعور بالارتباط بالمكان عند إنسان "النياندريال" في بلاد الشام، وذلك من خلال تعاقب السكن في تلك المواقع لعدة أجيال في سويات متتالية. وعلى الرغم من العثور على بقايا إنسان "النياندرتال" المادية، إلا أنه لم يعثر على أية بقايا عظمية بشرية له في مواقع الأردن. واستمر الإنسان العاقل في السكن في الملاجئ الصخرية وإن كانت مواقع هذه المرحلة قليلة العدد مقارنة بالفترة السابقة.

قبل البدء في الحديث عن ملامح العمارة، لا بدّ لنا من تعريف بعض المصطلحات المهمة والمستخدمة في هذا البحث. تعرّف العمارة بأنها "فن منشآت تخلق فراغات معمارية انتفاعية بأشكال على درجة عالية من الجمال الحسي والتعبيري"، أو "علم

تشييد الأبنية المتينة"[٦]، أو "هي كل فضاء محصور ذي فوائد اقتصادية واجتماعية لها مساس مباشر بحياة الفرد الخاصة والعامة"[٧]، أو باختصار هي "فن البناء". وسنعتمد في هذا البحث تعريف العمارة بأنها "فن البناء"، لأن الإنسان القديم قام بتشييد مبانيه بدون تنظيم أو تصميم مسبق في فترة المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم، والعصر الحجري الحديث قبل الفخاري "أ"، متخذاً من الشكل الدائري نموذجاً لمخطط البناء، إذ إنه تطبع في هذه المرحلة على الشكل الهندسي الدائري الذي كان يمثل الطبيعة (القمر والشمس)، إضافة إلى الكهف (السقف والمدخل). ويعدّ الشكل الدائري أسلوباً بسيطاً للبناء الدائمي الذي تطوّر من أساليب متعددة في بناء المساكن الوقتية لشعب متنقل[٨]، ونستطيع أن نرجع بساطة التكوين العماري إلى الغرض المطلوب من تشييدها في البداية وهو إيجاد ملجأ يحميه من الظروف الطبيعية القاسية والحيوانات المفترسة، كما أن بدائية الحياة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية في بداية فترة استقراره لم تدع مجالاً للإنسان للتفكير بالناحية الجمالية والترفيهية في تشييد مسكنه، بل كان اهتمامه منصرفاً بالدرجة الأولى إلى توفير مبدأ شرطي العمارة المنفعة والمتانة، دون الاهتمام بشطري الجمال والاقتصاد[٩].

واستناداً لهذا التعريف العلمي لمعنى العمارة، فإن الإنسان القديم في المراحل الأولى من استقراره لم يقم بتشييد سوى نمط واحد من العمارة وهو المسكن، ويعرف المسكن بأنه المأوى والسكنى والسكينة، والمسكن في اللغة يعني المنزل والبيت، وهو من السكون ضد الحركة، والسكنى أن يسكن الرجل موضعاً بلا كروه[١٠]. ويتصل السكن بإحدى الخصائص الطبيعية للإنسان وهي حاجته للنوم والراحة، كما أنه يعتبر المقر الأفضل للعائلة، ولذلك فإن أهميته بالنسبة للإنسان تساوي وتعادل الأهمية الغذائية، رغم أن الغذاء واحد من الضرورات الأساسية الملحة في حياة الإنسان.

وقد شهد المشرق في المرحلة (اللاحقة للعصر الحجري القديم) (Epipalaeolithic) تغيراً مناخياً وبيئياً ساعد إنسان المنطقة على ترك مناطق سكناه التقليدية (الكهوف،

والملاجئ الصخرية) والخروج إلى العراء والبدء بحياة شبه مستقرة من خلال قيامه ببناء الأكواخ التي تمثل أقدم ما عُرف من مواطن الاستقرار المرتبطة بحياة زراعية بدائية. وقد تم رصد العديد من المواقع المكشوفة التي اتخذها الإنسان في بلاد الشام كمناطق استقرار مؤقت أو موسمي في نهاية فترة البلايستوسين بعد تحسن المناخ، "كخربة العاشق١" (عين جيف ١)*، و"عين الملاحة" (عينان)، و"وادي الفلاح" (نحال أورن) في فلسطين، و"المريبط" في سورية. وفضلاً عن تحسّن المناخ، فربما كانت الزيادة السكانية لإنسان العصور الحجرية أحد العوامل التي دفعته إلى هجر الكهوف ومحاولة الاستقرار خارجها.

وتمثّل أقدم البقايا المعمارية المكتشفة في الأردن، والتي تعود إلى الفترة (الكبارية غير الهندسية) (Non-Geometric Kebaran) ببعض المظاهر المعمارية. كالأرضيات الدائرية الشكل، والمواقد دون الكشف عن بقايا جدران أو أسس حجرية، كما هي الحال في "الخزانة٤" في الطبقة "ب"(١١)، و "وادي الحسا موقع ١٠٦٥"(١٢)، و "وادي الحمة ٢٦"(١٣). ويدعو ذلك إلى الاعتقاد بأن الإنسان القديم قد أقام في مخيمات أو مواقع بسيطة البناء وبقي الحال نفسه في الفترة (الكبارية الهندسية) (Geometric Kebaran)، حيث كشف "مجاهد المحيسن" في الطبقة "د" من موقع الخزانة٤" عن أرضية دائرية الشكل من الطين المدكوك تحتوي على حفر صغيرة على مسافات متساوية تشير إلى أنها استخدمت لتثبيت الأعمدة الداعمة للسقف ولإقامة المواقد(١٤).

أظهرت التنقيبات الأثرية في مواقع الفترة النطوفية عن مساكن حجرية دائرية أو إهليلجية ضمن مستوطنات في العراء، كما هي الحال في "وادي الحمة٢٧" في غور الأردن(١٥)، وفي منطقة "عين راحوب" بالقرب من إربد، حيث كانت المباني إهليلجية الشكل(١٦)، إضافة إلى عدد آخر من الجدران التي كشف النقاب عنها في موقع

---

* لما كانت بعض المواقع الأثرية في فلسطين تُذكر في الأبحاث المختصة اليوم بأسمائها الأجنبية الحديثة دون أسمائها العربية الأصيلة فأسوق أسماء هذه المواضع العربية أولاً ثم الاسم الأجنبي بعد ذلك تسهيلاً على القارئ في معرفة المواضع المقصودة؟

"الأزرق ١٨"[١٧]، وفي موقع "الجديد J406a" في وادي الحسمى[١٨]، وفي منطقة البازلت كموقع "خلة عنزة" و"قاع الصبحي"[١٩]. كما كشفت "ديانا كيركبرايد" (D. Kirkbride)عن أرضيات، ومواقد، وحفر في الطبقة العائدة إلى الفترة النطوفية في موقع "البيضا"[٢٠]. وتعدّ الأبنية المكتشفة في الأردن متشابهة مع غيرها من مواقع الفترة النطوفية في سورية وفلسطين.إذ تميزت عمارة الفترة النطوفية بالمخطط الدائري الشكل المبني من الحجارة أو الطوب والأرضيات الطينية[٢١]. ويعدّ موقع "عين الملاحة" الواقع في حوض بحيرة الحولة في وادي الأردن أحد افضل النماذج لقرى الفترة النطوفية في بلاد الشام، حيث كشفت التنقيبات التي أجراها "جان بيرو" (J. Perrot)، منذ الخمسينيات من هذا القرن في الموقع عن ثلاث سويات أثرية نطوفية، احتوت على ما يقارب الخمسين بيتاً دائرياً تتراوح أقطارها بين ٣-٨ أمتار. شيّدت جدران هذه البيوت وكانت دون مستوى الأرض من الطين القاسي أو الحجارة، وهي لا تزال قائمة بارتفاع المتر تقريباً وأغلبها مقامة على أسس حجرية. وعثر على بيت دائري آخر (بيت رقم ١٣١) يضم ستة أعمدة منتظمة تنظيماً دائرياً، تتراوح المسافة الفاصلة بينها بين متر و ١,٥ متر وقطر كل عمود حوالي ٢٠سم. واحتوت هذه البيوت على مواقد حجرية ذات شكل بيضوي أو مربع ومخازن للحبوب[٢٢].
واستمر التقدم العمراني في التطوّر خلال العصر الحجري الحديث (خارطة رقم ١) الذي تميز بنشوء القرية، ومعرفة الزراعة، وتدجين الحيوانات، إضافة إلى معرفة صناعة الفخار. وكانت القرية في فترة العصر الحجري الحديث (قبل الفخاري "أ") (Pre-Pottery Neolithic) صغيرة جداً وبيوتها دائرية الشكل ذات سقوف جمالونية وذات أرضيات من الطين المدكوك. ويعدّ موقع "عراق الدب" في جبال عجلون من أفضل المواقع الممثلة لعمارة هذه الفترة في الأردن؟ إذ إن إنسان تلك الفترة أقام مبانيه ولأسباب غير معروفة داخل العراق (الكهف الصغير) مخالفاً تقاليد تلك الفترة التي كانت مبانيها تقام في المناطق المكشوفة. إذ عثر المنقب داخل الكهف على بقايا عمائرية تتمثل ببنائين على شكل شبه دائري. وجاء البناء الأول بيضوي الشكل مبنياً من حجارة غير مشذبة وأرضية من الطين المدكوك تشتمل على حفرة بيضوية وموقد في وسط البناء مبني من الحجارة. أما البناء الثاني فجاء على شكل بيضوي مبني من حجارة غير مشذبة وأرضية طينية شبه دائرية تعلو أرضية الطين البيضوية وبطرفها

حجر مثبت بأرضية الطين بواسطة حجارة دائرية. ويعتقد أن الغرض منه هو تثبيت العمود الخشبي المخصص لحمل السقف. وعثر على حجر آخر به حفرتان وهو غير مثبت بالأرضية الطينية، إضافة إلى حجر صوان مثبت بأرضية الطين بواسطة حجارة دائرية[٢٣]، وكشفت التنقيبات في موقع "الذراع" في جنوب الأردن عن بقايا عمارية تتمثل ببنائين تحت مستوى الأرض. كما عثر على بقايا بيت دائري مبني من الحجارة، ويبلغ ارتفاع الجدران فيه حوالي ٨٥سم[٢٤].

استمر التطوّر العمراني في التقدم خلال العصر الحجري الحديث (قبل الفخاري "ب") (Pre-Pottery Neolithic B) ، إذ بدأت تتضح الأساليب العمارية للإنسان الأردني، وذلك بتأثير الاستقرار وتراكم الخبرة والحاجة إلى التنوع الوظيفي للمباني. ومن خلال الدراسة المورفولوجية التي تشمل العلاقة بين شكل المسكن ومساحته ووظيفته، يمكن التحدث عن المسكن ذي الغرفة الواحدة، والمسكن المستطيل متعدد الغرف، والمخازن والمسكن ذي الوظيفة الخاصة.

١- المسكن ذي الغرفة الواحدة:

يتصل المسكن بإحدى الخصائص الطبيعية للإنسان وهي حاجته للنوم والراحة، وقد شكلت المساكن ذات الغرفة الواحدة بتخطيطها الدائري البداية الأولى للمساكن في المرحلة التي تلت خروجها الإنسان من الكهوف. وكانت البيوت الأولى تتألف من غرفة واحدة أو غرفتين. ويمكن إرجاع بساطة التكوين المعماري لهذه المساكن إلى الغرض المطلوب من تشييدها في البداية، وهو المتمثل باتخاذها ملجأ يحمي الإنسان من الظروف البيئية وقسوتها ومن الحيوانات المفترسة. كما إن بدائية الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والفكرية ساهمت في انصراف الإنسان عن الاهتمام بالناحية الجمالية والفنية لمسكنه. وشمل المسكن ذو الغرفة الواحدة نموذج التخطيط الدائري والتخطيط المستطيل.

١-١: التخطيط الدائري: (صورة رقم ١)

المعروف أن المساكن الدائرية كانت الصفة المميزة لعمارة مرحلة العصر الحجري الحديث (قبل الفخاري "أ") في المشرق، لذا يعدّ استخدام المساكن الدائرية في هذه

المرحلة مؤشراً على استمرار التقنية المعمارية للفترات السابقة لهذه المرحلة وتوارثها وقد عثر على أمثلة لها في مواقع "البيضا"، و"عين أبو نخيلة" في جنوب الأردن، و"عين غزال" في وسط الأردن، و"وادي الضباعي "ب" في الصحراء الشرقية، وتعدّ مساكن السويتان السادسة والخامسة في موقع "البيضا" من أفضل الأمثلة على مساكن المخطط الدائري، إذ كشفت التنقيبات الأثرية "لكراكبرايد" في السويتين مجموعة من المساكن الدائرية تحت مستوى سطح الأرض بحوالي ٥ سم، وينزل إليها بثلاث درجات حجرية، وذات أرضيات وجدران، مقصورة بالجص. وتتميز مساكن السوية السادسة بكونها متلاصقة ومرصوصة بجانب بعضها بعضاً، كأنها خلية نحل، كما كانت تحتوي تجاويف عمودية متوازية على مسافات متساوية داخل الجدران الدائرية، إضافة لحفر الأعمدة الموجودة في وسط أرضية المساكن، استخدمت كركيزة لحمل السقف، بينما تخلو جدران مساكن السوية الخامسة من تلك التجاويف، وبكونها منفصلة عن بعضها بعضاً(٢٥). وعلى الرغم من تحدث بعض الباحثين عن وجود سوية تعود للمرحلة "أ" من (العصر الحجري الحديث قبل الفخاري) في موقع "البيضا" وذلك رغم عدم وجود أية دلائل تعود لهذه المرحلة(٢٦)، فإننا نعتقد بأن مساكن السوية السادسة هي الأقدم في الموقع. وهذا يشير إلى وجود استمرارية داخل جماعات العصر الحجري الحديث (قبل الفخاري "ب") لتقليد بناء المرحلة السابقة قبل حدوث التغيرات التي جرت في المشرق. وعثر على نموذج آخر للمخطط الدائري في موقع "عين أبو نخيلة"، إذ كشفت تنقيبات "كيربرايد" عن بقايا مسكن دائري مشيد من الحجارة، تحت مستوى الأرض، جنباً إلى جنب مع مسكن مستطيل الشكل، مما يشير إلى احتمالية تشييد المساكن الدائرية والمساكن المستطيلة في الوقت نفسه(٢٧).

وعثر في المنطقة الجنوبية الغربية لموقع الغويرا، على مساكن دائرية الشكل مع مدخل في الجهة الشمالية من المبنى، ويقابل المدخل كوّة (Niche). وعثر فوق أرضية المبنى وبالقرب من الكوة على تمثال حجري صغير(٢٨). كما كشفت التنقيبات الأثرية

في موقع "عين غزال" بالقرب من عمان عن أبنية دائرية الشكل في المنطقة الشمالية ترجع لفترة العصر الحجري الحديث (قبل الفخاري "ب"). ولاحظ المنقبون بأنه تم ترميم الأرضية المكلسة لأحد المباني حوالي ثماني مرات(٢٩). وكشفت التنقيبات الأثرية عن مبانٍ دائرية وجدران حجرية احتوت على أرضيات، ومواقد، وحفر استخدمت للأعمدة التي تحمل السقف في موقع وادي الضباعي "ب" في المنطقة الشرقية من الأردن والذي يبعد ٦٠ كم شرقي عمان(٣٠).

وظهرت نماذج مماثلة لهذه المباني في مواقع مختلفة من بلاد الشام، ففي موقع نخال إبشارون (Nahal Issaron) في صحراء النقب الواقع على بعد ٦٠ كم من موقع البيضا" عثر في الطبقة "ج" (C) على مبانٍ دائرية تشبه مباني السوية السادسة في موقع البيضا. وقد شيدت المباني منفردة من ألواح حجارة كلسية، لا تزال جدرانها قائمة على ارتفاع ٧٥ سم، وتبلغ مساحة هذه المباني بين ٢ إلى ٣,٥٤م(٣١). ولا ينحصر التشابه في المخطط، وإنما يشمل أيضاً المواد الإنشائية المستخدمة (الحجارة والأخشاب). ويعتقد المنقب أن الموقع استوطن موسمياً ولفترة قصيرة(٣٢)، كما تم الكشف عن مساكن دائرية في موقع "المريبط" (السوية الثالثة) وموقع "الشيخ حسن" في سورية(٣٣). ويستدل من المخلفات الأثرية المكتشفة في البيوت كالمواقد والأجران والمدقات والأدوات الصوانية، إضافة إلى مساحة الغرف بأنها استخدمت لأغراض سكنية.

١-٢: التخطيط المستطيل:

ظهرت نماذج المساكن المستطيلة ذات الغرفة الواحدة في موقع "البيضا" و"عين أبو نخيلة"، و"البسطة"، و"أصفية"، و"عين الجمام" في جنوب الأردن، و"عين غزال" و"وادي شعيب" في وسط الأردن.

كشفت التنقيبات في السوية الرابعة بموقع "البيضا" عن مساكن بيضوية الشكل ذات زوايا دائرية، تحت مستوى الأرض. بلغت مساحة الغرفة حوالي ٥×٦ م، شيدت

جدرانها المنحنية من الحجارة الغفل، وطليت الأرضية والجدران بالجص، وتحتوي على موقد، ومحاطة بساحة خاصة بها[٣٤]. وتمثلت مساكن السوية الثالثة والثانية في "البيضا" بمساكن تتألف من غرف واسعة، بلغت مساحتها ٩×٧ م، مشيدة بالحجارة الغفل، وتحت مستوى الأرض، ويتم النزول إليها بواسطة ثلاث درجات حجرية، طليت الأرضية والجدران بالجص، ويظهر على بعض طبقاتها حزوز من الخطوط الحمراء على مسافة ٢٥سم من الحائط، ثم تمتد لأسفله لتؤلف شريطاً تزينياً يذكر بمساكن "شاتال هويوك" (Çatal Huyuk) و "هاجيلار (Hacilar)"[٣٥]. وتحدثت كيركبرايد" عن وجود مساكن مستطيلة الشكل، مشيدة بالحجارة الغفل، تحت مستوى الأرض، إلى جانب المساكن الدائرية الشكل في موقع "عين أبو نخيلة"[٣٦]. وأظهرت نتائج التنقيبات الأثرية في المنطقة "أ" بموقع "البسطة" عن مجموعة من الغرف تتميز بعدم وجود مساحات فارغة بينها، وتعدّ الغرفة البالغة أطوالها ٤,٥×٩م مثالاً جيداً لهذا النموذج من المساكن[٣٧]. كما عثر في موقع "إصفية" على غرفة مستطيلة مشيدة بالحجارة الغفل وطليت أرضيتها وجدرانها بالملاط الجصي المدهون باللون الأحمر[٣٨]. وكشفت تنقيبات "محمد وهيب" في المرحلة السكنية الأولى والثانية بموقع "عين الجمام" عن مجموعة من المساكن ذات المخطط المستطيل المؤلفة من حجرة واحدة، وبمساحات متباينة. وشيدت المساكن من الحجارة الجيرية القاسية[٣٩]. كما كشفت النقاب في موقع "عين غزال" عن مساكن تتألف من حجرة واحدة، مستطيلة الشكل، ولها مدخل يقع في أحد الجوانب يتم الدخول منه إلى ممر ثم إلى داخل الغرفة. طليت أرضية الغرفة وجدرانها بالجص والمدهون أحياناً باللون الأحمر. وتحتوي المساكن على مواقد مغروزة داخل الأرضيات، إضافة إلى حفر الأعمدة. ويطلق العلماء على هذا النوع من المساكن اسم (Pier House)[٤٠].

٢- المسكن متعدد الغرف:

سار التحول في بناء هذا النمط من المساكن في اتجاهين متوازيين، أولهما تخطيطي تمثل بشيوع استخدام الأشكال المضلعة (مربع- مستطيل) بدلاً من الشكل الدائري، وذلك لسهولة التوسع بإضافة وحدات جديدة للمسكن النواة، وثانيهما اجتماعي، ويتمثل بازدياد عدد أفراد الأسرة بالتوالد، ولذلك أصبحت المساكن المضلعة تمثل مساكن أسر متسعة وليست مساكن أفراد(٤١)، وهو ما يدل على استقرار أكثر للإنسان نتيجة للتقدم البشري في أعمال السيطرة على الموارد الاقتصادية في مجالي الزراعة وتدجين الحيوانات.

المساكن المتعددة الغرف: وهي مساكن ذات مخطط أرضي مستطيل، ويمكن تقسيمها حسب الأبنية الملحقة بها إلى ما يلي:

١- المسكن الخاص ٢- المساكن العامة.

١- المسكن الخاص:

يتكون هذا النوع من المباني من غرفتين أو أكثر، مستطيلة، متباينة المساحات، وتتألف غرفها من أربعة جدران مستقيمة، ويمكن أن تكون بعض جدرانها منحنية قليلا. اكتشف هذا الشكل من المباني في معظم مواقع العصر الحجري الحديث (قبل الفخاري "ب") إلى جانب أشكال المساكن الأخرى. وتدل المخلفات التي تم العثور عليها في هذه المباني، والمتمثلة بالمواقد والأدوات الصوانية وغيرها على أنها كانت مباني سكنية اعتيادية. وكشفت التنقيبات الأثرية في المنطقة "أ" في موقع "البسطة" عن مساكن مستطيلة الشكل، شيدت بألواح من الحجارة الجيرية المشذبة، تميزت بقلة وجود الممرات والمساحات المشتركة بين الأبنية، مما يصعب التمييز بين وحدات الأبنية الصغيرة من الأبنية الكبيرة، وذلك نتيجة لتحديد الوحدة السكنية بجدار طويل ومن ثم توزيع الغرف على جانبي الجدار، وطليت الأرضيات والجدران بالملاط الجصي، المدهون أحياناً باللون الأحمر. وتشير التقارير إلى تشييد مساكن "البسطة" حسب مخطط مسبق، إذ عثر تحت الأرضيات على قنوات مغطاة بألواح حجرية،

مبنية من الحجارة الغفل، وغير مقصورة من الداخل[٤٢]. وأظهرت التنقيبات الأثرية في موقع (الغوير ١) لعام ١٩٩٣، مساكن مستطيلة الشكل ذات أرضيات مطلية بالجبص ومدهونة باللون الأحمر[٤٣]. وكشفت التنقيبات الأثرية في المرحلة السكنية الأولى والثانية في موقع "عين الجمام" عن مجموعة من المساكن المستطيلة الشكل، المشيدة بالحجارة المشذبة، وطليت الأرضيات والجدران بالجص المدهون أحياناً باللون الأحمر. وقد استخدمت الدعامات الحجرية في رفع السقف[٤٤]. وعثر على أمثلة مشابهة لهذا النمط من الدعامات في موقعي "البسطة" و"إصفية".

وكشفت التنقيبات الأثرية في موقع "عين غزال" بالقرب من عمان في وسط الأردن عن مساكن مستطيلة الشكل في المنطقة الوسطى والشمالية والغربية. وقد تكونت هذه المباني من غرفتين أو ثلاث غرف، شيدت بحجارة غير مشذبة حول محور شرق - غرب، وتراوحت مساحة الغرفة الواحدة بين ١٠-٢٥م. وطليت الأرضيات الجصية والجدران أحياناً باللون الأحمر أو البني، وتتميز مباني عين غزال بأنها تعرضت للتوسع أو التصغير حسب الحاجة، واشتملت كل غرفة على موقد مغروز داخل الأرضية(٤٥).

وتشير تقارير أولية لنتائج مسوحات وتنقيبات أثرية في بعض المواقع عن وجود بعض المساكن المستطيلة الشكل، المشيدة بالحجارة الغفل، ويحتوي بعضها على أرضيات مقصورة ومدهونة كموقع "بعجة"[٤٦]، و"خربة الحمام"[٤٧]، و"الضمان"[٤٨]، و"وادي شعيب"[٤٩].

٢- المساكن العامة:

يعدّ ظهور الأبنية التي صممت أساساً لأداء الوظائف العامة من أحد أهم المظاهر التي ميزت التقدم الاجتماعي لسكان الأردن القديم، وتتميز هذه المساكن باستخدام وظيفي مختلف عن المسكن الخاص رغم أنها تتشابه تخطيطاً معه في كون النموذجين يحملان

شكلاً مستطيلاً والأرضيات مقصورة بالجبص الأبيض. وقد تم رصد نماذج متعـــددة من المساكن العامة تجملها بما يلي:

٢-١: المشاغل (أبنية الممرات):

يتميز العصر الحجري الحديث بوجود تنوع في الصناعات التي مارسها الإنسان سواء بما ابتكره من صناعات جديدة أو بما طوره من صناعات ورثها عن أسلافه. وتشـــير الأدلة المادية إلى أن الإنسان القديم قد مارس صناعة أدواته وآلاته داخـــل الوحـــدات السكنية قبل أن يتخذ لها مكاناً مستقلاً خارج أماكن سكناه. ونعتقد بأن التخصص فـــي العمل والملكية الفردية قد ظهرا في العصر الحجري الحديث، وليس كما يرى بعـــض الباحثين بأن التخصص قد ظهر في العصر الحجري النحاسي. ونستند في رأينا إلـــى جملة حقائق، منها التقنية العالية في مختلف مجالات العمارة، والتي تظهر بوضوح في مواقع عدة، أهمها موقع عين غزال، وموقع البسطة، وموقع إصفية، وموقـــع عيـــن الجمام وغيرها، ومنها التطوّر الكبير في الصناعات الحجريـــة والعظميـــة، وكذلـــك التطوّر في صناعة التماثيل الفنية وهي ذات تقنية عالية تشير إلى التخصص المـــهني لصانعها واستند كل هذا على تطوّر اقتصادي فـــي مجـــالات الزراعـــة والتدجيـــن والتجارة. وتعدّ نماذج هذه المباني المكتشفة في الأردن قليلة جـــداً، إذا لـــم تكشـــف التنقيبات الأثرية عن نماذج لها سوى في عدد قليل من المواقع. ويعدّ نمـــوذج موقـــع "البيضا" من أهم النماذج الممثلة لهذا النمط المعماري. فقد أظهرت التنقيبات الأثريـــة في السويات الثالثة والثانية عن مجموعة من المساكن، اصطلح على تسميتها بمبـــاني الممرات (Corridor Buidings). تتكون هذه المساكن من ممر طويل (٨×١م) يحيـــط بجانبيه ثلاث غرف صغيرة ذات مساحات صغيرة (١,٥×١م)، تفصلها عن بعضـــها بعضاً حواجز حجرية سماكتها متر وتتعداه أحياناً، وطلي أعلاها بالجبص. ويعتقد بـــأن سماكة هذه الحواجز كانت ضرورية لحمل طابق ثاني، ربما استخدم كمكـــان لســـكن أصحاب هذه المشاغل. ولا تشذ هذه المساكن عن بقية مساكن السويات الســـت فـــي

البيضا" بكونها شيدت بحجارة غفل، وبوجود ثلاث درجات حجرية للنزول إلى المشاغل، المشيدة تحت مستوى الأرض. وطليت الأرضيات والجدران بالجبص. وتخلو مداخل المشاغل بعدم وجود أية دلائل على استخدام الأبواب، مما يدعو للاعتقاد بأنهم استخدموا الجلود لإغلاقها. كما احتوت بعض هذه الغرف على مصاطب حجرية على جوانب جدرانها الداخلية. ويستدل من حجم الغرف، وتصميمها، ومن المحتويات المكتشفة في داخل كل غرفة بأن هذه الغرف قد استخدمت كمبانٍ ذات وظائف عامة كمراكز تجارية وصناعية لصناعة المنتوجات الصناعية وبيعها، كالجواريش والمدقات وأدوات الزينة والأدوات الصوانية والعظمية(٥٠).

كما تم الكشف في موقع الغوير "١" عن غرف بمساحة ٤×٤,٥م، أعيد استعمالها كغرف صغيرة المساحة ١×١,٥م، تذكرنا بمباني الممرات مع وجود نوافذ صغيرة استخدمت كمداخل(٥١).

وكشفت التنقيبات الأثرية التي أجريت عام ١٩٩٤، في المنطقة الجنوبية في موقع "عين غزال" عن وجود نماذج مماثلة لمباني الممرات أُرِّخت لفترة العصر الحجري الحديث قبل الفخاري ب، ج، (PPN B, C)، إذ كشفت التنقيبات الأثرية عن بناء مستطيل الشكل، يتألف من مجموعة من الغرف الصغيرة المبنية حول ممر ضيق، ولها أرضيات مطلية بالجص ومدهونة أحياناً باللون الأحمر(٥٢). وكشفت التنقيبات في أعوام ١٩٨٩ و١٩٩٣ عن ثالث غرف صغيرة المساحة (٢×٢م) متجاورة تفتح مداخلها على ساحة واسعة في الشمال(٥٣). وقد عثر في داخل إحدى هذه الغرف على آنية تخزين من الطين المجفف(٥٤). وتعود هذه الغرف إلى فترة العصر الحديث (قبل الفخاري "ب").

٢-٢: المخازن:

يعود تشييد الإنسان للمخازن إلى استقراره في موقع محدد ليمارس الزراعة والرعي، مما أوجد لديه فائضاً غذائيا دفعه إلى تشييد مراكز التخزين. ولكن يجدر بنا القول: إن

وجود المخازن قد سبق استقرار الإنسان في القرى الزراعية، إذ إنه استخدم أماكن بسيطة داخل الكهوف التي سكنها في بداية حياته كمناطق تخزين. وقد تمثلت أماكن التخزين في المرحلة اللاحقة لنعصر الحجري القديم بأنواع بسيطة من الحفر الأرضية بقياسات صغيرة ومتوسطة حفرت في أرضيات المساكن الخاصة. وقد أدت زيادة الرقعة الزراعية وإدخال أصناف جديدة من النباتات للزراعة وتحسن نوعيتها إلى إيجاد فائض في الإنتاج الزراعي استلزم التفكير في عملية حفظه لأغراض ثلاثة، أولها: إيجاد تخزين دائم للأسرة أو المجموعة، والثاني: توفير البذار بكميات كافية لزراعتها في الموسم التالي. والثالث: استخدام الفائض في المقايضة مع المراكز المجاورة أو البعيدة بمنتجات زراعية غير متوافرة لديه لعدم ملائمة ظروف بيئته لزراعتها أو بمواد أولية لا تتوافر لديه. ونستطيع أن نميز نوعين من المخازن التي استخدمها الإنسان في هذه المرحلة هما: مناطق التخزين البسيطة ومجمعات التخزين.

٢-٢-١: مناطق الخزن البسيطة:

وهي غرف صغيرة تابعة لأحد البيوت استخدمت لخزن المحاصيل الزراعية، وعثر على أمثلة لهذا النمط من المخازن في مواقع "البيضا"، و"عين الجمام"، و"عين غزال". فقد وجد في السوية السادسة بموقع "البيضا" عن عدة حجيرات تنحشر في الفراغات الضيقة التي تفصل الجدار الخارجي عن الغرف السكنية. كما يمكن الاستدلال على استخدام بعض غرف السوية الرابعة كمخزن وذلك من خلال وجود أدوات طحن وجرش فيها وضعت على حدة[٥٥]. ونتج عن الحفريات التي أجرها "محمد وهيب" في موقع "عين الجمام" الكشف عن غرفة مثلثة الشكل، بلغت مساحتها المتر الواحد، وذات أرضية مرصوفة بالألواح الحجرية الرقيقة، ربما تكون جزءا من مسكن[٥٦]. كما عثر داخل جدران بعض المساكن على كوات يحتمل استخدامها كأماكن تخزين[٥٧]. وتم رصد بعض مناطق التخزين في موقع "عين غزال" بالقرب من عمان. ففي الغرفة رقم

"٦" عثر على كوة استخدمت كمكان للتخزين في مرحلة لاحقة بعد إعادة تنظيم الغرفة[٥٨].

٢-٢-٢: مجمعات التخزين (صورة رقم ٢):

لم تكشف التنقيبات الأثرية في مواقع هذه الفترة عن أمثلة عديدة لهذا النوع من المخازن باستثناء موقع "البسطة" إذ كشفت التنقيبات الأثرية في المنطقة "ب" عن مجموعة متكررة من المباني المتشابهة في مخططها العام الذي كان يتكون من غرفة مركزية،مستطيلة الشكل، بلغت مساحتها (٦×٣,٥م)، محاطة بمجموعة من الغرف الصغيرة التي لا يتجاوز مساحتها المتر الواحد. شيدت هذه المساكن حسب مخطط مسبق فوق قنوات حجرية غير مقصورة، بحجارة كلسية مشذبة، وأرضيات وجدران مطلية بالجص، حملت بعضها تشكيلات هندسية ملونة باللون الأحمر والأسود على خلفية ذات لون سكري فاتح[٥٩]. وحافظت بعض الجدران على ارتفاعها الأصلي، إذ عثر على جدران قائمة بارتفاع ١٩٠سم[٦٠]، كما استخدمت الأعمدة الحجرية الجانبية لمساندة الجدران لرفع السقف.

وتشير تقارير المنقبين إلى خلو الغرف الصغيرة من أية مداخل باستثناء نوافذ صغيرة في الجدار المواجه للغرفة المركزية، ترتفع حوالي ٦٠سم عن أرضية الغرفة[٦١]، مما يشير إلى إمكانية استخدام السقف كمدخل لهذه الغرف. ويعدّ موقع البسطة من أوائل المواقع القليلة التي احتوت مساكنها على نوافذ سواء في جدرانها الخارجية أو الداخلية[٦٢]. ويستدل على استخدام الغرف الصغيرة كأماكن تخزين من صغر حجمها، والمخطط العام للمباني، وخلوها من أية مداخل باستثناء النوافذ الصغيرة، إضافة إلى العثور على أعداد كبيرة من أدوات الطحن والجرش في المبنى[٦٣].كما كشفت التنقيبات الأثرية على طابون بالقرب من أحد الأعمدة الحجرية، وجد بالقرب منه على إناء مصنوع من الطين المشوي شبه كامل، ولا ينقصه سوى القبة والحافة[٦٤]..

ويتمتع هذا المجمع التخزيني بخصائص معمارية تجعله متميزاً عما سبقه من نماذج معمارية، منها فخامة البناء ممثلة بانتظام الجدران المشيدة بالحجارة المشذبة والمزودة

بعدد غير قليل من الدعامات الحجرية الساندة للمبنى المتألف من عدد من الغرف أكبر بكثير مما سبقها من نماذج.

وكشفت التنقيبات الأثرية في المنطقة "أ" في موقع إصفية في جنوب الأردن عن أنموذج لأبنية يتكون من غرفة واسعة المساحة ٣,٥×٢,٥م ومحاطة من جانبين بمجموعة من الغرف الصغيرة المساحة، إذ وجد ثلاث غرف من الجهة الغربية وغرفتان في الجهة الشرقية. وهذه الغرف مستطيلة الشكل باستثناء الغرفة رقم ١٢ وهي ذات جدار منحنٍ. أرضية الغرف مطلية بالقصارة البيضاء ومدهونة باللون الأحمر، وتمتد القصارة علىّ جدران الغرفة. ويتم الدخول إلى الغرف الصغيرة بواسطة مدخل من الغرفة الرئيسية كما وجذ في المنطقة "أ" سبع غرف مستطيلة الشكل، صغيرة المساحة، وبمساحات مختلفة، بينما الغرفة الرئيسية تعرضت للدمار بواسطة البلدوزر، وتمتاز مباني موقع إصفية بوجود تقنية تشييد قنوات أسفل هذه المساكن، إذ كشفت التنقيبات عن وجود شبكة من القنوات ممتدة تحت أرضيات المباني المكتشفة[٦٥].

٢-٣: المعابد:

ترك الدين أثراً بالغاً في التطوّر المعماري للإنسان، إذ إن الفكر الديني وجد مع وجود الإنسان على الأرض. فقد كشفت التنقيبات الأثرية عن مخلفات لها علاقة بالدين في مواقع استقرار الإنسان لأولى[٦٦]. ويبدو واقعياً قيام الإنسان بتشييد مناطق خاصة لممارسة الشعائر والطقوس الدينية بعد استقراره في قرى دائمة وتبلور الفكر الديني عند إنسان العصر الحجري الحديث، والذي ارتبط بالقوى المولدة الدالة على الخصب والنمو[٦٧]، والتي جسدها على هيئة تماثيل ودمى بأشكال أنثوية بالغ في إظهار أعضائها الجنسية (كبر الثدي وضخامة البطن والعجز). وقد تم العثور على أعداد منها في موقع أريحا في فلسطين. وموقع البيضا وموقع عين غزال في الأردن، وموقع المريبط وموقع تل الرماد، وموقع تل أسود في غوطة دمشق في سورية، وموقع شاتال هيوك في تركية، مما يشير إلى وجود المعتقد الديني عند الإنسان[٦٨]. ويميل بعض الباحثين إلى ترجيح ظهور المعابد الأولى في الأردن خلال العصر الحجري النحاسي في تليلات الغسول[٦٩]. غير أنني أرجح ظهور المعابد في العصر الحجري الحديث (قبل الفخاري "ب") للأسباب التالية:

١-وذلك لأن ظهورها قد ارتبط بشكل مباشر بالازدهار الاقتصادي، وهي الفترة التي بدأت تتجلى فيها ملامح النضج في الحياة الاقتصادية وانعكاساتها على مجمل نشاط الإنسان في الصناعة والعمارة والتجارة والديانة[٧٠].

٢-فإن ظهوره المفاجئ في العصر الحجري النحاسي حسب ما يقول أصحاب هذا الرأي مخالف لمنطق التطوّر الحضاري للإنسان من النواحي الفكري والتقنية، كما أنه قائم على فكرة خطيرة تتمثل بأن سكاناً من خارج المنطقة هم الذين جلبوا معهم مفاهيم الفكر الديني وتطبيقاته العمارية.

لقد كشفت التنقيبات الأثرية في أغلب مواقع العصر الحجري الحديث عن الكثير من النماذج لتماثيل أو دمى تمثل نساء عاريات ضخمت أعضاؤهن الخاصة بالولادة والرضاعة بشكل لافت للنظر، وأطلق الباحثون على هذه التماثيل اسم "الآلهة الأم" التي عدّت كرمز للخصوبة والاستمرار، كما وعثر على جماجم مكلّسة في العديد من مواقع العصر الحجري الحديث (قبل الفخاري). ويشير وجود هذا النوع من التماثيل والجماجم المكلسة بين المخلفات الأثرية إلى وجود نوع من المعتقد الديني مارسه الإنسان في مسكنه قبل بنائه للمعابد. وقد تم رصد العديد من الغرف في المساكن والتي تم عدّها المنقبون معابد، وأو مزارات، أو مناطق لممارسة بعض الطقوس. فقد أشارت "كيركبرايد" إلى وجود مبنى في موقع البيضا في المربع T2[٧١]، رصفت أرضيته بالحجر اللوحي بطريقة متينة، وأطلقت عليه اسم الحرم (Sanctuary). وكشفت التنقيبات الأثرية في المنطقة الشمالية بموقع عين غزال عن مبنيين دائريين يعتقد المنقبون "كفافي ورولفسون" بأن استخدامهما كان لغايات غير سكنية. وذلك استناداً للمخطط العام لهذين المبنيين. كما وأشار المنقبون إلى وجود مجموعة من المعابد في الجهة الشرقية للموقع[٧٢]. وكذلك الأمر بالنسبة لموقع الغوير "١" حيث عثر المنقب "محمد النجار" على غرفتين، إحداهما على شكل حرف D ومدخلها في الجهة الشمالية، وبها كوة (Niche) تقابل المدخل، كما عثر على تمثال حجري فوق الأرضية المطلية بالجبص غير بعيد عن هذه الكوة[٧٣]. أما الغرفة الثانية فهي تحتوي على ثلاثة كوى داخل جدارها الجنوبي مما يدل على أن الطقوس الدينية قد أجريت فيها[٧٤]. كما كشفت التنقيبات الأثرية التي أجراها محمد وهيب في عام ١٩٩٣، في موقع "عين الجمام" عن الكشف عن عدد من مباني مشيدة من حجارة غير مشذبة وذا

شكل مستطيل، شملت إحدى غرف هذه المباني (غرفة ١٠١) على كوتين، إحداهما ضمت بقايا جمجمة حيوان تبرز قرونه من الكوة[٧٥]. كما عثر في الغرفة نفسها على مدفن يحتوي على هيكل بشري كامل[٧٦].

وختاماً، فقد حاولنا في هذه الدراسة تتبع تطوّر العمارة في فترة العصر الحجري الحديث (قبل الفخاري) من خلال دراسة أنماط المساكن الخاصة والعامة اعتماداً على تخطيطها العام. ومما سبق ذكره، فإننا نستطيع القول إن التطوّر الذي شهدته عمارة المسكن، سواء في مساحته أو في المرافق التابعة له، كانت تلبية لمتطلبات عديدة: حياتية وبيئية، واجتماعية، وأمنية، وتقنية، وذلك نتيجة للتطوّر الثقافي والاجتماعي الذي مرّ به الإنسان. كما أن التطوّر في أساليب تخطيط المخازن وتشييدها جاء نتيجة للتطوّر الاقتصادي في المجال الزراعي. في حين يعدّ التطوّر في تشييد المشاغل تقدماً في المجال التقني بغرض تلبية الاحتياجات الحياتية اليومية والترفيهية. أما بناء المعابد فنتج عن التطوّر الفكري والديني للإنسان.

الهوامش

(1) Oakley K. P.. 1952 "**Man the Tool Maker**". p. 38 2nd ed. London.

(2) Mnheisen M. 1988 "**Le Paléolithique et P épipaléothique en Jordanie**"_Inpuhlished -Doctorat d'Etat. Université de Bordeaux I. Bordeaux. Pp. 333-335.

(٣) محيسن، سلطان ، ١٩٩٠-١٩٩١ "**عصور ما قبل التاريخ**" ، جامعة دمشق، ص ١٢٨-١٢٩.

(4) Henry D.. 1988 "Summary of Prehistoric and Palaeonvironmetal Research in Northern- Hisma". in Garrard A and Gebel H. -G., (eds.) **The Prehistory of Jordan The State of Research in 1986** P. 11. BAR I S.. 396/1. Oxford.

(5) Muheisen 1988 Op. Cit. p 336-337.

(٦) الطاهر، حكم ١٩٨٥، "**تظريات العمارة والتصميم المعماري**(١)". ص ٩، مطبعة الأمل، عمان.

(٧) السلطاني، خالد ١٩٨٥" **حديث في العمارة**"، ص ٥، الموسوعة الصغيرة ١٥٦، بغداد.

(٨) أوتيس، ديفيد وأوتيس، جوان ١٩٨٨، "**تشوه الحضارة**"، ص ٢٣١، ترجمة لطفي الخوري، سلسلة المائة كتاب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.

(٩) الطاهر، حكم، ١٩٨٥، **المرجع السابق**، ص ٢٢-٢٤.

(١٠) ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين، ب ت. "**لسان العرب**"، المجلد ١٣، ص ٢١٢، دار صادر بيروت.

(11) Muheisen 1988 Ibid p. 358.

(12) Clarck G. A Majchrowicz D. and Coinman N., 1988 "A Typological Study of Upper Palaeolithic Collections from the Wadi al-Hasaa Survey with Observation. on Adjacent Time-Stratignphic Units. PP 253-272. in B. MacDonald (ed.) **The Wadi al-Hasa Archaeological Survey (1979-1983)**. west-Central Jordan Waterloo. Wilfridlaurir University Press.

(13) Edwards P., Bourke S. J. Colledge S. M., Head J and Macumber P. G., 1988 "Late Pleistocene Prehistory in the Wadi al-Hammeh, Jordan Valley". In Garrard A. and Gehel H. -G (eds,) **The Prehistory of Jordan. The State of Research in 1986**. BAR I S. 396/ii:536-537.

(14) Muheisen M. 1988 Op. Cit p. 362

(15) Edwards P., 1987 "Late Pleistocene Occupation **in the Wadi al-Hammeh, Jordan Valley**" Unpublished Doctoral Thesis. University of Sydney. Sydney p 136-140.

(16) Muheisen M., Gehel. H. -G., Hanns C. and Neef R. 1988 "Ain Rahub, A New Final Natufian and Yarmukian Site Near Irbid". In Garrard A and Gebel H. -G, (eds) **The Prehistory of Jordan. The State of Research in 1986 BAR** 1. S., 396/ii. p. 482.

(17) Garrard A., 1991 "Ntufian Settlement in the Azraq Basin Fastern Jordan". In: Valla FF. and Bar-Yosef O., (eds.) **The Natufian Culture in the Levant** : p. 242.

(18) Henry D., 1988 Op Cit

(19) Betts A., 1 991 "The Late Epipaleolithic in the Back Desert, Eastern Jordan". in Valla F. —and Bar-Yosef O., (eds.) **The Natufain Culture in the Levant** p. 217-218.

(20) Byrd B., 1989 "**The Natufian Fncampment at Beidha**". Jutland Archaeological society Publication 33 p. 25.

(٢١) محيسن، سلطان ، ١٩٩٥-١٩٩٦ "**عصور ما قبل التاريخ**" ، جامعـة دمشـق، ص ٢٠٢.

(22) Perrot J., 1966 "Le Gisement Natoufien de (Mallaha) (Eynan), Israel". **L'Anthropologie** 70 / 5-6 Pp. 437-483

Perrot J. 974 "Mallaha (Eynan)" **Paléorient** 2/2. Pp. 485-486.

(23) Palumho G., Mabry J. and Kuijt I., 1990 "The 1989 Wadi El-Yabis Survey and Test Excamination". **ADAJ**_ 34 :95-118.

Kujit I. Mabry J. and Palumho G., 1991 "Early Neolithic Use of Upland Areas of Wadi ElYabis Preliminary Evidence from the Excavation of Iraq Ed-Dubb, Jordan".. **Paléotient** 17/1.Pp. 99-108.

(24) Kuijt I. and Mahasneh H., 1995 "Dhra and Ain Waida". **American of Archaeology** 99/3: 504.

(25) Kirkbride D. 1967 "Beidha: An Interim Report". **Palestine Exploration Quarterly 99: 6 .**

(26) Mahasneh H., 1989 "**The Settlement Patterns in the levent during the Nolithic Period**". Unpublished PH. D. Thesis, University of

Pennsylvania.
Hours F, **Aurench** O., Cauvin J., M. -C., Copeland. L., and Sanlaville P.. avec la collaboration de Lombard P., (eds) 1994 **"Atlas des Sites du Proche-Orient ([4000-5700 BP)"**. p76. lyon, Maison de Orient

(27) Kirkbride D. 1978 "The Neolithic in the Wadi Rumm: Ain Abu Nekheileh". in : Moorey R. and Parr P., (eds.) : **Archaeotogy in the Levant, Essays for Kathleen Kenyan** : p. 8. Airs. And Philips Ltd.

(28) Najjar M., 1994 "Ghuwair I, a Neolithic Site 'it Wadi Feinan". in: Kerner S., (ed.) The **Near Fast in Antiquity** IV : 79.

(29) Rollefson G. and Kafafi z., 1994 "The 1993 Season at Ain Ghazal: Preliminary Report **ADAJ** 38: Pp20-24.

Rollefson G. and Kfafi z., 1996 "The 1995 Season at Ayn Ghazal: Preliminary Report". **ADkJ** 40: Pp. 15-17.

(30) Waechter J. and Seton-Williams V., 1938 "The Excavations 'it Wadi Dhohai 1937- 1938. and the Dhobaian Industry. **Journal of the Palestine Oriental. Society** 18 :197- 186.

(31) Goring Morris A and Gopher A. 1 983 "Nahal Issaron A Neolithic Settlement in the Southern Negev, Preliminary Report of the Excavation in I 980". **Israel Exploration Journal 33/3: 155**.

(32) Goring-Morris A. 1993 "from Foraging to Herding in the Negev and Sinai: The Early to Late Neolithic Transition. **Paleorient** 19/1: 65-89.

(33) Cauvin J., 1978 "**Les Premiers Villages de Syrie-Palestine de IXeme au VIleme Millionaire avant J. C"**. Lyon. Maison de L'Orient. p. 38-43.

(34) Kirkbride D." 1962 "Excavation of the Pre-Pottery Neolithic village at Seyl Aqlat Beidha". **ADAJ 6-7**: 11

Kirkbride D., 1967 "Beidha 1965: An interim Report". **PEQ** 99: 8.

(35) Kirkbride D., 1966a "Beidha. An Early Neolithic Village Jordan". **Archeology** 19: 201.

(36) Kirkbride D., **1978** Op. **Cit.** p. **7-it**

(37) Nissen H. J., Muheisen M., Gebel H.-G., with Contributions by Becker C., Neef R. Pacher H. H. Qadi N. and Schultz. M., 1987

"Report on the First Tow Seasons of Excavations at Basta". (1986-1987) **ADAJ** 31 Pp. 88-89.

(38) Mahasneh H., 1996 Es-Sifiya A Pr -Pottery Neolithic B Site in Wadi ElO Mujib. Jordan **Dinsat** 23 1 : 135-151.

(٣٩) فينو، نزيه، ١٩٩٦، عين جمام: دراسة أثرية، ص: رســالة ماجســتير غــير منشورة ، قسم الآثار، الجامعة الأردنية، عمان.

(40) Banning B. and Byrd B., 1984 The Architecture of PPNB Am Ghazal. Jordan. **BASOR** 225: 15-20.

Banning B. and Byrd B., 1987 Houses and the Changin Residential Unit. Domestic Architecture at PPNB Ain chazal. Jordan. **Proceedings of the Prehistory Society** 53: 309-325.

(41) Flannery K., 1972 "**The Origins of the Village as a Settlement Type in Mesopotamia and the Near East**". p. 39. England.

(42) Nissen H. J. Muheisen M., Gebel H.-G., with Confirmations by Becker C., Neef R. Pacher H. H., Qadi N. and Schultz., M., 1987 Op. Cit. Pp. 88-89.

(43) Najjar M., 1994 "Ghuwair I a Neolithic Site at Wadi Feinner's. in Kerner S., (ed) **The Near Fist in Antiquity** III: 77-79.

(٤٤) فينو، نزيه، ١٩٩٦، مصدر سابق، ص ٣٨-٣٩، ٤٢-٤٥.

(45) Binnino E. and Byrd B., 1984 "The Architecture of PPNB Ain Ghazal." Jordan **BASOR** 255: Pp 15-20.

Binning E. and Byrd B., 1987 "House and the Changing Reseidential Unit: Domestic Architecture at PPNB. Ain Ghazal. Jordan." **PPS** 53: Pp.309-325.

(46) Gebel H. -G., and Strack J M., 1985 "Investigations in to The Stone Age of The Petra Area (Early Holocene Research). A Preliminary Report on the 1 984 Campaigne. **ADAJ** 29: 97

(47) Rollefson G. and Kafafi Z., 1985 "Khirbet Huamman: A PPNB Village in the Wadi el-Hasa. Southern Jordan". **BASOR** 258: 66

(48) Kirkbride D., 1966a "Five Seasons at the PrePottery Neolithic village of Beidha in Jordan". **PEQ** 98: p.55.

Kirkbride D., 1966a Op cit. P. 201.

Gebel H-G., 1988 "Late Epipaeolithic-Aceramie Neolithic Sites in Petra"

in Garrard A. and Gebel H. G- (eds) **The Prehistory of Jordan, The State of Research in 1986** BAR I.S. 396/I: 81.

(49) Simmons A., Kafafi Z., Pollefson G. and Moyer K., 1989 Test Evacuations at Wadi Shueib, A Major Neolithic Settlement in Central Jordan, **ADAJ** 33:36.

(50) Kirkbride D., 1966a Op. Cit. Pp. 302-204.

(51) Najjar M. 1994 Op Cit. p 79

(52) Rollefson G., Simmons A and Kafafi Z., 1992 "Neolithic Cultures at Ghazal, Jordan, **journal of Field Archaeology** 19:450.

(53) Rollefson G. and Kafafi Z., with a Contribution by Wada H., 1994 "The 1993 Season at Ain Ghazal: Preliminary Report". **ADAJ** 38 p. 19.

(54) Rollefson G. Kafafi Z., and Simmons A 1993 "The Neolithic village of Ain Ghazal, Jordan: Preliminary Repot on the 1989", **Annual of the American Schools of Oriental Research** 51:fig.8.

(٥٥) أبو غنيمة، خالد ١٩٩٥، العناصر المعمارية لمساكن العصر الحجري الحديث قبل الفخاري (ب) في جنوب الأردن (دراسة تحليلية). دراسات تاريخية، ٥١-٥٢: ١٧٤.

(٥٦) فينو، نزيه، ١٩٩٦، مصدر سابق، ص ٤٤.

(٥٧) فينو، نزيه، ١٩٩٦، مصدر سابق، ص ٤٥.

(58) Banning B. and Byrd B., 1987 **Op. Cit.** P. 7.

(٥٩) نيسن، هانس، ومحيسن، مجاهد، ١٩٨٩م، الموسم الرابع للحفريات الأثرية في بسطة، ١٩٨٩. **أنباء المعهد**، ٧-٨: ص ٩-١٠.

(60) Nissen H. J., Muheisen M. and Gehel H. -G., 1991 "Report on the Excavations at Basta. 1988". **ADAJ** 35 :Pp. 13-40.

(61) Nissen H. J. Muheisen M., Gebel H. -G., with Contributions by Becker C., Neef R. Richer H, H., Qadi N. and Schultz. M. "Report on the First Tow seasons of Excavations at Basta". (1986-1987). **ADAJ** 31:Pp. 91-93. Fig. 7.

(٦٢) أبو غنيمة، خالد، ١٩٩٥، مصدر سابق، ص ١٧٨-١٧٩.

(63) Nissen. Muheisen and Gebel 1991 Op. Cit. Pp. 15-16.

(64) Nissen et al 1987 **Ibid.** p. 93.

(65) Muhasneh H., 1996 "Es-Sifiya: A Pottery Neolithic B Site in Wadi

El-Mujib, Jordan" **Dirasat** 23/1 :Pp. 135-137.

(٦٦) لورا– غوران، أندريه، ١٩٩٠، **أديان ما قبل التاريخ**، ترجمة: د. سعاد حرب، المؤسسة الجامعية، نشر والتوزيع، بيروت.

(٦٧) شايلد، جوردن، ١٩٥٦م، **ماذا حدث في التاريخ**، ترجمة: جورج حداد، القاهرة، ص ٦٨.

(٦٨) كوفان، جاك، ١٩٨٨م، **ديانات العصر الحجري الحديث في بلاد الشام**، ترجمة: د. سلطان محيسن، دار دمشق، ص ٧.

(٦٩) كفافي، زيدان، ١٩٩٠م، **الأردن في العصور الحجرية**، منشورات آل البيت، عمان، ص ١٧٦.

(٧٠) كوفاك، جاك، ١٩٩٥م، **القرى الأولى في بلاد الشام من الألف التاسع حتى الألف السابع ق.م.**، ترجمة الياس مرقص، دار الحصاد. دمشق، ص ٤٧.

(71) Kirkhride D., 1967 Op. Cit. Pp. 93-95.

(٧٢) حديث شخصي مع المنقب.

(73) Najjar M., 1994 Op. Cit. p. 79.

(74) Simmons A. and Najjar M. 1996 "Current Investigations at Ghuwair I, A Neolithic Settlement in Southern Jordan". **Neo-Lithics** 2/96 Pp. 6-7.

(٧٥) فينو، نزيه، ١٩٩٦، مصدر سابق، ص ٣١.

(٧٦) فينو، نزيه، ١٩٩٦، مصدر سابق، ص ٣٦.

خريطة توضح مواقع العصر الحجري الحديث قبل الفخاري المحتوية على بقايا عمائرية

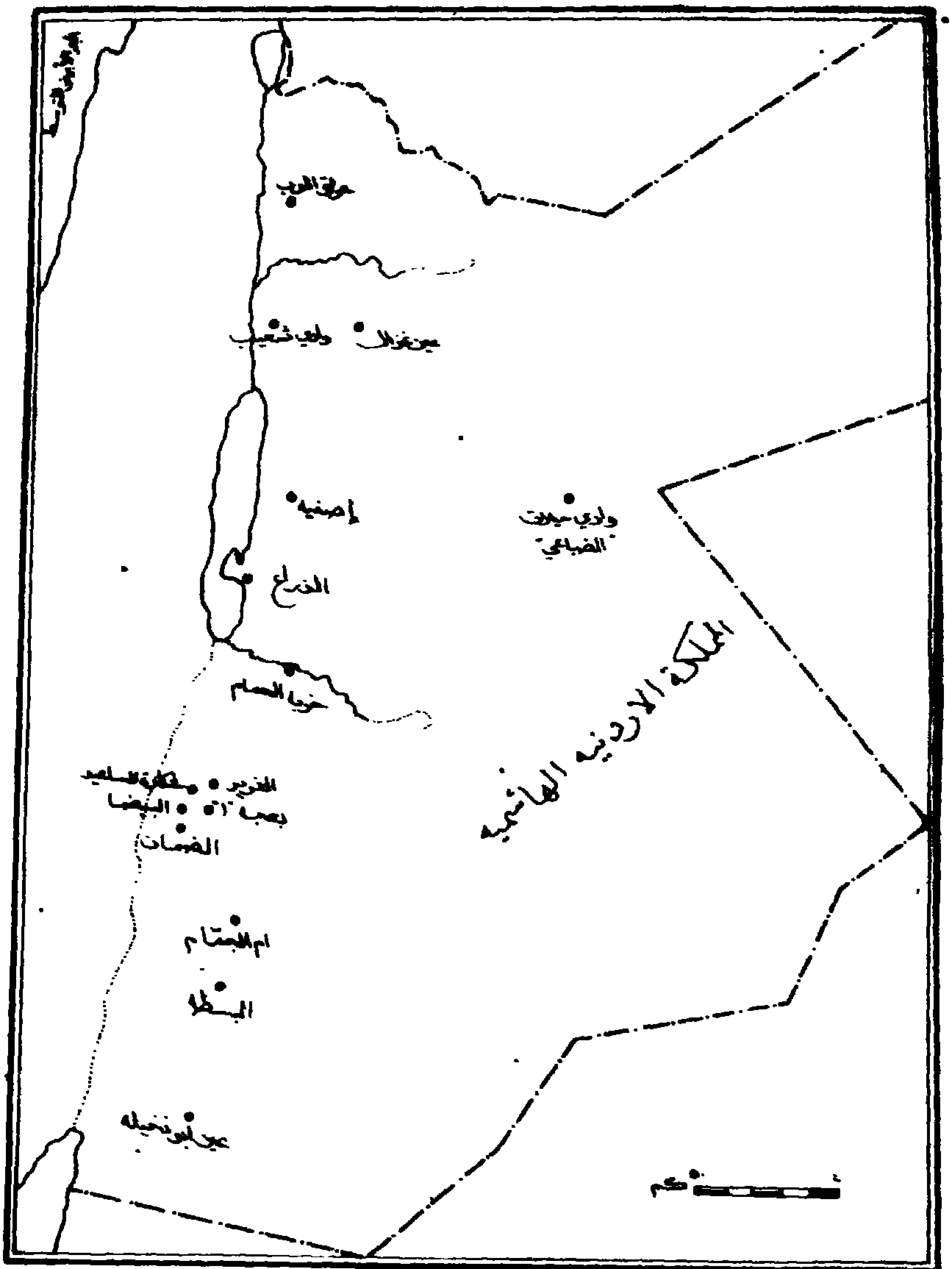

رسم:

التقويم السلوقي
وأهميته التاريخية والحضارية

الدكتور محمد الزين
قسم التاريخ
جامعة دمشق

التقويم السلوقي وأهميته التاريخية والحضارية

الدكتور محمد الزين

قسم التاريخ

جامعة دمشق

مخطط البحث:

- مقدمة
- تمهيد تاريخي
- أولاً: التقاويم القديمة: طبيعتها وأنواعها
    - آ- تعريف التقويم
    - ب- أنواع التقاويم وأشهرها
- ثانياً: نشأة التقويم السلوقي وانتشاره
    - آ- نشأته في بابل
    - ب- الصيغتان المقدونية والبابلية
    - ج- تأثيره وانتشاره:
        - ١- التقويم الأرساكي
        - ٢- التقويم الحميري
        - ٣- تقويم بصرى
- ثالثاً: توثيق التقويم السلوقي في المصادر القديمة
    - آ- في قائمة ملكية بابلية من العصر الهلنستي
    - ب- في التواريخ الكلاسيكية
    - ج- على النقوش
    - د- على النقود
- رابعاً: مصير التقويم السلوقي وتسمياته المختلفة
- خاتمة
- ملحق بالقائمة الملكية السلوقية وبأسماء الأشهر التدمرية والمقدونية
- الحواشي
- أهم المصادر والمراجع والمختصرات

مقدمة:

يعدّ التقويم السلوقي أشهر تقويم عرفته سورية في العصور الكلاسيكية ومن أهم التقاويم التي عرفها التاريخ القديم وأوسعها انتشاراً وأكثرها عراقة وأصالة. فقد ولد ونشأ في كنف التقاليد الفلكية البابلية العريقة وتميّز بالدقة والثبات والاستمرار مما جعله من أهم وسائل التأريخ في الوثائق الملكية والنقوش والعقود والنقود والآثار والأزياج الفلكية وسواها على مدى ألف عام ونيّف.

ومع ما لهذا التقويم من أهمية علمية وتاريخية كبيرة فإنه لا يزال مجهولاً إلى حد كبير حتى من قبل بعض المتخصصين ولم ينل ما يستحقه من اهتمام وتقدير في ميدان الدراسات التاريخية العربية(١).

ومن هنا جاءت ضرورة البحث فيه والتعريف به وتبيان مكانته ودوره التاريخي في التواصل الثقافي والحضاري. كما أن هناك بعض المسائل المرتبطة بهذا التقويم بحاجة إلى مزيد من الإيضاح والدراسة.

يتناول هذا البحث عدداً من القضايا الأساسية المتعلقة بخصوصية حساب الزمن عند القدماء وسنواتهم القمرية والشمسية وبنشأة التقويم وأنواعه المختلفة. كما يبحث في نشأة التقويم السلوقي والظروف التاريخية التي أدّت إليه وتوضيح مدلول الصيغتين المشهورتين اللتين يقابلنا بها في المصادر المختلفة وهما الصيغة البابلية والصيغة المقدونية (السورية).

كما يتضمن عرضاً لأبرز الشواهد والأدلة التي توثّق هذا التقويم في المصادر القديمة المسمارية والكلاسيكية وفي النقوش والنقود والآثار وتبيّن مدى انتشاره في المدن والبلدان والممالك التي عملت به، وتأثيره على نشأة تقاويم أخرى تشبهت به واتخذته نموذجاً ومثالاً مثل تقاويم المدن السورية والمملكة الفرثية والولايات الرومانية.

كذلك يعرض البحث لمصير التقويم السلوقي وأسباب اندثاره وزواله والتسميات المختلفة التي عرف بها في المصادر الكلاسيكية والعربية ويختم بالتأكيد على دور المشرق العربي الحضاري في صنع هذا الإنجاز التاريخي الكبير.

تمهيد تاريخي:

مما لا شكّ فيه أن غزو الإسكندر الكبير المقدوني الشرق وقضاءه على الإمبراطورية الفارسية الأخمينية التي كانت تهيمن على ربوعه شكّل فاصلاً رئيساً في التاريخ القديم وبداية عصر جديد حمل معه رياح التغيير في البنى السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والدينية إلى ذلك العالم المترامي الأطراف الممتد من ليبية غرباً حتى الهند شرقاً والذي كان موطن أهم حضارات العالم المعروف آنذاك. لقد نجح الإسكندر في تحطيم أكبر إمبراطورية عرفها تاريخ الشرق القديم في بحر سنوات قليلة (٣٣٤-٣٣٠ق. م)، ليقيم على أنقاضها إمبراطورية أعظم وأكثر اتساعاً وقوة أراد أن يجعل من بابل عاصمة لها ولكن القدر لم يمهله لتحقيق أحلامه ومشاريعه الطموحة فقد توفي عام ٣٢٣ق.م، في ريعان الشباب تاركاً إمبراطورية بدون وريث أو خلف قادر على حكمها ومتابعة مسيرة مؤسسها، الذي بدأ تأليهه في أثناء حياته بوصفه واحداً من أشهر أبطال العالم وصانعي التاريخ، وأصبح اسمه وعهده مبدأ حساب السنين وبداية تقويم عريق عرف في التراث العربي باسم تقويم الإسكندر أو تقويم ذي القرنين.

وقام النزاع بين كبار قادة الإسكندر، الذين خاضوا صراعاً دموياً فيما بينهم على الزعامة انتهى بتقاسمهم الإمبراطورية وظهور ممالك جديدة على أنقاضها. في خضم تلك الأحداث حصل سلوقس في مؤتمر ترايبرادويسوس، الذي عقد في سهل البقاع عام ٣٢١ق.م، على ولاية بابل المهمة، التي حكمها عدة سنوات قبل أن يضطره غريمه انتيجونوس على تركها عام ٣١٥ق.م، والالتجاء إلى صديقه الحاكم في مصر بطليموس حيث قام معه بالإعداد للمعركة الحاسمة التي جرت قرب غزة عام ٣١٢

ق.م، وانتهت بهزيمة دمتريوس بن انتيجونوس وانسحابه من سورية تاركا الطريـــق مفتوحا إلى بابل وتحرك سلوقس بسرعة خاطفة لاستثمار ذلك النصر بعد أن تلقى من بطليموس قوة عسكرية صغيرة قوامها (٨٠٠) جندي و(٢٠٠) فارس انطلـــق علـــى رأسها لاستعادة ولايته القديمة بابل.

ويصوّر المؤرخ ديودورس الصقلي (أو بالأحرى المصدر الذي اعتمد عليه) صعوبـــة ذلك المسعى وخطورته وكيف أن رفاق سلوقس حاولوا ثنيه عن خططه بسبب ضآلـــة قواته وضخامة قوى عدوه.

ولكن سلوقس كان واثقا من النصر ومعتمدا على مقدرته وقدره، فذكّر أصحابه بـــأن الإمبراطورية الفارسية العظيمة انهارت أمام عبقرية الإســـكندر. وتضيـــف روايـــة ديودوس أن ثقة سلوقس الكبيرة بنفسه جاءت من نبوءة للإله أبولون تلقاها في مركـــز وحيه وخاطبته بلقب ملك. وكذلك من حلم رآه عن الإسكندر(٢).

وهكذا انطلق سلوقس في صيف عام ٣١٢ق.م. إلى بابل وتحققت الآمال التي عقدهـــا على أهلها الذين حفظوا له ذكرى سنوات حكمه الطيبة وانضموا إلى راياته، كما انضم إليه بعض قادة خصمه بجنودهم وتم التغلب على أنصار انتيجونوس وأصبح ســـلوقس سيد الموقف والبلاد.

لقد كانت سنة ٣١٢ق.م سنة سلوقس العظيمة التي تمكّن فيها من اســـتخلاص مدينـــة بابل العريقة بحد السيف من أيدي خصمه العنيد أنتيجونوس، الذي فاق قواد الإســـكندر جميعا في القوة والنفوذ. وكانت عودته المظفرة إلى بابل هي الحدث الجلل الـــذي أراد سلوقس أن يؤرخ به بداية عهده وملكه ورأى فيه الدعامة الشعرية لسلطته: أنه "حـــق الفتح" الذي استند إليه الإسكندر وكل القادة الآخرين في دعم حقوقهم ومطالبـــهم فـــي التملك والسلطان.

وكان هذا بمثابة اللحظة التاريخية الحاسمة التي نظر إليها سلوقس وخلفاؤه بوصفها عيد ميلاد الإمبراطورية السلوقية والتقويم السلوقي(٣).

أولاً: التقاويم القديمة طبيعتها وأنواعها:

أ- تعريف التقويم:

إن أبسط تعريف للتقويم من الوجهة التاريخية والفلكية هو أنه نظام يقوم على مبدأ حساب السنين بدءاً من تاريخ محدد متفق عليه مرتبط بحدث تاريخي معين سواء كان حقيقياً أو مفترضاً يستند إلى الظن والاعتقاد(٤).

ويتفق هذا التعريف إلى حد كبير مع ما جاء لدى البيروني الذي يعرف التقويم بقوله: "والتأريخ هي مدة معلومة تعدّ من لدن أول سنة ماضية كان فيها مبعث نبي بآيات وبرهان، أو قيام ملك مسلط عظيم الشأن، أو هلاك أمة بطوفان عام مخرّب أو زلزلة وخسف مبيد أو وباء مهلك أو قحط مستأصل، أو انتقال دولة أو تبدل ملة أو حادثة عظيمة من الآيات السماوية والعلامات المشهورة الأرضية التي لا تحدث إلا في دهور متطاولة وأزمنة متراخية تعرف بها الأوقات المحددة فلا غنى عنها في جميع الأحوال الدنياوية والدينية..."(٥).

من المعروف أن كل أحداث التاريخ ووقائعه تجري عبر الزمن، ولا بدّ لفهمها وإدراك أهميتها من معرفة موقعها في سياق هذا الزمن وبالتالي مدى بعدها أو قربها من عصرنا الحاضر. وهذا هو موضوع علم (حساب) الزمن أو التزمين (الكرونولوجيا Chronology)، الذي يهدف إلى معرفة ترتيب الأحداث التاريخية وتحديد تسلسلها الزمني ويساعدنا بالتالي على تحويل التواريخ والمعطيات الزمنية من العصور الماضية إلى ما يقابلها من تواريخ في التقاويم المستعملة في عالمنا المعاصر وعلى رأسها التقويم الميلادي والتقويم الهجري.

ومن أجل تحويل التواريخ القديمة إلى تواريخ ميلادية لا بد من فهم خصوصية حساب الزمن عند القدماء، أي فهم طبيعة التقاويم القديمة[٦]. والتقويم الميلادي المستعمل حالياً على نطاق عالمي ليس في الحقيقة سوى التقويم اليولياني (المعدل بالإصلاح الغريغوري عام ١٥٨٢م)، الذي أعلنه يوليوس قيصر في روما عام ٤٥ق.م، والمأخوذ عن التقويم المصري، وهو تقويم شمسي (أي أنه يستند إلى حركة الشمس الظاهرية في السماء). وقد كان التقويم المصري أهم التقاويم الشمسية في العصور القديمة. وكان معظم الشعوب القديمة الأخرى كانت تعتمد في حساب الزمن على الدورة القمرية وتستعمل بالتالي تقاويم قمرية كان أهمها على الإطلاق التقويم البابلي وكذلك التقويم الإغريقي–المقدوني.

ومن المعروف فلكياً أن الدورة القمرية (Lunation) تستغرق زمناً قدره (٢٩) يوماً و(١٢) ساعة و(٤٤) دقيقة. وبما أن ظهور القمر يكاد يكون متساوياً بالنسبة لبلدان البحر المتوسط، فإن الدورة القمرية لجميع بلدانه متساوية (فهو يظهر في رومة بعد ساعتين من ظهوره في بابل). وبالتالي فإن شهورها القمرية تجري متزامنة مع بعضها ولا تختلف إلا بتسمياتها. وهكذا فإن شهر ديوس (Dios) المقدوني على سبيل المثال يتزامن ويتفق مع شهر تشريتو البابلي.

ومنذ معرفة طول السنة الشمسية بدقة في بابل أولاً (في القرن الثامن قبل الميلاد على أقل تقدير)، ثم لدى الإغريق (نحو منتصف القرن السادس) بدأت المحاولات للتوفيق بين السنوات الشمسية والقمرية وإيجاد علاقة ثابتة بينها، وكان لا بد من إيجاد تناسب دائم بين أيام الشهر القمري (٢٩,٥) وأيام السنة الشمسية (٣٦٥,٢٥) من أجل تقنين إضافة الأيام الكبيسة. وقد تبين نتيجة الأرصاد الفلكية أن مدة ٨ سنوات شمسية تعادل (تقريباً) ٩٩ شهراً قمرياً وبالتالي يكفي إضافة شهر قمري من ثلاثين يوماً ٣ مرات في كل ٨ سنوات للحصول على التوافق المطلوب. وهكذا تم وضع الدورة الثمانية (Oktaëteris)، التي تتألف من ٥ سنوات عادية يضم كل منها ١٢ شهراً، ومن ٣

سنوات كبيسة يضم كل منها ١٣ شهراً. وقد استعملت هذه الدورة للمرة الأولى في بابل في أواخر القرن السادس قبل الميلاد.

ولكن منذ عام ٣٨٣ ق.م، استعيض عنها بالدورة التسع عشرية (Enneakai-dekaeteris) التي تتألف من ٢٣٥ شهراً قمرياً وتكون سنواتها الكبيسة في الأعوام (٣/٦/٨/١١/١٤/١٧/١٩). وهذه الدورة في غاية الدقة إذ لا يبلغ الفارق بين سنتها والسنة الفلكية الحقيقية سوى أقل من ٧ دقائق. وقد استخدم السلوقيون هذه الدورة منذ بداية تقويمهم(٧).

ب- أنواع التقاويم القديمة وأشهرها:

لم تعرف العصور القديمة التقويم بالمعنى الدقيق للكلمة إلا في وقت متأخر من تاريخها، واستخدمته على نطاق ضيق محدود. وكان كثير من التقاويم المعمول بها ذات طابع عرضي مؤقت لم يكتب له الدوام والاستمرار، كما أن بعضها يدين بوجوده إلى جهود العلماء والباحثين ولم تخرج إلى الاستعمال العام. ويعود السبب في تأخر ظهور التقاويم إلى أن الأوضاع السياسية والاقتصادية والفكرية في العصور القديمة كانت بسيطة ومحدودة وكانت تكتفي -ولزمن طويل- باستخدام عام واحد معروف أو مجموعة من الأعوام لتحديد زمن الواقعة التاريخية. ولكن مع تنامي التطور الحضاري وازدياد الاتصالات بين الشعوب والدول والمدن المختلفة وسعيها إلى استجلاء ماضيها بدقة، ومع تعاظم التدوين التاريخي، نشأت الحاجة إلى البحث عن طريقة للتأريخ يمكن استعمالها بصورة عامة ومعترف بها(٨). ويذكر عالم الفلك الإسكندراني اراتوستنيس القوريني (١٨٤-٢٠٢ق.م) Erathosthenes الملقب بأبي الكرونولوجيا أن الإغريق كانوا سيستعملون في تواريخهم ١١ تقويماً أولها حرب طروادة وآخرها موت الإسكندر ولكن أشهرها كان بلا شك التقويم الأولمبي.

كما أن البيروني تحدّث في كتابه الآثار الباقية عن ١٥ تقويماً أولها مبدأ البشر وآخرها تأريخ الخليفة العباسي المعتضد بالله ومن أهمها تأريخ الإسكندر وتأريخ هجرة النبي. وهو يقرر في سياق تعريفه التقويم أن "لكل واحدة من الأمم المتفرقة في الأقاليم تأريخ على حدة تعدها من أزمنة ملوكهم أو أنبيائهم أو دولهم... تستخرج بها ما يحتاج إليه في المعاملات ومعرفة الأوقات وتتفرد به دون غيره"(٩).

ومن أهم أنواع التقاويم وأقدمها التقاويم السياسية المرتبطة بحدث تاريخي معيّن ويتمثل أقدم أشكالها في تعداد سنوات الملوك فيقال في السنة كذا من حكم الملك كذا حدث كذا وكذا... نجد هذا في مصر القديمة مثل ما نجده في بلاد الرافدين والشام. كما أن بعض البلدان كانت تسمي السنة بأسماء حكامها الكبار فالآشوريون كانوا يؤرخون بموجب حكامهم السنويين الذي عرفوا باسم ليمو Limmu والرومان كانوا يؤرخون السنة بأسماء قناصلهم والأثينيون كانوا يؤرخون بأسماء أراخنتهم... ولكن كل هذه الطرائق لم تكن في الحقيقة تفي بالغرض وتحتاج إلى وضع قوائم متسلسلة بأسماء أولئك الملوك أو الحكام لتحديد التواريخ السابق ومنها واللاحق. ومن المعروف أن تلك القوائم لم تصلنا كاملة أو لكل العصور. وهكذا كان هناك حاجة ملحة لإيجاد تقويم بالمعنى الدقيق للكلمة يقوم على اختيار سنة بذاتها وجعلها تاريخاً رئيساً وأساساً ومن ثم ترقيم السنوات التي تتلوها.

وأول هذه التقاويم وأقدمها كان التقويم السلوقي الذي نشأ في العصر الهلنستي ثم أعقبه مجموعة كبيرة من التقاويم السياسية المتأثرة به أو التي نشأت إلى جانبه. وقد انطلقت هذه التقاويم من حادثة سياسية مهمة، وغالباً ما كان بداية حكم سلالة حاكمة (تقاويم سلالية)، أو التحرر من سيطرة دولة كبرى (تقاويم الحرية)، أو وضع نظام إداري وسياسي لمنطقة ما. وهو ما يعرف بـ (تقاويم الولايات) ومنها على سبيل المثال تقويم الولاية العربية التي أنشأها الرومان بعد القضاء على مملكة الأنباط وعرف باسم

"سنة الولاية". Ězn zῆs έπαχεíαs. ونادراً ما يذكر المؤرخون هذه التقاويم ولذلك فإن مصادرنا الأساسية عنها تبقى النقود والنقوش(١٠).

وقد كان لهذه التقاويم السياسية مصائرها التي ارتبطت بمصير السلالة الحاكمة وأدى انهيار الأنظمة السياسية في العالم القديم إلى انهيار التقاويم السياسية، ولكن التقويم السلوقي شكل استثناء فريداً من نوعه، فهو ليس فقط أطول هذه التقاويم عمراً وإنما بقي حياً بعد سقوط المملكة السلوقية زمناً مديداً وبقي استعماله على الصعيد الكنسي لدى المسيحيين السوريين حتى مطالع العصور الحديثة.

ويندرج في هذه المجموعة أيضاً التقويم اليولياني المنسوب إلى يوليوس قيصر، والذي انبثق عنه التقويم الميلادي الحالي، وكذلك تقويم نبوخذ نصر البابلي وتقويم الملك يزدجرد الفارسي (٦٣٢م).

وهناك الكثير من الأمثلة على هذا النوع من التقاويم حتى في التاريخ الحديث ولكن لم يكتب لها البقاء طويلاً، مثل تقويم الثورة الفرنسية الذي بدأ مع إعلان الجمهورية، والتقويم الفاشي في إيطالية عند استلام الفاشيين السلطة.

أما الفئة الثانية فهي التقاويم الدينية وهي كثيرة أيضاً ولكن أشهرها التقويم الميلادي الذي يتخذ من عام ولادة السيد المسيح مبدأ له.

وهناك التقويم العبري الذي ينطلق من حسابات لاهوتية في تحديد بداية مفترضة لخلق الكون. كما ينتمي إلى هذه الفئة التقويم الهجري الإسلامي الذي يعتمد على حادثة معروفة ومؤكدة تاريخياً بمنتهى الدقة، على غير ما هو الحال بالنسبة للتقويمين الآخرين.

وتشكّل التقاويم الوضعية فئة ثالثة وهي تدين بنشأتها إلى جهود العلماء والمؤرخين، ومن أشهرها التقويم الأولمبي (٧٧٦ق.م)، والتقويم الروماني الذي وضعه الباحث

الكبير فارو Varro في القرن الأول قبل الميلاد والذي يبدأ بتأسيس مدينة روما عـــام ٧٥٣ ق.م، (A.U.C: Al Urbe Condita).

وفيما يلي بعض أهم التقاويم القديمة والمشهورة تاريخياً وفلكياً.

التقويم الأولمبي:

أدى تنامي الحركة الفكرية والعلمية في العصر الهلنستي وتعاظم الاهتمـــام بـــالتدوين التاريخي إلى البحث عن طريقة عملية سهلة ومعروفة للتـــأريخ. وبمـــا أن الألعـــاب الأولمبية كانت تحظى بشعبية كبيرة واعتراف واسع في كل أرجاء العالم الإغريقي فقد كانت مؤهلة لتصبح خير وسيلة لحساب الزمن خاصة وأن بدايتها أصبحت ثابتة مـــن أن حدّدها أرسطو في عام ٧٧٦ق.م. ويعود الفضل للعلمـــاء الاســـكندرانيين وعلـــى رأسهم اراتوستنيس في تحويل دورات الألعاب الأولمبية إلى تقويـــم أولمبـــي وذلـــك بترقيمها بصورة متسلسلة وترقيم السنوات الأربع في كـــل دورة[١١]. وكـــانت بدايـــة الألعاب تتزامن مع بداية فصل الصيف. وأول مؤرخ استخدم التاريخ الأولمبـــي هـــو تيمايوس التاورومينى (٣٥٦-٢٦٠ق.م Timaios)، الذي ندين له بعدد من التواريـــخ المتزامنة (Synchronization) للتاريخين الإغريقي والروماني. كما نجده أيضـــاً لـــدى المؤرخين بوليبيوس وديودورس الصقلي ويوسيفوس. لكن أعظم استخدام له جاء فيمـــا بعد على يد اوسيبيوس القيساري، الذي اعتمد عليه في تأريخ الأحداث والوقائع التـــي دونها في تاريخ السنين (Chronikom) بدءاً من الدورة الأولمبية الأولى حتى الـــدورة ٢٤٦ (الأعوام ٧٧٦ق.م - ٢٢١م).

وتتجلى أهمية التقويم الأولمبي ودوره في الكرونولوجيا التاريخيـــة القديمـــة فـــي أن المؤرخين البيزنطيين استمروا في استخدامه في مؤلفاتهم حتى بعـــد إلغـــاء الألعـــاب الأولمبية عام ٣٩٣م، ولكن بدايته عندهم تطابقت مع بداية السنة البيزنطية فـــي الأول من شهر أيلول.

لقد نشأ التقويم الأولمبي لأغراض تاريخية وأدبية ولذلك لم يستعمل في تأريخ الوثائق والنقوش إلا نادراً.

تقويم نبوخذ نصر (Nabonassaros):

وليس هو الذي خرب بيت المقدس –كما يقول البيروني– فإن بينهما زهاء مئة وثلاث وأربعين سنة[١٢]. وهو أول تقويم سياسي نعرفه بدقة تامة والذي يبدأ من ظهر يوم ٢٦ شباط عام ٧٤٧ق.م. وبدايته مؤكدة تماماً عن طريق حسابات السنوات المختلفة التي وصلتنا عن النصوص المسمارية الفلكية مثلما أيضاً في استخدام بطليموس الفلكي المشهور لها في كتابه المجسطي. وكان هذا التأريخ يستخدم من قبل علماء الفلك البابليين الذين وضعوه ثم انتقل بعد ذلك إلى الاسكندرية وعلمائها ومن أشهرهم بطليموس (١٠٠-١٧٨م)، الذي استخدمه في قائمته الملكية المشهورة، التي تعرف باسم قانون بطليموس (Ptolemy's Kanon) والتي تغطي فترة زمنية تزيد على ألف سنة بدءا من ملوك بابل، ثم الفرس ثم الإسكندر وبطليموس وملوك البطالمة وأخيراً أغسطس والأباطرة الرومان حتى القرن الثاني الميلادي. وتاريخ هذا الملك مستعمل على سني القبط، أي أنه يعتمد على سنة شمسية مؤلفة من ٣٦٥ يوماً. وعليه العمل في استخراج مواضع الكواكب السيارة من المجسطي. وقد ذكره المسعودي في كتابه "التنبيه والإشراف" بقوله: "وكانت القبط بأرض مصر تؤرخ بأول السنة التي مُلّك فيها بخت نصر وأولها يوم الأربعاء، وقد ذكر ذلك بطليموس في كتاب المجسطي"[١٣]، وذلك من دون أن يحدد تاريخ اليوم والسنة التي مُلّك فيها بخت نصر.

وكملحق بهذا التقويم يقابلنا في المجسطي تقويم يدعى: من موت الإسكندر:

Aera άπό zής Άλεξάνδρου zελενής

أو تقويم أخيه فيليب:

Aera Φιλίππου τοϋμετ Άλεξάνδρου

والذي يبدأ في الأول من شهر تحوت (المصري) عام ٤٢٥ من تقويم نبوخذ نصـــــر، الذي يقابل يوم ١٢ تشرين الثاني عام ٣٢٤ق.م[٤٠].

ثانياً: نشأة التقويم السلوقي وانتشاره:

١- نشأته في بابل:

نشأ التقويم المعروف بالسلوقي في الأصل عندما بدأ مؤسس الإمبراطورية يعدّ سنوات حكمه التي بدأت مع استعادته ولاية بابل في صيف عـــــام ٣١٢ق.م، واســـتمر فـــي احتسابها بعد أن أصبح ملكا بصورة رسمية عام ٣٠٥/٣٠٤ق.م، حتى مقتلــــه عـــام ٢٨١ق.م، بعد أن حكم الإمبراطورية ٣١سنة. ثم جاءت الخطوة التاليـــة والحاســـمة عندما تابع ابنه وخليفته أنطيوخوس الأول، الذي شاركه في الحكم منذ عـلم ٢٩٢ق.م، حساب سنوات حكمه بوصفها استمرارا لسنوات حكم والده، أي منذ عام ٣٢ حســـب التقويم السلوقي. وتابع الملوك السلوقيون من بعده السير وفق هذا التقليد. وهكذا نشـــأ من سنوات حكم سلوقس أو تقويم سلوقس التقويم الذي حمل اسم الســـلالة، وأصبـــح يعرف باسم التقويم السلوقي فكان بذلك أول وأشهر تقويم سلالي ملكي عرفه التـــاريخ القديم[٤٥].

لقد كانت عودة سلوقس المظفرة إلى بابل هي الحدث الجلل الذي اتخذه السلوقيون مبدأ لتأريخ عهود ملكهم. وبالتالي فإن التقويم السلوقي إنما ولد ونشأ فـــي كنـــف التقـــاليد الفلكية البابلية العريقة التي طبعته بطابعها ومنحته الثبـــات والاســـتمرار والانتشـــار. ويتجلى ذلك في جملة من الحقائق يتمثل أولاها في أن سلوقس اتخذ مـــن يـــوم رأس السنة البابلية في الأول من نيسان (مع بداية الاعتدال الربيعي) بداية السنة الســـلوقية الجديدة بصيغتها البابلية.

كما أنه يعدّ سنوات ولايته وفقاً للتقاليد البابلية التي لا تحتسب سوى سنوات الحكم الكاملة، وبالتالي فإن عهد سلوقس لم يبدأ إلا مع مستهل السنة البابلية الجديدة، في الأول من نيسان عام ٣١١ق.م يضاف إلى ذلك أنه اعتمد طريقة النسيء البابلية للتوفيق بين السنة القمرية المقدونية والسنة الشمسية وذلك من خلال استخدام الدورة التسع عشرية الفلكية البابلية. وهكذا فإن السنة السلوقية الجديدة كانت كأمها البابلية في غاية الدقة والانتظام وتتفق مع السنة الطبيعية الشمسية.

وأخيراً فإن سلوقس اعتمد في تقويمه الشهور البابلية وأطلق عليها أسماء الأشهر المقدونية كما تذكر الروايات. وبذلك يكون سلوقس وخلفاؤه قد استعاضوا عن سنتهم المقدونية التي لم يكن لها بداية ثابتة وإنما كانت تتبدل مع تبدل الحاكم أو الملك، الذي كان يوم جلوسه على العرش يشكل بداية السنة المقدونية، بالسنة البابلية ذات التقاليد الفلكية الراسخة. ولكن متى بدأ العمل بهذا التقويم الجديد؟

قبل أن يبدأ سلوقس بتأريخ عهده، كان البابليون -كما تثبت القائمة الملكية المسمارية- يؤرخون بعهد الإسكندر الأكبر أولاً ثم باسم أخيه فيليب (أريدايوس)، الذي قتل عام ٣١٧ق.م (وخلفه الإسكندر الأصغر)، وإن استمر التأريخ باسمه حتى شهر آب عام ٣١٦ ق.م، وعندما استولى أنتيجونوس على بابل من سلوقس عام ٣١٥ق.م لم يعترف بالإسكندر الأصغر العديم الشأن وبدأ يؤرخ باسمه: "القائد انتيجونوس". ولكن مع عودة سلوقس المظفرة إلى بابل عام ٣١٢ ق.م عاد التأريخ فيها (أو بالأحرى بدأ بصورة فعلية) باسم الملك اسكندر بن الاسكندر الأكبر الذي قتل عام ٣١٠/ ٣٠٩ ق.م. ولكن نعثر على نصوص مسمارية تحمل تاريخ سنته العاشرة (٣٠٨/٣٠٧ق.م)، وسنته الحادية عشرة (٣٠٧/٣٠٦ق.م)، أي أنها مؤرخة بعد موته.

لقد نجح سلوقس في صيف عام ٣١٢ ق.م -كما سبق وذكر- في استعادة ولايته السابقة بابل وتثبيت حقه الشرعي في حكمه وكان هذا الحدث العظيم الذي قاد إلى

تأسيس إمبراطوريته العظيمة هو منطلق تقويمه وبدايته. ولكن لا يعرف في الحقيقة متى قرّر سلوقس على وجه التحديد البدء بتأريخ سنوات حكمه، إذ لا يوجد روايات تاريخية موثوقة بهذا الخصوص، ولذلك تعدّدت الاجتهادات حول هذه المسألة بين المؤرخين. فبينما يرى بيلوخ أن سلوقس بدأ بالتأريخ بعد صلح عام ٣١١ق.م، عندما أصبح سيد بابل بصورة نهائية، وعلى الأرجح بعد موت الاسكندر الأصغر. يرى بيكرمان -اعتماداً على رواية بلوتارخ (Plut., Demetr. 18)- أن إعلان التقويم وبدء العمل به يرتبط باتخاذ سلوقس لقب "ملك بابل" (šar Babili) عام ٣٠٧ أو ٣٠٦ ق.م وأنه أرخه بمفعول رجعي بدءاً من شهر نيسان سنة ٣١١ ق.م وساوى بين سنته الأولى والسنة السابعة لحكم الاسكندر الأصغر(١٦).

ولكن أقدم الوثائق المسمارية البابلية المؤرخة في عهد "سلوقس الملك" تعود إلى عام ٣٠٥/٣٠٤ ق.م، وهو العام الذي أعلن فيه بطليموس أيضاً نفسه ملكاً على مصر، وكان قد سبقه إلى إعلان ملكيته كل من أنتيجونوس وابنه دمتريوس الحاكمين في آسية الصغرى وبلاد اليونان وسورية.

كما جاءت القائمة الملكية البابلية لتدحض رأي بيكرمان، فهي تذكر بصورة لا لبس فيها أن سلوقس اتخذ لقب ملك في السنة السابعة من التقويم السلوقي الذي بدأ لولايته على بابل(١٧).

وهكذا أصبح من المؤكد على ضوء الوثائق المعروفة حتى اليوم أن سلوقس بدأ التأريخ باسمه منذ أن أصبح ملكاً عام ٣٠٥/٣٠٤ ق.م على أبعد تقدير محتسباً -بمفعول رجعي- سنوات حكمه الستة السابقة لتقلده التاج عندما كان لا يزال والياً(١٨)، ولكن من المحتمل جداً أن قرّر العمل بتقويمه منذ أن استتبت له الأمور في بابل في صيف عام ٣١٢ ق.م متخذاً من أول رأس سنة مقدونية (تشرين ٣١٢ ق.م) ومن أول سنة بابلية (نيسان ٣١١ ق.م) بداية لتقويمه.

لقد استخدم السلوقيون الأشهر المقدونية في وثائقهم ونقوشهم وتواريخهم المختلفة، وبما أنها كانت أشهرا قمرية فإن أي نظام يعتمد الأشهر القمرية كان يمكن مطابقته مع التقويم الجديد. وهكذا أمر سلوقس "بتسمية الشهور السورية حسب الطريقة المقدونية"، كما يذكر يوحنا ملالاس الأنطاكي في تاريخه (/alalas 257c)، والمقصود بالشهور السورية إنما هو بالطبع الشهور البابلية السائدة في المشرق العربي منذ زمن طويل.

لم يفرض السلوقيون التقويم المقدوني الرسمي على المدن التي أسسوها في مملكتهم وانما تركوا لهذه المدن حرية اختيار أسماء الشهور وتسلسلها وطريقة الكبس والنسيء[١٩]. وتمثل تدمر نمطاً فريداً في تعاملها مع التقويم السلوقي فهي تستخدم في وثائقها المدونة بالإغريقية الأشهر المقدونية، أما تلك المدونة بالآرامية التدمرية فتظهر فيها الشهور البابلية السورية، وفي كلتا الحالتين فإن السنة التدمرية كانت تبدأ في خريف عام ٣١٢ ق.م.

ب- الصيغتان المقدونية والبابلية للتقويم السلوقي:

لم يخرج سلوقس عن التقاليد التأريخية (الكرونولوجية) السائدة في عصره، بل يبدو أنه كان حريصاً عليها وملتزماً بها وهكذا فقد راعى في تنظيم تقويمه التقاليد المقدونية التي سار عليها الاسكندر الأكبر، مثلما احترم أيضاً التقاليد الفلكية البابلية وعمل بها وكانت النتيجة أن توافقت سنوات حكمه مع سنوات التقويمين المقدوني والبابلي. وبسبب الاختلاف القائم بين السنة المقدونية التي تبدأ في فصل الخريف والسنة البابلية التي تبدأ في فصل الربيع، فقد نشأت صيغتان للتقويم السلوقي عرفت الأولى باسم الصيغة المقدونية والثانية بالصيغة البابلية[٢٠]. ولما كانت السنة المقدونية تبدأ في شهر ديوس (Dios) الذي يقابل شهر تشريتو البابلي (تشرين الأول) وكان الاسكندر قد أرّخ سنوات حكمه بدءاً من شهر ديوس عام ٣٣٦ ق.م، أي بعد شهرين من توليه العرش، فإن سلوقس، الذي استتبت له الأمور في بابل في شهر آب عام ٣١٢ ق.م، اختار

السير على نهج الاسكندر وقرّر البدء بتأريخ عهده مع بداية السنة المقدونية في شهر نيوس عام ٣١٢ ق.م[٢١]. وبالتالي فإن سنة سلوقس الأولى امتدّت من تشرين الأول عام ٣١٢ ق.م حتى نهاية شهر أيلول عام ٣١١ ق.م. وهكذا نشأت الصيغة المقدونية للتقويم السلوقي، التي انتشرت في غرب الإمبراطورية، أما السنة البابلية فكانت تبدأ منذ عهد بعيد في شهر نيسان وكانت التقاليد الملكية البابلية لا تبدأ بتأريخ عهد أي حاكم جديد إلا مع رأس السنة الجديدة، التي تلي وصوله إلى العرش[٢٢]. وهكذا فإن سنة سلوقس الأولى لم تبدأ في بابل إلا في نيسان عام ٣١١ ق.م، أي بعد ستة أشهر من بدايتها المقدونية ونشأت بالتالي الصيغة البابلية للتقويم السلوقي الذي أصبح له بدايتان مقدونية في شهر تشرين عام ٣١٢ ق.م، وبابلية في شهر نيسان عام ٣١١ ق.م. ولكن هاتين السنتين تلتقيان بتاريخ واحد في الأشهر الستة الواقعة بين نيسان وتشرين.

وفي كل الأحوال فإن تحويل السنة السلوقية سواء أكانت مقدونية أو بابلية الصيغة إلى ما يقابلها في السنة الميلادية يقود إلى وضع تواريخ مزدوجة وهكذا تقابل السنة السلوقية الأولى العام ٣١٢/٣١١ حسب الصيغة المقدونية والعام ٣١١/٣١٠ حسب الصيغة البابلية.

جـ- تأثيره وانتشاره:

لقي التقويم السلوقي نجاحاً كبيراً وعمّ استعماله مناطق واسعة من آسية، ليس فقط في البلدان الخاضعة للسلوقيين، وإنما كذلك في الدول والأقاليم التي انفصلت عنهم بعد أن ضعف شأنهم[٢٤]. وهكذا نجده في بلاط الملوك الفرثيين وفي المدن الإغريقية التابعة لهم إلى جانب التقويم الأرشاقي. مثلما نجده أيضاً على نقود الممالك الصغيرة الدائرة في فلكهم مثل خراكس على الخليج العربي وعيلام شرقي شط العرب وأديا بينه (=آشور) وأوسروينة في شمال بلاد الرافدين. كما قلدته أو اقتبسته بعض الممالك

الهلنستية التي قامت في آسية الصغرى مثل: بيثونية وبونتوس على البحر الأسود وكبادوكية وأرمينية. واستعمله ملوك باكترية المقدونيون، الذين نقلوا إلى الهند فكرة التقويم، وقاد هذا إلى ولادة تقاويم أخرى في الممالك المقدونية -الهندية (مثل الساكا والكوشان)[٢٥].

لقد أدى انهيار الأنظمة السياسية والأسر الحاكمة في العالم القديم في العادة إلى انهيار التقاويم السياسية ولا نعرف استمرار بعض تلك التقاويم إلا نادراً وعلى رأسها التقويم السلوقي، الذي تابع انتشاره وتأثيره حتى بعد سقوط الدولة التي نشأ وترعرع في ظلها وأصبح وسيلة التأريخ الأولى في المنطقة قروناً طوالاً. فمدينة تدمر، التي بدأ صعودها بعد انهيار المملكة السلوقية، لم تعرف على مدى تاريخها الطويل تقويماً آخر سواه. كما أنه كان أحد التقاويم الرئيسة التي استخدمها الأنباط، ثم غدا بعد سقوطهم النموذج الذي احتذته الولاية العربية عندما وضعت تقويمها الخاص بها (بصرى). كما أنه وجد في الفرثيين مقلدين له في أقصى شرق إيران فكان تقويمهم الأرشاقي الذي استمر ما يقرب من خمسة قرون، مثلما أيضاً في عرب الجنوب الحمريين الذين وضعوا تقويمهم على غراره فيما يبدو والذي بقي قائماً حتى ظهور الإسلام. وبذلك نكون قد أشرنا إلى أشهر التقاويم القديمة التي تأثرت بالتقويم السلوقي ونسجت على منواله وهي:

١- التقويم الأرشاقي:

لقد قلد الفرثيون السلوقيين في طريقة تأريخهم وتعداد سنوات الحكم الملكي، فكان تقويمهم الأرشاقي ليس سوى حساب حكم السلالة الفرثية. وينطلق هذا التقويم من عام ٢٤٧ ق.م وهو التاريخ الذي عدّه الفرثيون عام ولادة مملكتهم[٢٦]. ولكن التاريخ الرسمي لم يكن يمثل -كما يقول بيكرمان- بالضرورة التاريخ الحقيقي. فقد كان الملوك الهلنستيون كثيراً ما يؤرخون عام بداية ملكهم بتاريخ سابق. وقد اتبع الفرثيون

التقاليد ذاتها، إذ من المعروف أنهم بدأوا يوطدون سلطتهم على حساب السلوقيين بالتدريج في شرقي إيران منذ نحو عام ٢٣٨ ق.م. ولكن أقدم وثيقة وصلتنا مؤرخة بهذا التقويم تعود إلى عام ١٤١ ق.م، أي إلى عهد الملك الكبير ميثراداتيس الأول (١٧١ -١٣٨ ق.م)، الذي بسط سيطرته على إيران وسوزا وسلوقية دجلة وبابل وبلاد الرافدين بأجمعها.

كانت السنة الأرشاقية تبدأ في الأول من نيسان، أي أنها سارت وفق التقاليد الفلكية البابلية التي كانت سائدة في إيران منذ أيام الأخمينيين. وفي رسالة وجهها الملك الفرثي أرطبان الثالث (١٢-٣٨ ق.م)، إلى مدينة سلوقية على نهر أولايوس (=سوزا) بخصوص اختيار خازن المدينة نجد التاريخ الأرشاقي في رأس الرسالة المدونة بالإغريقية بعد اللقب الملكي: ملك الملوك أرساكيس (أرشاق)(٢٧):

Βαδιλευs βαδιλεῦυ Ἀρδάκηs

ηξδ Ἀυτναίου ιξ´

أي أنها أرسلت في ١٧ من شهر أودنايوس عام ٢٦٨ حسب التقويم الأرشاقي الذي يقابل عام ٢١م. وفي متن الرسالة تاريخان سلوقيان هما ٣٣٠ و ٣٣١ يعودان إلى مدينة سلوقية هذه، التي كانت تحسب سنواتها بدءاً من خريف عام ٣١٢ ق.م.

وهكذا فإن المدن الإغريقية التي خضعت للملكة الفرثية بقيت تستعمل في تأريخ وثائقها التقويم السلوقي الذي يشار إليه بعبارة: "حسب العد السابق" (ŴS δ έ πρότερον). أما التقويم الرسمي، أي الفرثي فقد جاء في آخر الرسالة (وفي مقدمتها) وكان يدعى: "كما يحسب الملك".

٢- التقويم الحميري:

هناك تقويم سياسي عرفه عرب الجنوب يشبه التقويم السلوقي في نشأته وهو ما يعرف باسم التقويم الحميري، الذي يبدو أن اليمنيين بدأوا باستخدامه منذ عام ١١٥ ق.م، وهو

تاريخ قيام دولة حمير (التي عرفت بتسم سبأ وذي ريدان). وقد عثر على كثير من نصوص المسند المؤرخة وفق هذا التقويم[٢٨]. وأقدم نص أُرِّخ بهذا التقويم (وهو النص الموسوم بـ: CI H 46) يحمل التاريخ ٣٨٥ الذي يقابل السنة ٢٧٠ ميلادية. أما آخر نص مؤرخ (الموسوم بـ: C I H 525) فيعود إلى سنة ٦٦٩ الحميرية والتي توافق سنة ٥٥٤ للميلاد. وقد استخدم أبرهة عامل الحبشة على اليمن هذا التقويم الحميري على اللوحة التي نصبها تخليداً لإصلاح سد مأرب المشهور، أي أنه استمر ما يقرب من سبعة قرون ويكون بذلك أطول تقويم عرفه العرب قبل الإسلام.

وبالنظر إلى التشابه الواضح بين نشأة هذا التقويم والتقويم السلوقي وطبيعتهما السياسية المشتركة، فإنه يمكن للمرء أن يتساءل عما إذا كان ثمة علامة أو صلة بين التقويميين، خاصة وأنه كان قد مضى على نشأة التقويم السلوقي ما يقرب من قرنين من الزمن وأصبح راسخ الجذور في المنطقة. كما أن جنوب سورية، الذي كان يشكّل النافذة المتوسطية لتجارة عرب الجنوب، كان قد خضع للسيطرة السلوقية منذ بداية القرن الثاني قبل الميلاد. ويضاف إلى ذلك أن الأنباط، الذين كانوا يسيطرون على نهاية طريق البخور القادم من اليمن وتربطهم بعرب الجنوب صلات وثيقة، كانوا يستخدمون التقويم السلوقي وهكذا فليس من المستبعد، بل ومن المرجح أن يكون الحميريون، الذين لا بد وأن تعرفوا على التقويم السلوقي من خلال صلاتهم التجارية مع بلاد الشام، قد أعجبوا بفكرة التقويم وأدركوا مزاياها ومنافعها العملية فاقتبسوها وعملوا بها واتخذوا من قيام دولتهم (سبأ وذي ريدان) مبدأ لتأريخهم وتقويمهم الذي كتب له البقاء والاستمرار ذلك العمر المديد.

٣- تقويم بصرى:

وهو التقويم المنسوب إلى هذه المدينة التي أصبحت عاصمة الولاية العربية، التي شكّلها الرومان بعد قضائهم على مملكة الأنباط عام ١٠٥ ميلادي. وقد عرف أيضاً

باسم تقويم الولاية العربية Provincia Arabia[٢٩]. وتراوح بداية هذا التقويم بين عامي ١٠٥م و ١٠٦م. ويذكر تاريخ باسكاله المرتب على السنين[٣٠] Chronicon Paschale بالنسبة لعام ١٠٥م، أن أهالي البتراء وبصرى يعدون سنواتهم بدءاً من ذلك (التاريخ):

Πετραῖοι κάι Βοδτρηνόι ἐντῦζεν τους
ἑαυτῶν Χρόνus ἀριζμοῦδι.

ونجد هذا التقويم على نقشين من حران (العواميد)، مرة باسم تقويم البصراويين:

ἔτous δqβ τῆs βοδρηνῶν

والأخرى باسم تقويم الولاية، أي العربية:

ἔτous δqβ τηs ἐπαχιου (ἐπαρχιαs)

ويحدد هذان النقشان المؤرخان بتقويم بصرى[٣١] البداية الدقيقة لهذا التقويم. فكلاهما يحملان التاريخ ٢٩١: الذي يقابل (بإضافة ١٠٥) عام ٣٩٧م. وبينما يماثل النقش الأول هذه السنة بالأندقطية العاشرة. فإن النقش الثاني يماثل السنة ذاتها بالأندقطية الحادية عشرة. وبما أن الأندقطية العاشرة امتدت من ١ أيلول ٣٩٦ حتى ٣١ آب ١٠ أيلول لسنة ٣٩٧. والأندقطية الحادية عشرة من أيلول ٣٩١ حتى ٣١ آب سنة ٣٩٨. فإن بداية عام ٢٩٢ لهذا التقويم تقع في التاريخين المذكورين أي بين نهاية أيلول ٣٩٦ ونهاية آب ٣٩٧ وبالتالي فإن بداية السنة الأولى تقع بين عامي ١٠٥ و ١٠٦م.

ولكن بما أن أهل بصرى كانوا يبدأون السنة في بداية الربيع فإن بداية تقويمهم كانت تقابل ٢٢ آذار سنة ١٠٦ ميلادية. وهو بالطبع بداية تقويم الولاية العربية. ويحصل المرء على التاريخ الدقيق بإضافة العدد ١٠٥ إلى سنة تقويم بصرى.

وبالنظر إلى مكانة بصرى وعلاقاتها التجارية الوثيقة بعرب الحجاز فقد انتشر استعمال هذا التقويم بين عرب العراق وبادية الشام، مثلما أيضاً عند الصفائيين والأنباط، حيث يقابلنا في كتابات طور سيناء النبطية.

وأشهر النصوص المؤرخة بهذا التقويم نقش النمارة العائد لشاهدة قبر الملك امرئ القيس والمؤرخ في يوم ٧ بكسلول لسنة ٢٢٣، الذي يقابل الشهر التاسع في تقويم بصرى، أي ٧ كانون الأول م عام ٣٢٨ الميلادي(٣٢).

وقد بقي العمل بتقويم بصرى حتى القرن السابع الميلادي وآخر وثيقة مهمة أُرِّخت به هي نقش من حران (باللغتين الإغريقية والعربية) يحمل التاريخ ٤٦٣ الذي يقابل سنة ٥٦٨ ميلادية.

ثالثاً: توثيق التقويم السلوقي في المصادر القديم:

آ- التقويم السلوقي في قائمة ملكية بابلية من العصر الهلنستي:

لقد تمّ الكشف عام ١٩٥٤ في خزائن المتحف البريطاني عن رقيم فخاري مكتوب بالخط المسماري واللغة الأكادية البابلية تبيّن بعد فك رموزه ودراسته أنه يتضمن قائمة بأسماء الملوك الذين تناوبوا على حكم بابل في العصر الهلنستي، بدءاً من الاسكندر المقدوني وانتهاء ببداية العهد الفرثي(٣٣). ويعود زمن تدوين هذه القائمة، التي تعرضت الأسطر الأولى والأخيرة منها إلى بعض التشويه والتلف، إلى ما بعد منتصف القرن الثاني قبل الميلاد كما هو واضح من مضمونها.

وهذه القائمة، التي تعدّ الأولى من نوعها، عظيمة الأهمية لأنها أول وثيقة تاريخية تستخدم التقويم السلوقي في تأريخ سنوات حكم الملوك السلوقيين بصورة مضطردة متتابعة، بدءاً من مؤسس السلالة سلوقس الأول الذي حكم المملكة حتى مقتله في السنة ٣١، وفق التقويم السلوقي (ت.س) ومروراً بعهود خلفائه: أنطيوخوس الأول. الذي

ملك من عام ٣٢ حتى ٥١ (ت.س)، وأنطيوخوس الثاني (٥٢-٦٦ ت.س)، وسلوقس الثاني (٦٧-٨٦ ت.س) وسلوقس الثالث (٨٧-٨٩ ت.س) ثم أنطيوخوس الثالث (٩٠-١٢٥ ت.س)، وسلوقس الرابع (١٢٦-١٣٧ ت.س) وأنطيوخوس الرابع (١٣٨-١٤٨ ت.س). وهكذا فإن هذه الوثيقة تعطينا بصورة كاملة سنوات حكم الملوك الثمانية الأوائل الذين حكموا المملكة على مدى قرن ونصف، كما تذكر بعض الأحداث المهمة في عهدهم. أما القسم الأخير منها فيتضمن أسماء أربعة ملوك آخرين (أنطيوخوس الخامس ودمتريوس الأول واسكندر بالاس ودمتريوس الثاني). ولكن سنوات حكمهم تالفة -بسبب التشويه الشديد- وينتهي أخيراً باسم الملك الفرثي أرساكيس. وبذلك تتوقف القائمة نحو عام ١٤٠ ق.م. وتكتسب الفقرة المتعلقة بسلوقس (الأسطر ٦-٨) أهمية خاصة ، لأنها تحسم مسألة تاريخية شائكة دار حولها نقاش طويل بين الباحثين وترجمتها:

"السنة ٧ (ت.س) هي سنته الأولى، سلوقس ملكاً

حكم ٢٥ سنة. السنة ٣١ (ت.س) الشهر السادس،

سلوقس الملك قتل في بلاد خاني".

ويدحض هذا النص بما لا يقبل الشك بعض التفسيرات الخاطئة التي جاءت في بعض الأبحاث التاريخية حول الوثيقة المسمارية التي تذكر أن: "سنة سلوقس الأولى هي السنة السابعة"[٣٤].

ويثبت أن هذه السنة الأولى ليست سوى سنة سلوقس الأولى بوصفه ملكاً، أما السنة السابعة فليست سوى السنة السابعة حسب التقويم السلوقي والتي تقابل عام ٣٠٥/٣٠٤ ق.م.

كما أن هذه الوثيقة حسمت بشكل نهائي مسألة التاريخ الدقيق لمقتل سلوقس والذي كان في الشهر التاسع لعام ٢٨١ ق.م، (الذي يقابل الشهر السادس في التقويم البابلي).

كذلك تؤكد هذه القائمة الملكية بصورة واضحة استمرار التقليد البابلي الذي كان يستمر في حساب السنة الملكية الأخيرة كاملة حتى بدء السنة البابلية التالية. وبالتالي فإن السنة الأولى لأي حاكم أو ملك لا تبدأ بمجرد استلامه الحكم بعد سلفه، وإنما مع بداية السنة الجديدة.

ويتضح هذا من حقيقة أن القائمة تذكر سنة بدء الملكية وسنة نهايتها، من دون أن يكون هناك أي تضارب أو تداخل في سنوات الحكم. وهكذا فإن هذه القائمة الملكية تشكّل إسهاماً عظيماً في سبيل الوصول إلى تأريخ مفصل ودقيق للإمبراطورية السلوقية التي حكمت المنطقة ما يقرب من قرنين ونصف من الزمن.

وتظهر هذه الوثيقة من ناحية أخرى أن مدوّنها البابلي قد استخدم بأمانة ودقة المصادر التاريخية الغنية التي كانت تحت تصرفه في بابل، والتي استمر علماؤها في استخدام اللغة الأكادية البابلية في سجلاتهم وجداولهم التاريخية ويومياتهم الفلكية. وفي هذا دليل واضح على رسوخ التقاليد البابلية واستمرارها حية في ظلّ السيادة السلوقية وكذلك صمود اللغة البابلية والكتابة المسمارية التقليدية أمام منافسة اللغة الإغريقية بوصفها لغة الحكّام والإدارة والثقافة والذي يتجلّى في الألواح المسمارية من العصر الهلنستي. ومنها لوح مسماري من عام ١٣٩ سلوقي (= ١٧٢ ق.م) يتضمن وثيقة منسوخة من عهد الملك سلوقس كالينكوس تتعلق بهدية رسمية لزوجته وابنيه ومؤرخة حسب التقويم السلوقي في ٨ آذار عام ٧٥، أي أنها تعود لعام ٢٣٦ ق.م[٣٥].

ب- التقويم السلوقي في التواريخ الكلاسيكية:

يعدّ سفرا المكابيين الأول والثاني من أكثر المؤلفات التاريخية من العصر الهلنستي استخداماً للتقويم السلوقي في تأريخ الأحداث الواردة فيهما[٣٦]. وقد بدأ العمل بهذا

التقويم في فلسطين وجنوب سورية بعد خضوعهما للحكم السلوقي منذ مطلع القرن الثاني قبل الميلاد. وقد استعمل السفران التقويم السلوقي بصيغتيه المقدونية والبابلية في مواضع كثيرة. ولكن يغلب على السفر الأول تأريخ السنين وفق الحساب الخريفي، أي بدءاً من شهر تشرين الأول عام ٣١٢ ق.م، ويبدو أنه اعتمد في ذلك على سجل سلوقي رسمي (كرونيك) حيث نجده على سبيل المثال يؤرخ وصول أنطيوخوس الرابع إلى العرش السلوقي كما يلي:

"أنطيوخوس أبيفانيس بن الملك أنطيوخوس، الذي كان رهينة في روما، أصبح ملكاً في السنة المائة والسابعة والثلاثين من ملكية الهيلنيين"[٣٧].

أما سفر المكابيين الثاني فيغلب عليه استخدام التقويم السلوقي بصيغته البابلية إذ يبدو أن اليهود اعتادوا منذ السبي البابلي حساب السنين مع بداية فصل الربيع، وهذا ما يؤكده فلافيوس يوسيفوس في "تاريخ اليهود القديم" (Ant. II, 248) من أن شهر نيسان كان يشكل بداية السنة:

Νιδάν .....τοῦ έτους έδτιν άρχή

ونتج عن ذلك أن السنة اليهودية كانت تسبق السنة الرسمية المقدونية أو تليها بمقدار نصف سنة.

وبعض هذه التواريخ تكتفي بذكر الأعوام السلوقية فقط، ولكن بعضها الآخر يضيف إليها اسم الشهر البابلي أو المقدوني، بل وحتى تاريخ اليوم أحياناً مثلما ورد في ختام رسالة الملك أنطيوخوس الخامس: "في السنة المائة والثامنة والأربعين في الخامس عشر من شهر أكسانتيكوس: (Mac. II. 11.33).

ومن المؤرخين الذين استخدموا التقويم السلوقي نيقولاس الدمشقي "Nikoloa of Damaclus (نحو ٦٤ ق.م- ١٥ م)، الذي لم يصلنا تاريخه الموسوعي الكبير المؤلف من ١٤٤ كتاباً ولكنه كان مصدراً رئيساً للمؤرخ فلافيوس يوسيفوس (٣٧-٩٥ م)،

خاصة في تاريخ اليهود القديم، الذي نجد في عدة مواضع منه تواريخ سلوقية مثـــل: (Ant. XII. 246).

"في السنة مائة وثلاث وأربعين بعد ملكية سلوقس"

μετά έβδομήκοντα καὶ ῾εκατόν ῾έτη τής
῾ΑБбuoiων (=Σΰρων) βαБΙλείας ώξ οὗ
χρόνου ΣέλεΚοs ό Νικάτωρ έπικλζείς
κατέБχε Συρίαν

كما أن المؤرخ الكنسي أوسيبيوس القيساري (Eusebios) استخدم التقويم السلوقي في تاريخ السنين (Chronikom 2 p.117) وحدّد بدايته في: السنة الأولــــى مـــن الـــدورة الأولمبية ١١٧ والتي تقابل العام ٣١٢ / ٣١١ ق.م.

جـــ - التقويم السلوقي على النقوش:

تعدّ النقوش من أهم المصادر التاريخية التي توثق التقويم السلوقي وتبيّن مدى انتشـاره في المكان والزمان. ويتضح هذا بجلاء من الجدول الذي أعدّه هنري ســـيريغ عـــن التواريخ الواردة في المجلدات الأربعة الأولى مـــن مجموعـــة النقـــوش الإغريقيـــة واللاتينية لسورية (IGLS)، التي تضم نحو ألفي نقش[٣٨]. وقد تبيّن أن ما يقرب مـــن ٢٥٠ نقشاً منها مؤرخة حسب التقويم السلوقي، أي ما يزيد على نصف عدد النقـــوش المؤرخة في المجلدات المذكورة والبالغة نحو ٤٥٠ نقشاً. وأول نقش يحمـــل تاريخـــا سلوقياً هو ذاك الذي وصلنا من مدينـــة إنطاكيـــة (IGLS. 1071) والمـــؤرخ بالســـنة السلوقية ١٠٠ التي تقابل السنة ٢١٢/٢١١ ق.م. أما آخر نقـــش مـــؤرخ فـــي هـــذه المجموعة فجاء من منطقة أفامية (IGLS. 1939) وهو مؤرخ بســـنة ٩١٦ الســـلوقية والعشرين من شهر أرتميزيوس = آب ٦٠٥ ميلاديـــة، أي أنـــه دوّن فـــي العصـــر البيزنطي.

ويعود أقدم نقش مؤرخ وصلنا من مدينة اللاذقية (IGLS, 1261) إلى عهد الملك أنطيوخوس الرابع والسنة ١٣٨ واليوم ٣٠ من شهر أودونايوس (الموافق لشهر كانون الثاني عام ١٧٤ ق.م)[٣٩]:

Ἔτους ηλρ́ μηνὸς Αυδυναίου λ́ .....

كما أن مدينة دمشق وكل المنطقة المحيطة بها كانت تؤرخ وثائقها وفق التقويم السلوقي. وقد أثبت هنري سيريغ بما لا يقبل الشك أن النقوش التي تشير إلى أعمال البناء والترميم في معبد يوبتير الدمشقي[٤٠]، والمؤرخة بالأعوام: (٣٢٧/٣٤٩/٤٠٢) ينبغي احتسابها بموجب التقويم السلوقي، وليس التقويم البومبياني كما اقترح بعض الباحثين وتبعاً لذلك فإن الأعمال المذكورة في هذه النقوش إنما تعود إلى الأعوام ١٦/١٥م و ٣٨/٣٧م و ٩١/٩٠م.

أي إلى عهود الأباطرة الرومان تيبريوس وكاليجولا ودوميتيان وتنسجم بالتالي تاريخياً مع أوابد معمارية كبرى تمت في سورية مثل تدشين معبد بل في تدمر في عهد تيبريوس (١٤-٣٧م) وتدشين معبد يوبيتر Iupiter في عهد نيرون (٥٤-٦٨م). وهكذا فإن معرفة التقويم المستخدم في تأريخ الأوابد الأثرية تمكننا من وضعها في إطارها التاريخي الصحيح وتشكّل عنصراً أساسياً من تاريخ سورية في أواخر العصر الهلنستي، الذي يعاني من ندرة المصادر التاريخية الموثوقة[٤١].

وقد وصلنا نقش من بلدة الرستن (أويتوسا الكلاسيكية Arethisa) يحمل تاريخاً مزدوجاً يعود أولهما إلى تقويم (معركة) أكتيوم: السنة ٣٦، أما الثاني فكان حسب التقويم السلوقي: السنة ٣١٧، وكلا التاريخين يوافقان العام ٦/٥ الميلادي[٤٢]. ومما يجدر الإشارة إليه بخصوص هذا النص أن السنوات السلوقية اقترنت بعبارة: "حسب العدد السابق" في إشارة إلى التقويم السلوقي:

Ἔτους ϛλ́, κατά δέ τέ τόν πρ́τερον

῀αριξμόν ιξί

زقد ورد هذا النص النادر للتقويم السلوقي في أحد المخربشات (Graffitti) المكتشـــفة في تنقيبات دورا أوروبوس، التي كانت تستخدم أيضاً هذا التقويم السلوقي(٤٣).

κατά τόν πρ́τερον ΄αιξμόν

كما تجدر الإشارة أيضاً إلى أحد النقوش المدونة علـــى واجهـــة قصـــر ابـــن وردان (IGLS, 1842) حيث نقرأ التاريخ التالي:

"في شهر نوفمبر، في الأندقطية الثالثة عشرة، من سنة ٨٧٦)"

Έν μη (νί) Νοεμβρ (ίω), ˜νδ(ικιώνος) ιъγ΄ τόυ ςο΄ έ˜τ΄(ου)ς

ويلاحظ هنا استخدام التقويم الروماني المتمثل بالأندقطية وبشهر نوفمـــبر بـــدلاً مـــن الشهر المقدوني كما جرت العادة إلى جانب السنوات السلوقية. علماً أن نقشـــاً آخـــر كتب قبل ثلاث سنوات (IGLS, 1843) يبدأ كالمعتـــاد بالتـــاريخ الســـلوقي وبالشـــهر المقدوني ثم بالأندقطية وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدّل على بـــدء انتشـــار التقويـــم الروماني بصورة تدريجية ولكنه لم يستطع زحزحة التقويـــم الســـلوقي مـــن مكانتـــه الراسخة بوصفه أقدم وسائل التأريخ وأكثرها ثباتاً واستمراراً.

أما **النقوش التدمرية** فإنها تشكّل نمطا فريدا في بابها فهي مدوّنة ليس فقط بالآراميـــة التدمرية، وإنما كذلك باللغة الإغريقية أو اللاتينية. وقد وصلنا نقوش مزدوجة اللغـــة، بل وأحيانا ثلاثية اللغة -وإن كانت نادرة جدا- وهي ذات أهمية خاصة بالنسبة للتقويم السلوقي لأن النصوص التدمرية أرّخت بالشهور الســـورية البابليـــة، بينمـــا أرّخـــت النصوص الإغريقية بالأشهر المقدونية المقابلة لها، ممـــا يســـمح بـــإجراء التوافـــق والمقارنة فيما بينها، خاصة وأن بعضها مؤرخ باليوم والشهر والسنة. وكثير من هـــذه النقوش مؤرخة ولا تستعمل سوى تواريخ سلوقية، لأنها لم تعـــرف ســـوى التقويـــم السلوقي. ومن أقدم ما وصلنا منها نقش مؤرخ بشهر كانون والسنة ٣٠٤، التي توافـــق

شهر تشرين الثاني عام ٩ ق.م[٤٤]. وآخرها يحمل التاريخ السلوقي ٦٣٩، المقابل لسنة ٣٢٨ ميلادية.

ويعدّ نقش التعرفة الجمركية أهم هذه النقوش وأشهرها على الإطلاق[٤٥].

وقد دوّن باللغتين التدمرية والإغريقية. ويبدأ النص الإغريقي كما يلي (السنوات ٤٤٨ شهر أكساندیكوس ١٨).

῎Ετους ημυ. μηνὸς Ξανδικοῦ ιη Δόγμβουλης

"قرار مجلس الشيوخ، اليوم الثامن عشر من شهر أكسانديكوس عام ٤٤٨ سلوقي"، الذي يقابل ١٨ نيسان عام ١٣٧م".

وهناك أيضاً النقش الذي أقامه القائدان الكبيران زبدا وزباي لسيدتهما سبتيميا بنت زباي (أي الملكة زنوبية) والمؤرخ بشهر آب سنة ٥٨٢ السلوقية الموافقة ٢٧١ ميلادية[٤٦]. وقد وجد على أحد الجدران العائدة لتحصينات ديوقليتيان نقش لشخص يدعى حيران دوّن بثلاث لغات هي اللاتينية والإغريقية والتدمرية.

وبينما جاء النص اللاتيني خالياً من أي تاريخ، نجد النصين الإغريقي والتدمري مؤرخين على النحو الآتي:

῎Ετους γξτ μηνος Ξανδικοῦ ....

وبالتدمريه b yrḥ nysn šnt 363

أي أنه يعود إلى شهر نيسان عام ٣٦٣ السلوقي= ٥٢م[٤١].

ويلاحظ أن التواريخ تأتي في مستهل النقوش المدونة بالإغريقية بينما كانت توضع في خاتمة النقوش المدونة بالتدمرية الآرامية عادة.

كما يلاحظ أيضاً أن السنوات السلوقية تكتب هكذا بدون أي تعريف أو إشارة تميزها، ما يدل على أن مدلولها كان معروفاً وبديهياً بالنسبة للتدمريين، الذين لم يستعملوا

تقويماً آخر في تاريخهم غير التقويم السلوقي، الذي يبدأ في تشرين عـــان ٣١٢ ق.م، والذي كان بمثابة تقويم دولي للشرق بأكمله وبالتالي فإنه كان يلبي متطلبات التجـــارة التدمرية الدولية التي امتدّ مجالها من إيران شرقا حتى البحر المتوسط غرباً. ويستفاد من أسماء الشهور السورية والمقدونية الواردة في النقوش التدمرية أن السنة التدمريـــة لم تكن تبدأ في شهر ديوس المقدوني (الذي يقابل شهر كانون في التقويم التدمــــري)، وإنما بشهر هوبربريتايوس المقدوني ، الذي يقابل شهر تشريتو التدمــــري أو شـــهور السنة السلوقية عند التدمريين. ويوضح الجدول الملحـــق أســـماء وتسلســـل الشـــهور التدمرية والمقدونية والغربية[٥٨].

وقد عثر في خرائب زبد الواقعة في جنوب شرقي حلب بين قنسرين ونـــهر الفـــرات على نقش مكتوب بثلاث لغات هي الإغريقية والسريانية والعربية ومؤرخ بالسنة ٨٢٣ "السلوقية، أي أنه يرجع إلى سنة ٥١١/٥١٢م، ويدل بالتالي على أن استعمال التقويـــم السلوقي كان لا يزال حيا في العصر البيزنطي[٥٩].

أما بالنسبة **للنقوش النبطية** فمعظمها غفل من التاريخ وقليل منـــها يحمـــل تواريـــخ محددة. وقد جرت العادة لدى الأنباط أن يؤرخوا وثائقهم ونقوشهم تبعا لسنوات حكـــم ملوكهم. ولكنهم أرّخوا أيضا بالتقويم السلوقي، كما أرّخوا بتقويم بومبيوس أو بتقويـــم بصرى وبتواريخ محلية معروفة لديهم.

ومن النقوش القليلة المؤرخة التي وصلتنا هناك نقش يحمل تاريخـــا مزدوجـــا: فـــهو مؤرخ في شهر أيار من السنة الرابعة والعشرين لحكم الملك ربّ أيل الثاني الملقـــب بـــ سوتير (المنقذ). وقد دوّن إلى جانب هذا "التأريخ النبطـــي" مـــا يقابلـــه بـــالتقويم المستعمل عند الرومان وهو سنة (٤٠٥). والمقصود بهذا التقويم الروماني إنما هو بلا شك التقويم السلوقي وبالتالي يعود تاريخ النقش إلى سنة ٩٤ ميلادية[٦٠].

كما عثر أيضاً على نقش آخر بالنسبة السلوقية (٣٠٧)، التي تقابل عام ٤/٥ ق.م، أي أنه دوِّن في أيام الملك الحارث الرابع وإن لم يرد اسمه في هذه الكتابة[٥١].

كما نجد التقويم السلوقي في **مملكة الحضر** العربية، التي قامت في موقع مهم للقوافل التجارية بين نهري دجلة والفرات إلى الجنوب الغربي من مدينة الموصل. ومن أقدم النصوص المؤرخة التي عثر عليها في مدينة الحضر (Hatra) نقش للملك سنطروق بن نصرو مري مؤرخ بسنة ٣٨٨ السلوقية، الموافقة لسنة ٧٧ ميلادية[٥٢].

لم يقتصر استعمال التقويم السلوقي على النقوش، التي ظهرت في سورية بوصفها مركز الإمبراطورية السلوقية، وإنما امتد أيضاً إلى أماكن بعيدة لا يتوقع ظهوره فيها. فقد عثرت البعثة الدانمركية التي نقبت في جزيرة فيلكا الكويتية (=ايكاروس الكلاسيكية Ikaros) في الستينيات من القرن العشرين على واحد من أهم النقوش الإغريقية التي اكتشفت في منطقة الخليج العربي[٥٣]. ويتضمن هذا النقش مرسوماً ملكياً أصدره سلوقس الثاني كالينيكوس (٢٤٦-٢٢٦ق.م) يقضي بتأسيس معبد للآلهة أرتميس (Artemis) على تلك الجزيرة وضرورة العناية به ورعايته وهو يحمل التاريخ السلوقي (٧٣)،وبالتالي فإن تأسيس المعبد جرى في عام ٢٣٩/٢٣٨ق.م.

كما وصلنا عن طريق النقوش عدد من المراسيم والرسائل الملكية التي تحمل تاريخ إصدارها بالسنة السلوقية والشهر واليوم ومنها تلك الرسالة التي وجهها الملك أنطيوخوس الثالث الكبير (٢٢٣-١٨٧ق.م) إلى مدينة اللاذقية الميدية (مدينة نهوند الإيرانية حالياً) تتعلق بعبادة الملكية لا وديكة (Laodike) والمؤرخة بالسنة السلوقية (١١٩)، والعاشر من شهر بانيموس، أي في حزيران عام ١٩٣ق.م[٥٤].

كذلك نجد استمرار العمل بالتقويم السلوقي في المدن الإغريقية التي خضعت للملكة الفرثية وبعد زمن طويل من زوال السلطة السلوقية كما يظهر في متن تلك الرسالة التي أرسلها ملك الملوك أرطبان الثالث إلى مدينة سلوقية على أولايوس (=سوزا) التي أرّخت قرارها وفق التقويم السلوقي، الذي أشير إليه بعبارة(٥٥):

"حسب العد السابق" : κατ ά τοῦς πρτέρους ἀριζμοῦς

د – التقويم السلوقي على النقود:

كانت النقود السلوقية من أهم المجالات التي برز فيها استخدام التقويم السلوقي وهي في الحقيقة من أهم المصادر التاريخية التي تعرف به وتوثقه، مثلما تعرف بمجموعة كبيرة من التقاويم التي استخدمتها كثير من المدن السورية في العصرين الهلنستي والروماني للتعبير عن حريتها واستقلالها وكذلك عن ولائها لهذا الحاكم أو ذاك. وقد حظي هذا الموضوع باهتمام أحد كبار الباحثين في علم النميات وهو هنري سيريغ، الذي أفرد له دراسة قيمة ضافية استعرض فيها تقاويم اثنتي عشرة مدينة سورية يقرّر فيها بحق أهمية التقاويم في الدراسات التاريخية(٥٦).

ويؤكد الباحثون أنه لم يظهر أي تاريخ على نقود ملوك سورية السلوقيين قبل عهد أنطيوخوس الثالث الكبير(٥٧). وأقدم النقود المؤرخة تحمل أرقام السنوات السلوقية (ρ/ξ/ριε/ριβ = ١١٢/١١٤/١١٦)، التي تقابل السنوات ٢٠١/١٩٨/١٩٦ق.م، وكان أول ظهور لهذه التواريخ على النقود البرونزية التي سكتها بعض المدن الفينيقية الخاضعة لسلطان السلوقيين. ثم يتوالى ظهور التواريخ السلوقية على النقود الملكية ونقود المدن الكبيرة مثل إنطاكية وأفامية واللاذقية ودمشق...، وأقدم نقد سكته مدينة إنطاكية يحمل التاريخ السلوقي ١٤٤ ت.س(٥٨). (= ١٦٩/١٦٨ ق.م)، الذي يعود إليه الفضل في تحديد تاريخ منح هذا الامتياز للمدن السورية من قبل أنطيوخوس الرابع أبيفانيس (١٧٥-١٦٣ ق.م) وأرخت مدينة طرابلس النقود التي سكتها مستخدمة تقاويم

مختلفة منها تقويم نيلها الحرية وتقويم بومبيوس وتقويم أكيتوم. ولكن يبقى التقويم السلوقي -كما يؤكد سيريغ- أقدم هذه التقاويم وأكثرها أهمية وتداولاً[٥٩]. وأقدم نقد مؤرخ سكته المدينة في العهد السلوقي هو دراخمة رباعية لأنطيوخوس التاسع تحمل السنة السلوقية ٢٠٨ أي أنها سكت في عام ١٠٥-١٠٤ ق.م. ومنذ معركة أكيتوم عادت طرابلس إلى استخدام التقويم السلوقي بصورة نهائية حتى زمن الإمبراطور الروماني اسكندر سفيروس (٢٢٢-٢٣٥م).

كما أن مدينة أفامية أرّخت نقودها بالتقويم السلوقي وأقدم ما وصلنا منها يعود إلى عام ٢٣٧ السلوقي، أي ٦٥ ق.م، أما آخرها فيعود إلى سنة ٣٢٦ السلوقية (=١٤م).

كذلك كانت دمشق تؤرخ نقودها حسب التقويم السلوقي وأقدم نقد دمشقي يحمل التاريخ السلوقي ٢٧٥ (= ٣٧/٣٦ ق.م)، ولكنه يحمل أيضاً صورة الملكة كليوباترة البطلمية، التي غدت دمشق من أملاكها بعد أن أهداها إياها القائد الروماني ماركوس أنيطونيوس. وهذا يؤكّد تمسك المدينة بالتقويم السلوقي حتى بعد أن تغيرت تبعيتها السياسية وبقيت تستعمله حتى عهد أنطونيوس بيوس[٦٠].

كما أن سائر المدن المهمة الأخرى في سورية كانت تستخدم التقويم السلوقي على نقودها، منذ أن بدأت بتأريخها مثل اللاذقية وسلوقية بيرية وحمص وعكا وبيروت وجبيل وسواها.

ولم يقتصر استخدام هذا التقويم على المدن المشهورة وإنما امتدّ أيضاً إلى الإمارات المحلية التي قامت في أواخر العهد السلوقي في سورية. فالأمراء الأيتوريون الذين اتخذوا من خلقيس لبنان عاصمة لهم أرّخوا نقودهم بالتقويم السلوقي، كما يظهر من النقد الذي سكه زينودوروس تكريما لأوكتافيان المنتصر في أكيتوم والذي يحمل التاريخ السلوقي ΣΠΒ = ٢٨٢ سلوقي = عام ٣١/٣٠ ق.م[٦١]، والذي تلاه نقد آخر

في عام ٢٨٧ سلوقي = ٢٦/٢٥ق.م. وهذا يدل على أن التأريخ بالتقويم السلوقي كان قد غدا أمراً مألوفاً وعميق الجذور في حياة المنطقة.

رابعاً: مصير التقويم السلوقي وتسمياته المختلفة:

لقد ارتبط مصير التقويم السلوقي بوصفه تقويماً سياسياً بمصير المملكة السلوقية وسلالتها الحاكمة، فكان ينظر إليه على أنه رمز للسيادة السلوقية، وبالتالي فإن تركه أو استبداله بتقويم آخر كان مؤشراً على زوال السلطة السلوقية أو الحد منها.

فعندما اغتصب القائد العسكري تريفون Tryphon العرش السلوقي عام ١٤٢ق.م، تنكر للتقاليد السلوقية فأبطل العمل بالتقويم السلوقي وبدأ يؤرخ نقوده بسنوات حكمه التي دامت أربع سنوات (١-٤)[٦٢].

وعندما دخل القائد الروماني بومبيوس Pompeius مدينة إنطاكية عام ٦٤ق.م، منهياً حكم السلالة السلوقية، فإنه ألغى استعمال التقويم السلوقي في إنطاكية واستبدله بنظام جديد لحساب الزمن يتمثل فيما أصبح يعرف باسم "تقويم بومبيوس"، والذي جعل بدايته من عام ٦٦ق.م، أي من عام انتصاره على ملك أرمينية تيجرانيس، الذي كان يسيطر على سورية في ذلك الوقت[٦٣].

وبالمقابل فإنه عندما احتل الفرثيون في ربيع ٤٠ ق.م مدينة إنطاكية، قاموا بدورهم بإلغاء تقويم قيصر المعمول به منها آنذاك وأعادوا العمل بالتقويم السلوقي[٦٤]. كذلك نجد الظاهرة ذاتها تتكرر في مدينة أفامية، فإنها عادت في العام نفسه (٤١/٤٠ ق.م) إلى سك نقودها من جديد مؤرخة بالسنة السلوقية ٢٧٢.

كما أن المدن السورية التي بدأت منذ أواخر القرن الثاني ق.م، تتحرر من سيطرة الملوك السلوقيين تخلى معظمها عن استعمال التقويم السلوقي واتخذت تقاويم خاصة بها رمزاً لحريتها، ولكنها إنما عملت ذلك تشبيها وتقليدا للتقويم الذي أدارت ظهورها

له. فمثلاً مدينة صور تخلّت عنه عـــام ١٢٦ق.م، وتلتــها صيــدا عــام ١١١ ق.م، وعسقلان عام ١٠٤ ق.م، أما إنطاكية فتخلت عنه في خريف عام ٤٩/٤٨ ق.م لتبـدأ تقويمها القيصري.. لقد اختفت معظم التقاويم التي اتخذتها المدن السورية، والتي عـاد الكثير منها مجدداً لاستعمال التقويم السلوقي بسبب مزاياه الكثـيرة وفوائـده العمليـة ورسوخه في تقاليد المنطقة، وذلك على الرغم من انهيار حكم السلالة السلوقية التـي أنشأته ورعته.

وإذا ما تساءل المرء عن سبب (أو أسباب) اندثار التقويم السلوقي واختفائه بعد ذلـك العمر المديد الذي يتجاوز الألف سنة، فمن الصعب الإجابة بصورة مؤكدة على أسـئلة من هذا القبيل، ولكن لا بأس من الاجتهاد في تفسير الحدث التاريخي.

لعل زوال التقويم السلوقي يعود في المقام الأول إلى أنه كان تقويماً ســلالياً سياسـياً ارتبط بتاريخ الإمبراطورية السلوقية وكتبت له البقاء والاستمرار بعد سقوطها، لأنـه ضرب بجذوره في تاريخ المنطقة وتراثها الحضاري، ولم يكن منافس أو بديـل فـي الشرق، حتى بدأت التحولات الكبرى في التاريخ القديم والمتمثلة في انتشـار الديانـة المسيحية وسيطرتها على مختلف مجالات الحياة في المجتمعات القديمة، وقضائها على مظاهر الحياة الوثنية السابقة وإحلالها قيمها ومبادئها الدينية بدلاً منها، بما فـي ذلـك وضع تقويم خاص بها، نابع من تراثها في القرن السادس وهـو التقويـم الميـلادي، والذي تلاه في القرن السابع وضع التقويم الهجري، الـذي رافـق ظـهور الإسـلام وانتشاره وكان بدوره تعبيراً عن الواقع الجديد والعصر الجديد، الذي وضـع نهايـة حاسمة للعصور القديمة.

لقد طغى هذان التقويمان على التقاويم القديمة التي سـبقتهما ووجـدا فـي الديـانتين المسيحية والإسلامية خير سند ونصير وراع لهما. فإذا كان تصديـق الديـن علـى

استخدام هذه التقاويم "طلسم نجاحها" كما يرى المؤرخ توينبي(٦٥)، فإن التقويم السلوقي كان يفتقر إلى هذا الطلسم الديني للبقاء والاستمرار.

وهكذا زال واندثر ولكنه كان من دون شك أطول التقاويم القديمة عمراً وأبعدها تـأثيراً حيث نجده في التواريخ العربية وكتب التراث بعد ألف سنة من سقوط المملكة التـي وضعته. كما أن استعماله بقي مستمراً على الصعيد الكنسي (الكنيسة السريانية) حتـى العصر الحديث.

تسمياته المختلفة:

يقابلنا التقويم السلوقي في المصادر التاريخية الكلاسيكية والعربية بأسماء مختلفة، وقـد يرد أحياناً باسمين مختلفين في المصدر الواحد. وأهم هذه التسميات:

آ- في المصادر الكلاسيكية:

يسميه تاريخ باسكاله البيزنطي: سنوات المقدونيين السوريين (Chron. Pasch. P. 171)
ἔτη τών Συρομακεδόνωγ ويدعوه سفر المكابيين الأول: ملكية الهيلينيين:

τής βαΒιλίας ˜Ελλήνων (μακκ. I,11,1)

ويسميه المؤرخ فلافيوس يوسيفوس: من ملكية سلوقس:

έτει...άπό Σελũκου βαΒιλείς (Ant. XII, 246)

وفي موضع آخر من تاريخ اليهود القديم: سنوات ملكية الآشوريين (أي السوريين):

˜έτη τής ʾAΒΒυρίων (=Σũρων) βαιλείας (XIII, 213)

أما في النقوش فيشار إليه أحيانا بعبارة: العد السابق:

κατά τόν πρότερον ˜αριζμόν

وقد ورد أيضا على نقش من حوران باسم: سنوات دمشق(٦٦):

κατά ΔαμαБκοῦ ˜έτους

ويشار إليه لدى الكتّاب الإغريق المتأخرين والسريان باسم: سنوات الإغريق أو سنوات بعد الاسكندر.

كما أن بطليموس الفلكي استعمله في كتابه المجسطي بصيغته: حسب سنوات الكلدانيين: κατά Χαλδαίους

وفي الحقيقة فإن السلوقيين أنفسهم لم يطلقوا على تقويمهم اسما محددا وإنما كانوا يدونون في وثائقهم عدد السنين المقترن بأسمائهم الملكية.

ب- في المصادر العربية:

ويمكن تصنيف تسمياته الكثيرة في هذه المصادر كالآتي:

١-**باسم الاسكندر ولقبه** (وهو أشهرها وأكثرها شيوعا): حيث يرد لدى الطبري باسم: "عهد الاسكندر ذي القرنين" ولدى المسعودي باسم: "عهد ذي القرنين" وفي الكامل لابن الأثير: "وقت غلبة الاسكندر" وعند ياقوت الحموي في معجم البلدان: "سنة كذا للاسكندر".

٢-**باسم اليونانيين وتاريخهم**: لدى البيروني في الآثار الباقية: "تاريخ اليونانيين"، ولدى ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء: "التاريخ الذي عند اليونانيين". وعند ابن شداد في الأعلاق الخطيرة: "عدد اليونانيين". ولدى ماراليا النصيبيني: "سنة كذا اليونانية".

٣-**باسم تاريخ الروم**: ورد ذكر بهذا الاسم في المشورات التي سبقت اعتماد التقويم الهجري كما جاء ذكره في أحد النقوش النبطية باسم "التقويم الروماني".

٤-**تاريخ منجمي بابل**: ورد هكذا لدى البيروني في الآثار الباقية (يعني تاريخ الاسكندر).

٥-**تاريخ السريانيين:** لدى المسعودي في مروج الذهب وعند ابن العبري.

٦-**كما عرف اليهود هذا التقويم باسم:** "حساب العقود" الذي ورد في التلمود باسم minjam sketroth وبقي مستعملاً عندهم حتى العصور الوسطى(٦٧).

خاتمة:

وهكذا فإن التقويم السلوقي يمثل إنجازا تاريخيا وحضاريا عظيما أثبت نجاحه وديمومته على مدى مئات السنين، وجاء ملبيا لاحتياجات الإمبراطورية السلوقية في كافة مجالات الحياة السياسية والإدارية والاقتصادية وسواها، وكان أداة اتصال وتوحيد بين شعوبها ومدنها وحضاراتها المختلفة.

ومما يبيّن أهمية هذا الإنجاز، أن البطالمة الذين حكموا مصر العريقة بتقاليدها، والتي ابتكرت أشهر تقويم شمسي في العصور القديمة، لم يتوصلوا في طرق تأريخهم إلى مرحلة التقويم (أي حساب السنين بدءا من زمن محدد)، إذ بقي كل منهم يعدّ سنوات حكمه بصورة مستقلة بدءا من صعوده العرش –على الطريقة المقدونية– بل إن الملوك الذين شاركوا آباءهم في الحكم احتسبوا هذه المشاركة في عداد سنواتهم الملكية.

لقد كان أول تقويم سلالي ملكي عرفه التاريخ وأطول التقاويم القديمة عمرا. فقد عاش قروناً طوالا بعد زوال المملكة التي نشأ في ظلها، بينما ارتبط مصير التقاويم السياسية ماضياً وحاضراً بمصير الأنظمة السياسية التي تبنتها.

لم يكن هذا التقويم من ابتكار الإغريق أو المقدونيين وحدهم، وإنما كان بلا شك ثمرة من ثمار التأثير الحضاري للمشرق العربي على الحضارة الهلنستية الكلاسيكية. لقد ولد في بابل الشهيرة بمعارفها وعلومها الفلكية، التي توصلت إلى وضع أفضل وأدق نظام للتوفيق بين السنتين القمرية والشمسية وحققت بذلك شرطا أساسيا لظهور التقويم،

الذي تبناه سلوقس وخلفاؤه وقدموا له الإطار السياسي` الــذي أتــاح لـــه الاســتمرار والانتشار.

وهنا ينبغي التذكير بأن التقويم اليولياني -الذي هو أساس التقويم الميــلادي الحــالي- كان أيضاً وليد حضارة مصر القديمة.

لقد أدرك كل من سلوقس ومن بعده يوليوس قيصر الحاجة الماسة إلى وجــود تقويــم منظم يلبي متطلبات إمبراطوريتيهما "العالميتين" ووجدا ضالتهما في بـــابل ومصـــر. فاعتمدا في وضع التقويمين المنسوبين إليهما على الســنة البابليــة القمريــة والســنة المصرية الشمسية، لأن السنة المقدونية -الإغريقية كانت تعاني مــن عــدم الانتظــام والثبات وأبعد من أن تشكل أداة صالحة لحساب السنين.

وكذلك الأمر، بل وبمقدار أكبر بالنسبة للسنة الرومانية، التي اضطر يوليوس قيصـــر إلى إضافة ٩٠ يوماً لتعديلها وجعلها متطابقة مع السنة الشمسية.

وبذلك تتجلى أهمية الإسهام الكبير لحضارات المشرق العربي في نشأة أهم تقويميـــن عرفتهما العصور القديمة والحديثة، وبالتالي في إيجاد أفضـــل أداة لقيـــاس وتدويـــن الأحداث التاريخية في الماضي والحاضر.

وأخيراً لقد ارتبط اسم السلوقيين في أذهان الأجيال اللاحقة باسم سورية، فعرفوا باســم ملوك سورية وعرف تقويمهم باسم التقويم المقدوني-السوري، والذي كان بدون شـــك أشهر تقويم عرفته سورية في تاريخها القديم.

A BABYLONIAN KING LIST OF THE HELLENISTIC PERIOD

By A. J. SACHS and D. J. WISEMAN

Obverse

1 [......^{I}]*a-lik-sa-an-dar* [............]... [...]
2 [^{I}]*pi-lip-su* šeš-*šú šá* ^{I}*a-lik-sa-a*[*n-*]*dar* ..[..]
3 ... mu lugal *ina* kur nu tuk ^{I}*an-ti-gu-nu-us*
4 [l]ú-gal erim-meš ...-...-'-*ni*
5 ^{I}*a-lik-sa-an-dar* A *šá* ^{I}*a-lik* mu' 6
6 mu-7-ká[m] *šá ši-i* mu-1-kám ^{I}*si-lu-ku* lugal
7 mu 25 in-ag
8 [m]u-31-kám kin ^{I}*si* lugal *ina mat ḫa-ni-i* ga[z]
9 [m]u-32-kám ^{I}*an* A *šá* ^{I}*si* lugal mu 20 in-ag
10 [m]u-51-kám gu$_4$ 16 ^{I}*an* lugal gal-*ú* nam-meš
11 mu-52-kám ^{I}*an* A *šá* ^{I}*an* lugal 15 mu [..?..] in?-ag?
12 [m]u-KU-6-kám izi *ina* E^{ki} *it-te-eš*[*-me*]
13 *um-ma* ^{I}*an* lugal gal-*ú* [..]..[............]
14 [mu-]KU-7-kám ^{I}*si* [...........]
15 [.................]

Reverse

1 [mu-1,]27-kám ^{I}*si* [........]
2 [mu-]1,30-kám ^{I}*an* lugal *ina* AŠ-TE t[uš-*ab*]
3 [mu] 35 in-ag
4 [ta] 1-*me*-2-kám en 1-*me*-19 ^{I}*an* [ ]
5 [ ] *u* ^{I}*an* A-meš lugal
6 mu-1-*me*-25-kám sig *ina* E^{ki} *it-te-eš-me*
7 *um-ma* u$_4$-25-kám ^{I}*an* lugal *ina mat* nim^{ki} gaz
8 mu bi ^{I}*si* A-*šú* ina AŠ-TE tuš-*ab* mu 12 in-ag
9 mu-1-*me*-37-kám kin u$_4$-10-kám ^{I}*si* lugal nam-meš DIŠ IGI
10 [i]tu bi ^{I}*an* A-*šú ina* AŠ-TE tuš-*ab* mu 11 in-ag
11 [mu b]i itu-apin ^{I}*an u* ^{I}*an* A-*šú* lugal-meš
12 [mu-1-*me*-]42-kám izi *ina a-mat* ^{I}*an* lugal ^{I}*an* lugal A-*šú di-ik-ku*
13 [mu-1-*me*-4]3-kám ^{I}*an* lugal
14 [mu-1-*me*-48-kám] gan *it-te-eš-me šá* ^{I}*an* l[ugal ....]
15 [................:].....[................]

Upper Edge

Traces of last two (of original three) lines, namely, ...]A[.... and ....]itu?[....

Left Edge

Remains of two lines : ....]^{I}*di* A *šá* ^{I}*di*[... and ...]^{I}*ar*? lugal[.....

* ملحق ١ بالقائمة الملكية السلوقية وترجمتها بالإنكليزية و١

A BABYLONIAN KING LIST OF THE HELLENISTIC PERIOD

Alexander the Great, Philip Arrhidaeus, and Antigonus the One-eyed

Obv. 1–4: "[........] Alexander [........]. Philip, Alexander's brother, [........]. .. years there was no king in the land. Antigonus, the chief of the army .... "

Alexander IV

Obv. 5: "Alexander the son of Alex(ander was reckoned as king until) year? 6 (s.E.)."

Seleucus I

Obv. 6–8: "Year 7 (s.E.), which is (his) first year, Seleucus (ruled as) king. He reigned 25 years. Year 31 (s.E.), month VI, Se(leucus) the king was killed in the land (of the) Khani."

Antiochus I

Obv. 9–10: "Year 32 (s.E.), An(tiochus) the son of Se(leucus ruled as) king. He reigned 20 years. Year 51 (s.E., month) II, (day) 16, An(tiochus) the great king died."

Antiochus II

Obv. 11–13: "Year 52 (s.E.), An(tiochus) the son of An(tiochus ruled as) king. (In month) V of year 66 (s.E.), the following was heard in Babylon: 'An(tiochus) the great king [died ....] '."

Seleucus II

Obv. 14–15: "Year 67 (s.E.), Se(leucus) [the son of Antiochus ruled as king. He reigned 20 years. He died month ......, day ......, 86 s.E.]."

Seleucus III

Rev. 1: "[Year] 87 (s.E.), Se(leucus) [ruled as king. He reigned 3 years]."

Antiochus III and Antiochus

Rev. 2–7: "[Year] 90 (s.E.), An(tiochus) the king sat on the throne. He reigned 35 [years. From year] 102 (s.E.) until year 119 (s.E.), An(tiochus) and An(tiochus), the sons(*sic*) of the king(*sic*). Year 12? (s.E.), month III, the following was heard in Babylon: '(On) day 25, An(tiochus) the king was killed in the land of Elam'."

Seleucus IV

Rev. 8–9: "The same year (= 125 s.E.), Se(leucus) his son sat on the throne. He ruled 12 years. Year 137 (s.E.), month VI, day 10, Se(leucus) the king died .... "

Antiochus IV and Antiochus

Rev. 10–15: "The same month (= VI 137 s.E.), An(tiochus) his son sat on the throne. He reigned 11 years. The same [year] (= 137 s.E.),

Antiochus IV and Antiochus

Rev 10-15: "The same month (= VI 137 s.E.), An(tiochus) his son sat on the throne. He reigned 11 years. The same [year] (= 137 s.E.), month VIII, An(tiochus) and An(tiochus) his son (ruled) as kings. [Year 1]42 (s.E.), month V, at the command of An(tiochus IV) the king, An(tiochus) the (co-)regent, his son, was put to death. [Year 14]3 (s.E.), An(tiochus ruled as) king (alone). [Year 148 s.E., month] IX, it was heard that king An(tiochus) [died ....]."

قائمة ملكية بابلية من العصر الهلنستي

الاسكندر الكبير، فيليب أريدايوس وأنتيغونوس الأعور

الوجه الأول:

الأسطر ١-٤: "[......] الاسكندر [......]

فيليب، أخ الاسكندر [......]

... سنوات لم يكن هناك ملك على البلاد

أنتيغونوس قائد الجيش".

اسكندر الرابع

السطر ٥: "اسكندر بن الاسكـ(ـندر اعترف به ملكاً حتى)

سنة ؟ ٦ (ت. س)".

سلوقس الأول

الأسطر ٦-٨: "العام السابع (ت.س) الذي هو عامه الأول، سلوقس (حكم بوصفه ملكاً. حكم ٢٥ سنة.

سنة ٣١ (ت.س)، الشهر السادس، سلوقس الملك قتل في بلاد الخاني".

أنطيوخوس الأول

السطران ٩-١٠: "السنة ٣٢ (ت.س) أنـ(ـطيوخوس) بن سـ(ـلوقس حكم) ملكاً. حكم ٢٠ سنة. السنة ٥١ (ت.س، الشهر الثاني (اليوم) ١٦، أنطيوخوس) مات الملك الكبير".

أنطيوخوس الثاني

السطر ١١: "سنة ٥٢ (ت.س)، أنـ(ـطيوخوس) بن أنـ(ـطيوخوس حكم) ملكاً. في الشهر) الخامس لعام ٦٦ (ت.س) سمع ما يلي في بابل: "أنـ(ـطيوخوس) الملك الكبير [مات]".

سلوقس الثاني

السطران ١٤-١٥: "السنة ٦٧ (ت.س) سـ(لوقس) [ابن أنطيوخوس حكم بوصفه ملكاً. حكم ٢٠. مات شهر ... يوم... ٨٦ (ت.س)]".

سلوقس الثالث

الوجه الخلفي ١: " [سنة] ٨٧ (ت.س) سـ(لوقس) [حكم بصفته ملكاً. حكم ٣ سنوات]".

أنطيوخوس الثالث وأنطيوخوس

الأسطر ٢-٧: " [سنة] ٩٠ (ت.س) أنـ(طيوخوس الملك جلس على العرش. حكم ٣٥ [سنة. من سنة] ١٠٢ (ت.س) حتى سنة ١١٩(ت.س) أنـ(طيوخوس) ابنا (هكذا) الملك (هكذا) السنة ١٢٥(ت.س) قتل الملك في بلاد عيلام".

سلوقس الرابع

السطران ٨-٩:" السنة نفسها (=١٢٥ ت.س)، سـ(لوقس) ابنه جلس على العرش. حكم ١٢ سنة. سنة ١٣٧ (ت.س)ـ الشهر ٦، اليوم ١٠ سـ(لوقس) مات الملك".

أنطيوخوس الرابع وأنطيوخوس

الأسطر: "الشهر نفسه (=السادس ١٣٧ ت.س)، أنـ(طيوخوس) ابنه جلس على العرش. حكم ١١ سنة، [السنة] نفسها (=١٣٧ ت.س)، الشهر الثامن، أنـ(طيوخوس) و أنـ(طيوخوس) ابنه حكما بوصفهما ملكين [السنة] ١٤٢ (ت.س) الشهر الخامس بناء على أمر أنـ(طيوخوس الرابع) الملك، أنـ(طيوخوس) الملك (المشارك) ابنه حكم عليه بالموت [سنة ٣ [١٤] (ت.س)، أنـ(طيوخوس حكم بوصفه) ملكاً (وحده). [سنة ١٤٨ ت.س الشهر] التاسع، سمع أن الملك أنـ(طيوخوس) [مات...]".

الأشهر التدمرية – البابلية		المقدونية		الفرنسية	
Tisrî	[illegible]	Ὑπερβερεταῖος	هيربيرتايوس	Octobre.	تشرين الأول
Kanoun	[illegible]	Δῖος	ديوس	Novembre	تشرين الثاني
Kisloul	[illegible]	Ἀπελλαῖος	أبلايوس	Décembre.	كانون الأول
Tebet	[illegible]	Αὐδυναῖος	أودوفايوس	Janvier.	كانون الثاني
Sebat	[illegible]	Περίτιος	برينيوس	Février.	شباط
Adar	[illegible]	Δύστρος	دوستروس	Mars.	آذار
Nîsan	[illegible]	Ξανθικός	أكسانتيكوس	Avril.	نيسان
Iyar	[illegible]	Ἀρτεμίσιος	أرتميزيوس	Mai.	أيار
Sîwan	[illegible]	Δαίσιος	دايسيوس	Juin.	حزيران
Qenian	[illegible]	Πάνημος	بانيموس	Juillet.	تموز
Ab	[illegible]	Λῷος	لوؤس	Août.	آب
Eloul	[illegible]	Γορπιαῖος	غوربيايوس	Septembre.	أيلول

جدول بأسماء الأشهر التدمرية –البابلية ومقابلاتها المقدونية والفرنسية
(مأخوذ من Choix d'Insce de Palmyre p13)

ملحق ٢

الحواشي

(١) وخير شاهد على ذلك أن المؤرخ جواد علي لم يورد شيئا عن التقويم السلوقي في الفصل الخاص بالتقاويم والتواريخ (مج ٨ ص ٥٠٩-٥٢٤) في تاريخه الموسوعي: **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، وإن كان أشار إليه أحياناً في ثنايا كتابه بصورة عابرة.

(٢) ديودورس الصقلي: **المكتبة التاريخية**، الكتاب ١٩، الفصل ٩٠ (Diodoros Siculus، ٩٠ .XIX.90)

(٣) عن أهمية عام ٣١٢ ق.م واستيلاء سلوقس على بابل انظر:

E. Bevan. **The Houde of Seleucus** Vol. I (1962).
P. 54: This was the moment which the Seleucus Kings regarded as the birthday of their Empire.

(٤) يعرف التقويم بهذا المعنى في اللغات الأوروبية بلفظة مأخوذة من الكلمة اللاتينية (المتأخرة) Aera وهكذا نجدها في الإنكليزية بصيغة Era وفي الفرنسية ére وفي الألمانية Aera. أما كلمة Epoch المأخوذة من اللفظة الإغريقية ἐποχή فتعني بداية التقويم وفي أي تاريخ يبدأ: باليوم والشهر والسنة.

(٥) ينفرد البيروني بتعريفه التقويم بهذه الصورة الدقيقة في كتاب: **الآثار الباقية عن القرون الخالية**. وقد خصّه بفصل عنوانه "القول في مائية التواريخ واختلاف الأمم فيها" ص ١٣ وما يليها. وهو يستعمل التأريخ هنا بمعنى التقويم.

(6) E. Bickermann. **Chronologie** S. 2 ff.

يعد المؤرخ بيكرمان من أكبر الباحثين الذين أولو التقويم السلوقي اهتماما كبيرا في دراساتهم ووضح بعض الإشكالات المتعلقة به فقد عالجه في كتابه المذكور أعلاه، كما تحدث عنه في كتابه المشهور "**أنظمة السلوقيين**" وأخيرا في مقالة ضافية نشرها في مجلة بيروت (١٩٤٤) انظر قائمة المراجع بخصوصها.

(7) **E. Bickermann. op. Cit. S. 2 ff.**

(8) **W. Kubitschek. PE I** sv Aera sp. 606 f

(٩) **الآثار الباقية**، ص ١٣.

(10) **Kubitschek, op. Cit. Sp 608.**

(11) **Enc. Brit.** sv Chronology p. 578.

(١٢) البيروني: **الآثار الباقية**، ص ٢٧.

(١٣) المسعودي: **التنبيه والإشراف**، ص ١٧٠.

(14) **Kubitschek. op. Cit.** Sp 616.

(15) Bickermann. **Chronologie** s. 32.

(١٦) يستند بيكرمان في هذا التفسير إلى ما جاء في أحد النصوص الفلكية البابلية من أن: "سنة سلوقس الأولى هي السنة السابعة" انظر كذلك: Bickermann. **Berytus VIII (1944) p. 75 n.11**.

(١٧) انظر كذلك: Ed. Will. **Histoire Politique du Monde Hellenistique** (1966) Tome I p.58 f. notes.

(١٨) هناك كثير من الأمثلة المعروفة تاريخيا التي تظهر أن استخدام التقويم وبدء العمل به جاء بعد زمن -وقد يطول أو يقصر- من الحدث العظيم الذي شكل مبدأ له. فالتاريخ الميلادي لم ينشأ ويبدأ العمل به إلا منذ القرن السادس الميلادي. كما أن التاريخ الهجري لن يتم إقراره والعمل بع إلا منذ السنة السابعة عشرة للهجرة.

(19) Bickermann. Institutions **des Séleucides** p 145.

(٢٠) يرى المؤرخ كولبي أن الصيغة البابلية هي الصيغة الأصلية، التي نشأت عنها الصيغة المقدونية. انظر W. Kolbe. **Beihrãge** zur syrischen und jüdischen Geschichte (1926) s 1 ff.

(٢١) يشكك بيكرمان (Berytus p 74 n. 7) في الرأي القائل: إن التقويم السلوقي كان يبتدئ في الأول من شهر ديوس المقدوني، مبينا أن هذا التأريخ يعود إلى حساب خاطئ قام به نوريسيوس في كتابه عن التقويم المقدوني- السوري منطلقا من تقويم ((Norisius. **Annales et epochae Syro- Macedonu, 1695**

إنطاكية الذي أصبح فيه يوم رأس السنة في الأول من ديوس مطابقاً للأول من أكتوبر بعد إصلاح التقويم وفق مبادئ السنة اليوليانية.

(٢٢) يرى بعض المؤرخين أن السبب في ذلك كان سبباً دينياً يتمثل في أن الحاكم الجديد لا يصبح ملكاً شرعياً إلا بعد أن يأخذ بيدي تمثال الإله مردوك في عيد رأس السنة البابلية. انظر: K. J. Beloch, **Griechische Geschichde** IV, 2 s. 50.

(٢٣) لقد تقبل سلوقس التقاليد البابلية بهذا الخصوص وعمل بمقتضاها مثلما عمل بتقاليده المقدونية لأنّ أي تغيير فيها كان سيحدث اضطراباً في الحسابات والتواريخ المعهودة منذ مئات السنين. ومن الجدير بالذكر أن كلاً من التقويمين الميلادي والهجري قد راعى أيضاً التقاليد السائدة. فعلى الرغم من الاعتقاد السائد أن المسيح ولد في ٢٥ كانون الأول فإن السنة الميلادية بدأت في الأول من كانون الثاني الذي كان أول شهور السنة الرومانية. كما أن المسلمين اختاروا الأول من المحرم مبدأ السنة الهجرية لأنه كان منذ زمن بعيد أول شهور السنة عند العرب، علماً أن حدث الهجرة ذاته جرى في ربيع الأول.

(٢٤) يتحدث تارن عن النجاح الهائل لذلك الابتكار العظيم التقويم السلوقي الذي عمّ آسية: The enormous success of that great invention the Seleucid Calendar which swept Asia ويعدد أسماء المناطق والدول التي انتشر فيها. W.W. Tarn , **The Grecjke in Bactria and India** (1951) p. 64.

(25) W. Tarn, **op. Cit.** P 359.

(26) E. Bickermann, **Berytus** . p 81.

(27) C. B. Welles, Royal Correspondance in **the Hellenistic Period** (1934) pp. 399 ff.

(٢٨) انظر: جواد علي، **المفصل**، مج ٨، ص ٥١٤ ت.

(٢٩) تنتمي تقاويم الولايات إلى مجموعة التقاويم السياسية وتنطلق من سنة خضوع الولاية للحكم الروماني وتنظيمها إدارياً. ومنها تقويم ولاية مقدونية

(خريف عام ١٤٨ ق.م) وتقويم ولاية موريتانية (١/١/٤٠ ق.م) ويعرف بعام الولاية (**Anno Provinciae**).

(٣٠) كرونيكون باسكالة، Chron. Paszh. P. 472 (Bonn)

تسمية تقليدية لتاريخ بيزنطي مصنف حسب السنين بدءاً من آدم حتى عام ٦٢٨ ميلادية ويعني اسمه في الحقيقة "كرونيكون (عيد) الفصح" ويعد مع كرونيك أوسيبيوس أهم مؤلف في الكرونولوجيا الإغريقية.

(٣١) انظر عن هذين النقشين وتقويم بصرى:

I.G. Wetzstein, Ausgewählte Gr. u Lat. Inschrifien **un das Haurangebirige** (Berlin 1864) s. 258

أما الأندقطية (indictoi) فهي دورة زمنية مؤلفة من ١٥ سنة استعملها الرومان لتحديد الضرائب.

(٣٢) حول تقويم بصرى ونقش النمارة، انظر جواد علي **المفصل**،مج ٧، ص ٥١٨ ت.

(٣٣) يعود الفضل في الكشف عن هذه الوثيقة البالغة الأهمية التي بقيت مجهولة المحتوى من عام ١٨٨٠ للباحثين البريطانيين أ. ساكس A Sachs و د. ويزمان D. Wiseman اللذين قاما بفك رموزها وترجمتها ودراستها تاريخياً وكرونولوجياً في مقالة شهيرة نشرت في مجلة العراق بعنوان:

A Babylonian King List of the Hellenistic Period in: IRAO, ZVI (1954) pp. 202-211،

ونظراً لأهمية هذه الوثيقة فقد أفرد لنصها الأكادي وترجمته ملحق خاص بها في نهاية هذا البحث. ومن البديهي أن التقويم السلوقي المستخدم فيها هو بصيغته البابلية أي بدءاً من نيسان عام ٣١١ ق.م.

(٣٤) انظر بهذا الخصوص **الحاشية** رقم ١٦.

(٣٥) انظر حول هذه الوثيقة: K. I. Beloch. **Griech. Gerschichte** IV. 2,s.543.

(٣٦) الكتاب المقدس: كتب التاريخ، **سفراء المكابيين الأول والثاني**.

(٣٧) **سفر المكابيين** الأول، الأصحاح (١١) الفقرة (١).

(38) H. Seyrig, **Chronologie des inscriptions Datées fed Tomes I-IV** enn IGLS IV pp. 375-78.

(٣٩) كما نجد التقويم السلوقي على الأوزان المستعملة في مدينة اللاذقية وأقدمها (IGLS. 1271A) يحمل التاريخ السلوقي ١٦٨ (١٤٥=١٤٤ ق.م)

(40) H. Seyrig, **Les ères de quelques villes de Syrie**:Syria 27 (1950) p. 35 f.

وقد نشرت هذه النقوش في ملحق النقوش الإغريقية **SEG** : Supplementum Epigraphicum Graecum II Nr. 828-32.

(41) H. Seyrig, **Éres**.... P. 5.

"La Connaissance des éras est un élément Essentiel de l'histoire Syrienna à la fin de l'époque **hellenistique**, époque hristement privée de sources fideles".

(42) ef. **Seyrig, Éres .... P. 20 f.**

(43) **ef. Welles, Royal Corresp**. P 302 n. 7.

(٤٤) يعود أقدم نقش اكتشف في تدمر إلى عام ٤٤ ق.م وهو بالآرامية التدمرية انظر: **Choisc d'inscriptions de Palmyre** (1922) p 13 كما اكتشف في تنقيبات دورا أوروبوس نقش تدمري يعود إلى عام ٣٣ ق.م.

(٤٥) انظر حول نقش التعرفة الجمركية: **Choisc d'inscr. de Palmyre p. 24f** وعن النص الإغريقي في كتاب: **Palmyrra** (1987) s 160 ff.

(٤٦) انظر حول هذا النقش:ولفنسون، تاريخ اللغات السامية(١٩٢٨)،ص١٣٣ ت.
M. Rodinson, Syria XXVII (1950) P. 137 ff

(٤٧) الجدول مأخوذ من: **Choisc d'inscr. de Palmyre p. 13**، انظر أيضاً: ص ١٤ من هذا البحث والملحق.

(٤٨) انظر ولفنسون: المرجع نفسه، ص١٩١، جواد علي، **المفصل**،ج١، ص٥١.

(٤٩) انظر: جواد علي، **المفصل**،ج٣، ص٤٧. وقد نشر النقش في مجموعة النقوش السامية: **CIS II, 161**.

(٥٠) جواد علي، **المرجع نفسه**، ص ٤٥.

(٥١) وهو يحمل الرقم ٨٢ من مجموعة نصوص الحضر. انظر، جواد علي، **المفصل**، ج٢، ص ٦١٢.

(52) **Kristian, Dilmun** **s. 352.**
I. Pouillousc. Choise d'inscriptions Grecques (1966) Nr. 30, p. 115 ff.

(٥٣) انظر أيضاً: ص ٢٦ يذكر هذا التعبير بالتسمية التـــي وردت فـــي نقشـــي الرستن ودورا أوروبوس للدلالة على التقويم السلوقي.

(٥٤) نشرت في مجلة سيريا (١٩٥٠) بعنوان: حول تقاويم بعض مـــدن ســـورية انظر الحاشية رقم (٤٠): H. Seyig, sur les éres... p5-50.

(55) E. **Babelon. Les Rois de Syrie** (1880) p. 38-68: Aucune date ne parait sur les monnaies des Rois de Syrie avant la fin du regne d'Antioche III [Kubitachek. REI s.v. Area sp 633 نقلاً عن]

(56) Cf. **Bickermann. Institutions**.... P. 231.

ويؤكد بيكرمان (ص ٢٢٧) أن معرفة عام سك النقود هو في غاية الأهميـــة بالنســـبة لتاريخ السلوقيين.

(57) cf. Seyrig. **ibid**, p. 42.

(٥٨) يؤكد سيريغ أن: "نقود دمشق، إذا ما كانت مؤرخة، فإنها تكون على الـــدوام حسب التقويم السلوقي (٣٤):

Les minnaies de Damas. losque'elles sont datées. le sont invariablement selon l'ére des **Seleucides**.

(59) cf. Seyrig. **ibid, p. 47f.**

(60) **cf. Seyrig, Syria XXVIII (1951) p. 343.**

(61) **Downey, History of Antioch** (1961) p. 146.

(62) Downey. **op. Cit.** P. 160.

(٦٣) ا. توينبي، **مختصر دراسة التاريخ** ج٣، ص١٠٤.

(64) Cf. **Kubitschek, RE** sp.. 632 f.

أهم المصادر والمراجع والمختصرات

آ- المصادر:

١- **الكتاب المقدس:** كتب التاريخ (دار المشرق، بيروت ١٩٨٦) سفر المكابيين الأول والثاني.

2- Flavius Iosephos, **Iüdische Altertümer** 2 Bände Übs. H. Clemenz 1975.

3- A.J. Sachs –D.I. Wiseman, **A Bobylomian King-List of the Hellenistic period in: IRAQ** XVI (1954) pp. 202-211.

ب- المراجع العربية:

١- البيروني (أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني): **الآثار الباقية عن القرون الخالية**، لايبزغ ١٩٢٣.

٢- أرنولد توينبي: **مختصر دراسة التاريخ**، ج٣، ترجمة فؤاد شبل، القاهرة ١٩٦٤.

٣- جورج سارتون: **تاريخ العلم**،ج٥، ترجمة لفيف من العلماء، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٧١.

٤- جواد علي: **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، بيروت ١٩٧٨.

٥- محمد محمد فياض: **التقاويم سلسلة الألف كتاب** (القاهرة ١٩٦٨).

٦- ونفسون: **تاريخ اللغات السامية** (١٩٢٨ القاهرة).

ج- المراجع الأجنبية:

1- K. I. Beloch, **Griechiche Geschichle** IV, 2 (1928).

2- E. Bevan, **The House of Seleucus** Vol. 11 (1902).

3- E. Bickermann, Chronologie (**Einbitung in die Altertumscwiss enschsft** 111.5) Leipzig 1933.

4- E. Bickermann, **Institutions des Séleucides** 1938.

5- E. Bickermann, **Notes on Seleucides and Pathcian Chronology in: Bertus** Vol. 8 (1943-44) pp. 73-83.

6- I. B. Chabot: **Choisc d'Inscriptions de Palmyre** (1922).

7- Chronology in: **Enc Brit.**

8- G. Downey, **A History of Antioch in Syria** 1961.

9- Kubitschek, **RE**, s.v. Aera.

10- I. Pouillousc, **Choisc d'Inscriptions Greques** 1966.

11- M. Rodinson, **Syria XXVII** (1950) pp. 137 ff.

12- Henri Setrig, **sur les éres de quelques villes de Syrie in: Syria XXVII** (1950) pp. 5-50.

13- W.W. Tarn, **The Greeks in Bactria and India** (Combridge 1951).

14- C.B. Welles, **Royal Correpondance in the Hellenitic period** 1934.

15- Ed. Will, **Histoire Politique du Monde Hellenistique** 2 vols (Nancy 1966).

د- المختصرات:

1- **IGLS= Les Inscriptions Grecques et Latines de la Syrie.**

2- **RE =Pauly–Wissowa Realencyclopädie dre Classischen Altertumscwissenschght.**

3- **Syria= Revue d'Art Orièntal et d'Archéologie.**

Philip The Arabian
(Marcus Julius Philippus)

الإمبراطور الروماني فيليب العربي
(ماركوس يوليوس فيليبوس)

عبد المجيد حاج حمدان
قسم التاريخ
جامعة دمشق

Philip The Arabian
(Marcus Julius Philippus)
الإمبراطور الروماني فيليب العربي
(ماركوس يوليوس فيليبوس)

عبد المجيد حاج حمدان
قسم التاريخ
جامعة دمشق

١-أسرة فيليب العربي ونشأته:

ولد فيليب العربي المعروف في اللاتينية باسم ماركوس يوليوس فيليبوس Marcus Julius Philippus عام ٢٠٥م، في مدينة شهبا التي تقع على بعد ٩٠كم، جنوب شرق دمشق(١).

أسس هذه المدينة الإمبراطور فيليب العربي في منتصف القرن الثالث ميلادي وكانت تعرف باسم "مدينة فيليب أو فيليبوبوليس"، وأبوه فيليب هو يوليوس مارينوس. الذي كان سيد البلاد في منطقة شهبا آنذاك(٢)، وهو أحد الشيوخ العرب(٣)، ومن القبائل العربية التي أقامت في اللجاة وغيرها من المناطق، التي بدأت تتزايد أهميتها ويتسع نفوذها مع تزايد عدد أفرادها وقدراتهم القتالية وفعالياتهم الاقتصادية المختلفة، حتى أصبحت تشكل قوة هامة لها وزنها في المنطقة(٤).

وللأسف، لم تتوافر لدينا أية وثيقة تتحدث عن فيليب العربي عندما كـــان فـــي بلدتـــه الأصلية، كذلك لا توجد إلا معلومات قليلة جداً تتحدث عن مراحل صعوده إلى العرش وعن الحوادث التي جرت في عهده(٥).

التحق فيليب العربي بالجيش الروماني مع عدد كبير من أبناء وطنه الشباب، لإرضـــاء طموحاتهم وتطلعاتهم ولتحقيق أمنياتهم في الوصول إلى السلطة، والشعور بالميل إلـــى حبّ الحرية وممارستها.

وقد تزايد عدد الشباب السوريين في جيش الشرق الروماني، مما جعل هـــذا الجيـــش ليس في الحقيقة من الصبغة الرومانية إلا الاسم، إذ إن معظم عناصره كان من أبنـــاء المنطقة العربية(٦).

تسلّم فيليب العربي سدة الحكم في روما عام ٢٤٤م، وكان ذلك استمراراً طبيعياً للحكم العربي، فقد عاد الحكم العربي بعد غياب الأسرة السبطية فترة لا تزيـــد عـــن تســـع سنوات، وهي الفترة التي امتلأت بالاضطرابات والمشاكل والاعتـــداءات الخارجيـــة، والتي تجاوزت الخمس سنوات(٧).

اشتهر فيليب العربي بالجرأة والشجاعة والإقدام والمروءة وغيرهـــا مـــن الصفـــات العربية الحميدة، وقد حققت هذه الصفات لفيليب سرعة التدرج والارتقاء في منـــاصب الجيش الروماني(٨).

وبالفعل ظلّ فيليب يتدرّج في المناصب حتى عيّنه الإمبراطور (جورديـــان الثـــالث)، قائداً للحرس الإمبراطوري بعد وفاة قائد الحرس الإمبراطوري (تيميسثيوس) في عـــام ٢٤٣م(٩).

وقد اعتاد جنود الجيش الروماني على التمرد منذ بداية القرن الثالث، وفرض إرادتـــهم بسبب تزايد شعورهم بأهميتهم، وبنتيجة قلة انضباطهم استغلوا فرصة قلة الخـــبز(١٠)،

والإمدادات اللازمة للجيش، وضعف شخصية وخبرة الإمبراطور الشاب العسكرية (جورديان الثالث)، لذلك ثاروا ضده وقتلوه في عام ٢٤٤م، مع العلم بأنه كان يستعد لقتال الفرس الساسانيين في أواخر شباط عام ٢٤٤م، بعد ذلك نادى الجند بقائد الحرس الإمبراطوري (فيليب العربي)، إمبراطوراً على عرش الإمبراطورية الرومانية سنة ٢٤٤م، في مدينة زيتا السورية التي تقع بين قرقيسيوم ودورا أوروبوس على الفرات[١١].

بعض المصادر ذكرت بأن جورديان الثالث قد قتل على يد الفرس الذين عرفوا بالقتل البشع، سواء أكان غدراً أو في ساحة القتال[١٢]، ولكن موت جورديان الثالث في الأراضي الفارسية مستبعد تماماً، لأن القوات الرومانية لم تشتبك مع الفرس في الأراضي الفارسية. كان من أول أولويات الإمبراطور الجديد فيليب العربي، أن يعقد سلاماً عادلاً مع ملك الفرس شابور الأول، ومن ثم يذهب إلى روما. لقد كان الصلح مع الفرس بالنسبة لفيليب أهم من استمراره في الحرب معهم[١٣]. لذلك عقد الصلح معهم وأصبح باستطاعته أن يذهب إلى روما بسرعة ويدعم مركزه فيها[١٤].

قبل المؤرخون منذ زمن طويل أن فيليب العربي أسرع إلى روما عبر حدود الفرات منذ أن نادى به الجنود إمبراطوراً في أواخر شتاء عام ٢٤٤م[١٥].

ولدينا النقش العائد للفرقة الثانية بارثيكا في مكان تمركزها في جبل ألبا خارج روما رقم ILs505.

**Victoriae reducis dd. nn.[imp. Caes M. Iulii Philipp]
Pii Felicis Aug. et [Otaci]-Liae Se [verae] Aug. [con] iugi (s) d.n., milites leg (ionis) II 5 Partb (icae) [Philippianae] P(iae) F(idelis)
Aet(ernae), q(ui) m(iliare) c(oeperunt) Oclatin[I]o Ad-Vento cos., quorum nomina cum trib (ub) us et Patri Victoria Redux and Philip the Arab Is inserta suit, devo 10 ti numini maiestati- que eorum, d(edicaverunt) X k(al.) Aug. Peregrino et Aemiliano, in his (centuriones) et evok (ati) Augg. nn., cura (m) age [n]te Pompon (io) Iuliano R. leg. Eius.**

وهذا النقش هو الدليل الملموس الذي يؤكد بأن فيليب العربي قد سار إلى روما عبر الحدود الشرقية، وأنه وصل إلى روما في نفس اليوم الذي كتب فيه هذا النقش، وهو ٢٣ تموز عام ٢٤٤م[١٦].

إن قواد وجنود الفرقة الثانية بارثيكا قاموا بكتابة هذا النقش خلال الأيام العشرة التي سبقت شهر آب، في ٢٣ تموز عام ٢٤٤م. وعلى الرغم من الصعوبات المتعددة، فإن أحد مضامين هذه الوثيقة يعتبر صحيحاً، حيث تم تدشين هذا النقش الذي يكرم فيكتوريا ريدوكس من قبل الإمبراطور فيليب العربي، ومن المفترض أن يحصل هذا التكريم عندما كان الإمبراطور فيليب العربي قد وصل إلى العاصمة روما[١٧]، ولهذا السبب لا بد أن فيليب كان في روما قبل ٢٣ تموز عام ٢٤٤م، ومن هنا نستنتج لماذا أنهى فيليب العربي الحملة الرومانية ضد الفرس بسرعة، وعقد الصلح معهم قبل نهاية شهر تموز وحضر التدشين في روما[١٨].

وهنا نشك بأنه لم يكن بإمكان فيليب العربي أن يصل إلى روما في ٢٣ تموز عام ٢٤٤م، لأنه من غير المعقول أن نقول بأنه وصل إلى روما بدون دعم الفرقة الثانية بارثيكا، لأن هذه الفرقة لم تعد إلى معسكرها في ألبا لأنها ما زالت منشغلة بالعمليات العسكرية في ضواحي الدانوب.

وإنه من الضروري إعادة سبب السير السريع لفيليب العربي إلى روما، والأحداث المترتبة عن السنة الأولى لحكمه[١٩]. وهنا لا بد من العودة إلى "المختصر التاريخي العام للقرن الثاني عشر للراهب زوناراس Zonaras"[٢٠].إذ تعدّ مصادر الراهب زوناراس عن هذه الأحداث من مصادر البحث المهمة، لأنه أفضل من كتب عن فيليب العربي.

لقد أشار زوناراس أولاً: إلى أن السلام مع شابور كان مسألة طويلة الأمد. وثانيـاً: أن فيليب كان في طريقه إلى روما من الشرق وتوقف ليقـوم بعمليـات عسـكرية فـي ضواحي الدانوب.

كما ذكر زوناراس بأن فيليب العربي قد سلّم أرمينيا وبلاد ما بين النهرين إلى شـابور الأول بشرط أن يسترجعهما بعد فترة قصيرة رغم السخط العام[٢١].

أما زوسيموس فقد أشار إلى فيليب كقائد عسكري خاض حرباً شرقية مع الفرس ولـم يتنازل عن أية منطقة للفرس في المعاهدة التي وقعها مع شابور الأول[٢٢].

إن هذين الموضوعين يجب أن لا يكونا متناقضين، وإن انسحاب الجيش الروماني من بلاد فارس والمفاوضات مع الفرس تتطلب دبلوماسية طويلة بين الطرفين.

أما كيف تم تحقيق هذه التسوية بشكل سريع فهو سؤال تصعب الإجابـة عليـه. وإذا اعترفنا بتفسير زوناراس، فيمكن أن نعدّ أن أعمال فيليب الدبلوماسية كـانت معقـدة وطويلة الأمد، وعلى الأرجح أنها محسوبة بدقة أكثر مما سهلها بعض المؤرخين.

ويظهر أن هناك دلالة على أن إدارة فيليب للأمور العسكرية على الحـدود الشـرقية للإمبراطورية الرومانية، قد تم تنفيذها ببالغ الاهتمام والعناية، وهـذا يتعـارض مـع خروجه المفاجئ والسريع إلى روما[٢٣].

وقد افترض زوناراس بأن وصول فيليب العربي إلى روما يمكن أن يكون قد تـأخر بسبب استمرار العمليات العسكرية في منطقة الدانوب، وبسبب عدم استقرار السـلام بعد، لذلك فعودته بهذه السرعة إلى روما غير أكيدة[٢٤].

أما النقش رقم ILs505 وأغلب المصادر والمراجع التي اعتمدنا عليها فهي تجمع على أن وصول فيليب العربي إلى روما كان قبل ٢٣ تموز عام ٢٤٤م[٢٥]. ومن مصلحـة

الإمبراطور فيليب الجديد أن يظهر في العاصمة في أسرع وقت ممكن، لأن تتويج الإمبراطور يجب أن يكون في روما نفسها.

وبعد أن أصبح فيليب العربي إمبراطوراً على عرش الإمبراطورية الرومانية في عام ٢٤٤[٢٦]، رأى أن من واجبه إحاطة مجلس الشيوخ في روما، بنبأ اغتيال الإمبراطور جورديان الثالث. فأرسل كتاباً رسمياً إلى مجلس الشيوخ في روما، يبلغهم فيه عن نبأ موت الإمبراطور جورديان الثالث، وحيًّا في كتابه ذكرى الإمبراطور السابق ومآثره بعبارات مألوفة ومناسبة، هذا وقد اهتم الإمبراطور فيليب العربي باعتراف مجلس الشيوخ في روما به إمبراطوراً، كما اهتم بقضايا الجيش الروماني، وقتال الفرس الساسانيين[٢٧].

وساعد على ذلك أن الجيش الروماني في ذلك الحين كان يتمتع بنفوذ قوي، لذلك صادق مجلس الشيوخ الروماني على طلب الجيش[٢٨]. واعترف به رسمياً إمبراطوراً جديداً للإمبراطورية الرومانية.

بعد هذا الاعتراف تابع فيليب العربي استعداده لقتال الفرس، وبدأ القتال بين الطرفين ضارياً، ولما شعر فيليب بأن الأوضاع مضطربة في كافة أنحاء الإمبراطورية، ولا تسمح له باستمرار الحرب مع الفرس الساسانيين، عقد الصلح معهم في عام ٢٤٤م[٢٩]. هذا الصلح ملخصه أن يرفع الملك شابور الأول يده عم ولاية ما بين النهرين مقابل تنازل روما عن مصالحها في أرمينية الكبرى وأن تدفع له ٥٠٠,٠٠٠ خمسمئة ألف دينار كغرامة حرب وفدية عن الأسرى الرومان الذين قبض عليهم الفرس[٣٠].

وبعد أن اطمأن فيليب على أمن وسلامة الجبهة الشرقية للإمبراطورية الرومانية، اتجه من ساحات القتال في حوض الفرات الأوسط بين دورايوروبوس ومدينة قرقيسيا Circesium إلى مدينة إنطاكية عاصمة سورية آنذاك في شهر نيسان عام ٢٤٤م،

ومن إنطاكية تابع رحلته بحراً إلى روما حيث استقبل فيها استقبالاً عظيماً من قبل مجلس الشيوخ والشعب الروماني(٣١).

لقد كانت حملات فيليب العربي التي شنها ضد قبائل الدانوب الأسفل، ناجحة جداً أكسبته لقب جرمانيكوس مكسيموس Germanicus Maximus(٣٢).

وكان لسك النقود أهمية في ذلك الزمان، إذ كان يدل على السيادة ويؤيد سلطة الإمبراطور، لذلك سكّت دور سك النقود في إنطاكية وروما، نقوداً تزينها صورة الإمبراطور فيليب العربي تأكيداً على سلطته ومكانته وهيبته كإمبراطور روماني(٣٣).

كذلك سكّت دور السك الأخرى في عدد من مدن الإمبراطورية الرومانية، لاسيما في دمشق وبعلبك ونابلس... نقوداً تزينها صورة الإمبراطورة مارثيا أوتاسيلا سيفيرا، زوجة فيليب العربي، وقد زودتنا هذه النقود الأثرية بمعلومات وافية عن هذه الفترة، فقد حملت اسم الإمبراطور فيليب العربي وابنه وزوجته، وعرفتنا على أسماء المدن التي سكّت هذه النقود، وكانت دليلاً أكيداً على التطور والازدهار الاقتصادي لسورية في تلك الفترة(٣٤).

لقد أدرك الإمبراطور فيليب العربي أهمية مجلس الشيوخ كمؤسسة رسمية هامة في الإمبراطورية الرومانية منذ العصر الملكي، فأعاد صلاحياته السابقة من أجل أن يقوم هذا المجلس بمهامه ويتحمل مسؤولياته، بعد أم كان معطلاً لفترة طويلة بسبب تدخل الجيش في صلاحيات مجلس الشيوخ، وضعف هيبة أغلب الأباطرة الرومان. وقد أثار هذا الإنجاز الهام شعور الارتياح في نفوس أعضاء مجلس الشيوخ في روما، واعتبر هذا الإجراء بمثابة صفحة جديدة في العلاقات بين الإمبراطور ومجلس الشيوخ(٣٥).

لقد اعتمد أغلب الأباطرة الرومان بشكل كلّي على الجيش وأهملوا الفئات الأخرى، لاعتقادهم بأن قوة الجيش وحدها هي التي تحقق كل شيء. وقد أدرك الإمبراطور

فيليب العربي خطأ هذه السياسة وسوء نتائجها الخطيرة، ورأى أنه من الحكمة الاعتماد في الحكم على دعم مجلس الشيوخ وكسب تأييد الطبقات الشعبية(٣٦).

إصلاحيات الإمبراطور فيليب العربي:

لاحظ الإمبراطور فيليب أن الوضع يزداد سوءاً في الإمبراطورية الرومانية، وهذا تطلب منه القيام بإصلاحات مختلفة، شملت ميادين الحياة، لاسيما الاقتصادية، والاجتماعية، والدينية، والأمنية، ولذلك أصدر عفوا عن المعتقلين السياسيين في العهود الرومانية السابقة، وسمح بعودة المنفيين، وألغى الاعتماد على فئة المخبرين، والمغرضين المنتشرين في كافة أنحاء الإمبراطورية الرومانية، الذين أقامهم الإمبراطور مكسيمان، وزاد الاهتمام بالزراعة وتنمية الموارد العامة، وحماية المزارعين، معتمدا في حكمه على مبادئ العدل والقانون.

كما ألغى السخرة، وقضى على العبودية، وخفف من أعباء المصادرات العامة غير القانونية، وأصلح طرق الإمبراطورية، ورفع الاضطهاد عن المسيحيين، وأظهر كثيرا من الاحترام والعطف ازاء مجلس الشيوخ والشعب، حتى اعتبره بعض آباء الكنيسة ومنهم القديس جيروم المشهور، أول إمبراطور مسيحي، ووفاء لذكرى هذا الإمبراطور السوري الأصل، أن نعترف بأنه كان أول إمبراطور حرّر المسيحيين من الظلم والاضطهاد، وأعاد إليهم حريتهم واعتبارهم وأملاكهم(٣٧).

كل هذا جعل عهد الإمبراطور فيليب العربي بمثابة رد فعل قوي ضد طالع الظلم والتعسف في العهود الرومانية السابقة، وأدّى إلى ارتياح الشعب الروماني في عهد هذا الإمبراطور.

وهناك وثيقة تنسب إلى الحكيم الأثيني (نيكاجوراس) تقول هذه الوثيقة: أما عن عدله، فيكفي ما قد ذكرنا، فأي إحسان أعظم من إحسانه؟ لقد كانت كل المقاطعات راسخة في أغلال من الخوف(٣٨). وكان من المستحيل أن يتحدث المرء بحرية حتى زال كل أثر

لحرية القول، إلى أن جاء فيليب العربي وخلّص الناس من هذا الخوف، وأعاد لهم حريتهم كاملة.

لقد كان أغلب الأباطرة شجعاناً في مواجهة العدو، ولكنهم كانوا خاضعين لسلطان جيوشهم، أما فيليب العربي فقد سيطر على الجيش، وأعاد الجند إلى النظام والانضباط.

إن هذه الوثيقة تصور لنا تحول فيليب العربي إلى سياسة الإصلاح الجديدة، التي تخدم مصالح الشعب الروماني.

كذلك لدينا وثيقة ثانية تتحدث عن الأوضاع الاجتماعية، وهي موجهة من فلاحي بعض الأراضي في آسية الصغرى إلى فيليب العربي تقول الوثيقة ما يلي:

"بينما يحظى سائر الناس في أيام حكمك السعيد، يا أكثر الملوك تقوى وبركة بحياة آمنة لا يكدر صفوها مكدر، إذ قد انتهى الفساد، وانقطع تماما الاستغلال، وما زلنا وحدنا نعاني من المساوئ، مما لا يتفق مع عهدكم السعيد، لذا نرفع إلى مقامكم هذا الالتماس، نحن فلاحو الأباطرة الأقدمين. وبهذه الصفة نلتجئ إلى جلالتكم، فنحن نعاني الظلم وابتزاز الأموال من أولئك الذين من واجبهم أن يحموا الشعب... هؤلاء نستخدمها في الحرث، ويبتزون منا ما ليس من حقهم... فنحن نرزح تحت ظلم وسلب لا مثيل لهما[٣٩].

وفي وثيقة ثالثة يعود تاريخها إلى عام ٢٤٦م، تتضمن عقد بيع وردت فيه الإشارة إلى الإعلان الذي أصدره حاكم مصر لتشيع الإقبال على شراء الأراضي، حماية صغار الملاكين تنفيذاً لسياسة الإمبراطور فيليب العربي، لاسيما في مصر وفي كافة أنحاء الإمبراطورية الرومانية[٤٠].

يستنتج روستوفتزف من نص الوثيقة الموجهة إلى الإمبراطور، أن ذلك الخطيب مدح الإمبراطور فيليب العربي بعدة أوصاف: (التقي) و(الورع) و(الوديع) و(الحكيم) و(العادل) و(القادر على ضبط نفسه) و(المحب للخير)... (٤١).

لقد شيد فيليب العربي قصراً ضخماً على هضبة كيليوس، إزاء البالاتان في روما، وحلم بتأسيس سلالة إمبراطورية، وسمى ابنه ماركوس يوليوس فيليبوس قيصراً، ثم منحه لقب أوغست، وعيّن أخاه غايوس يوليوس بريسكوس قائداً على أوروبة الشرقية، وأعلن أن أباه قد أصبح إلهاً، وأقام له معبداً في (شهبا - فيليبوبولس)(٤٢).

لقد كانت غزوات القبائل الجرمانية والكاربية المتوحشة على حدود الإمبراطورية الرومانية في أوروبة الوسطى تثير قلق الإمبراطور فيليب العربي، لذلك قاد الجيش بنفسه لمحاربة تلك القبائل في عام ٢٤٥م و ٢٤٦م(٤٣). واستطاع أن ينتصر على تلك القبائل المهاجمة والزاحفة إلى حدود الإمبراطورية الرومانية في أوروبة الوسطى(٤٤).

وكانت الانتصارات الرائعة التي حققها الإمبراطور فيليب العربي على أعداء الإمبراطورية الرومانية في الداخل والخارج، قد تركت أطيب الأثر في نفوس أعضاء مجلس الشيوخ بشكل خاص والشعب الروماني بشكل عام. ومنحته هذه الانتصارات عدة ألقاب منها: لقب (غازي الجرمان Maximus Germanicus)، ولقب: (غازي الكاربيين Maximus Carpicus).

بعد عودة الإمبراطور فيليب العربي من ساحات القتال في أوروبة الوسطى إلى العاصمة روما، احتفلت روما بتلك الانتصارات الهامة، وفرح الشعب الروماني فرحاً عظيماً، ففي الحادي والعشرين من نيسان عام ٢٤٨م، أعلن الإمبراطور فيليب العربي عن الاحتفال بذكرى مرور ألف عام على بناء مدينة روما(٤٥)، وكان هذا الاحتفال حدثاً تاريخياً هاماً، لتلبية متطلبات المجتمع الروماني من مناسبات تبعث في نفوسهم الفرح السرور والذكريات السعيدة(٤٦).

لقد أشار عدد من المؤرخين إلى أهمية تلك الأفراح الناتجة عن حسن إعداد أجمل الألعاب المختلفة[٤٧]، وحفلات الرقص والموسيقى وصراع الحيوانات المختلفة التي ذكروا أعدادها بالتفصيل (عشرة أسود، وعشرة نمور، وعشرة ضباع، وعشر زرافات، وعشرة أفراس نهر، وعشرين كركدن، وعشرين فهداً، وعشرين حماراً وحشياً...) وغيرها من التفاصيل التي تحدث عنها المؤرخ (جوليوس كابيتولينوس Gulius Capitnus) وأهميتها في ملعب (سيرك مكسيموس Cirxus Maximus).

وكان من أهم مظاهر تلك الاحتفالات المتميزة إحياء الألعاب الرياضية الكبرى، التي كان من عادة قدماء الرومان إحياؤها كل مائة عام، لأنها تثير الفرح والغبطة في نفوس مشاهدي تلك الألعاب الرياضية التي أتيحت لهم فرصة مشاهدتها، في حين أن غيرهم لم تتح لهم فرصة مشاهدتها، لأن عمرهم لم يمتد بهم إلى وقت موعد الاحتفال بذكرى مرور ألف عام على تأسيس روما في عهد الإمبراطور فيليب العربي، واعتبر المؤرخون أن هذا الاحتفال حدث تاريخي مميز[٤٨].

لقد بهرت عظمة الاستعراضات والحفلات التي أقامها فيليب أعين الناس، وانصرف الأتقياء الورعون إلى ممارسة الطقوس الخرافية، بينما تدبرت القلة المذكورة في عقولها ماضي الإمبراطورية ومستقبلها[٤٩].

الإمبراطور فيليب العربي والمسيحية:

لقد عانت المسيحية والمسيحيون من الاضطهاد حوالي قرنين ونصف في عهود عدد من الأباطرة لاسيما في عهد الإمبراطور نيرون (٥٤-٦٨م)؛ الذي اتهم المسيحيين بحريق روما، وتراجان (٩٨-١١٧م)، الذي اضطهد المسيحيين، ومكسيمينوس التراقي ٢٣٥-٢٣٨م)، الذي اتهم رجال الكنيسة بإبعاد الرومان عن ديانتهم الوطنية... كل ذلك جعل قدماء المسيحيين يمارسون عبادتهم في الكهوف، والمغاور في جوّ من الخوف والاضطهاد، إلى أن اعتلى الإمبراطور فيليب العربي عرش الإمبراطورية

الرومانية عام ٢٤٤[٥٠]، حيث شهدت المسيحية في عهده التسامح الديني، وتمتّع المسيحيون بالحماية... مما جعل المؤرخين أمثال أوسوبيوس القيصري توما... يقولون بأن فيليب العربي كان مسيحياً. وقد أكد ذلك المؤرخ الكنسي أوسوبيوس معتمداً على أقوال دونيس الاسكندري[٥١].

في حين أن عدداً كبيراً من المؤرخين يشكّون في صحة اعتناق الإمبراطور فيليب العربي للديانة المسيحية معتمدين في ذلك على ما يلي:

١- استمرار تمسك الإمبراطور فيليب العربي بالدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية.

٢- أصدر الإمبراطور فيليب العربي أمره بتأليه أبيه جوليوس مارينوس ورفعه إلى مرتبة الآلهة كعادة الرومان المتعلقة بتعظيم عظمائهم، حيث تبدو على الميدالية صورة والد الإمبراطور فيليب العربي يوليوس مارينوس، وهي تحمل ملامح رجل كهل جميل الصورة والوقار، وتحيط بصورته على الميدالية كتابة تتضمن عبارة مارينوس المؤلّه، كما يوجد نسر كبير باسطاً جناحيه يرفع صورة الأب يوليوس مارينوس إلى مصاف الأرباب، وعلى ظهر الميدالية توجد صورة الربة (روما) تحيط بها عبارة "المستعمرة فيليبوبوليس".

على الرغم من أنه ليست هناك أية وثيقة تؤكد بأن فيليب العربي كان مسيحياً، إلا أن هناك من يرى بأن الإمبراطور فيليب العربي رغم أنه لم يعتنق المسيحية، فقد خدم المسيحية أكثر مما لو كان مسيحياً ومن هذه الخدمات نجد:

آ- تأثره بعادات مجتمعه وبيئته وأخلاقية شعبه ولاسيما فكرة التسامح.

ب- من المحتمل أن يكون الإمبراطور فيليب العربي قد أدرك بذكائه مستقبل المسيحية، وبعدما رأى وسمع الكثير عن تضحيات القديسين والقديسات.

ج- كان الإمبراطور فيليب العربي يتقرّب من المسيحيين، ويتبـــادل هـو وزوجتـه الرسائل مع أُوريْجنس Origenes (١٨٥-٢٥٤م)، الذي تحدث عن عـهد فيليـب العربي وملاحقة السلطة للمسيحيين سابقاً.

د - إن المسيحية ديانة شرقية نشأت في بيئته وبلاده، لذلك فازت بعطفه وحمايته(٥٢).

رغم ذلك، لم يكن الرومان بشكل عام متعصبين لأية ديانة، ولم يكونوا ضد أية ديانـة لا تثير قلقهم، ولا تشكل خطراً على كيانهم السياسي. إلا أنهم كانوا عالم حاقد علـى المسيحية في تلك الفترة، حيث.عاش المسيحيون بسلام في عهد الإمـبراطور فيليـب العربي(٥٣).

لقد اعتبر بعض آباء الكنيسة ومنهم القديس جيروم المشهور، أن فيليب العربي كـان أول إمبراطور مسيحي، حرّر المسيحيين من الظلم والاضطهاد وأعاد إليهم حريتـهم واعتبارهم وأملاكهم، بحيث لا يُنسَب لك فقط إلى الإمبراطور قسطنطين الأول الـذي أتى بعد هذا الزمن بفترة طويلة(٥٤).

ظهور الفتن وموت الإمبراطور فيليب العربي:

شهدت الإمبراطورية الرومانية في القــرن الثـالث الميـلادي موجـة مـن الفتـن والاضطرابات جعلت الإمبراطور فيليب العربي يفكر جدياً بطرق تثبيت دعائم الحكم، حتى يعم الاستقرار والازدهار الاقتصادي كافة أنحاء الإمبراطورية، ويحلم بتأسـيس سلالة إمبراطورية، فعمل على القضاء على الوشـاة والجواسـيس، الذيـن أقامـهم ماكسيمان من قبله، وأصلح طرق الإمبراطورية، وعفى عن المبعدين، ورفـع الظلـم والاضطهاد عن المسيحيين، وأظهر كثيراً من الاحترام والعطف تجاه مجلس الشـيوخ والشعب.

رغم ذلك بدأت الفتن والاضطرابات بالظهور من جديد خلال الفترة الأخيرة من عهد الإمبراطور فيليب العربي، وقد تزايدت أعمال التمرد في صفوف الجنود في مناطق الدانوب، ثم امتد التمرد إلى إيطالية(٥٥)، ووصل الوضع إلى درجة من الخطورة جعلت بعض المتمردين يستعينون بأعداء روما من عناصر قبائل القوطيين المتوحشين ضد الإمبراطورية الرومانية، والعرش الروماني.

بعد ذلك نادى أولئك الجنود المتمردون بأحد ضباطهم الصغار المدعو تيبريوس كلوديوس مارينوس باكانيانوس وأعلنوه إمبراطوراً(٥٦)، دون أن يشعروا بأية مسؤولية قد تنتج عن عدم انضباطهم وسوء تصرفهم من أخطار تهدّد البلاد، والمواطنين والاقتصاد الوطني. وعندما سمع مجلس الشيوخ في روما بأنباء تلك الفتن والاضطرابات وأعمال التمرد، وتعاون المتمردين مع أعداء روما، تأثراً كثيراً وأدرك الأخطار الجسيمة الناجمة عن تلك الفتن والاضطرابات وأثرها الخطير على البلاد، والاقتصاد والمواطنين... لذلك وقف القائد دوكيوس منددا بشدة بسوء تصرفات مارينوس، ومؤكداً ضرورة قمع تلك الفتن والاضطرابات وأعمال التمرد بالسرعة الممكنة وبالطريقة المناسبة.

لقد تنبأ دوكيوس بذكائه بأن مارينوس الذي نادى به المتمردون إمبراطوراً ستقضي عليه الفتنة نفسها التي أتت به إمبراطوراً.

وبالفعل تحقّقت تلك النبوءة حيث قضى المتمردون أنفسهم على مارينوس عام ٢٤٩، مما جعل الإمبراطور فيليب العربي يعجب بحكمة دوكيوس ورأيه الصائب، ورؤيته المستقبلية الحكيمة، لذلك اعتبره الرجل المناسب للقيام بمهمة التصدي للمتمردين، وإعادة النظام في صفوف جنود الجيش الروماني المرابط في مناطق الدانوب المضطربة.

لقد أرسل فيليب العربي أحسن قواده كفاءة وهو جايوس ميسيوس كونتوس تريانوس دوكيوس(٥٧) لقيادة الجيش الروماني، وعهد إليه بمهمة القضاء على الفتنة متمنياً له النجاح في تحقيق مهمته والتصدي لقبائل القوطيين المهاجمة.

هذا وقد نجح القائد دكيوس في صد قبائل القوط المهاجمة، ولكنه ما لبث أن وافق بسبب ضغط الجنود عليه في مناطق الدانوب المضطربة، على قبول المناداة به إمبراطوراً، وأن يستجيب لطلب أولئك الجنود أخيراً.

بعد ذلك بعث دوكيوس إلى الإمبراطور فيليب العربي كتاباً يؤكد فيه ولاءه له، ولكن الإمبراطور فقد ثقته به، وأصبح يشك به، ولم يصدق مضمون كتابة، الذي يؤكّد فيه ولاءه لفيليب العربي ولكن الإمبراطور اعتبره مجرد خداع(٥٨).

شعر الإمبراطور فيليب العربي بالأخطار المحدقة به وبالإمبراطورية الرومانية، لذلك سار بنفسه وقاد الجيش الروماني لقتال دوكيوس في موقع مدينة فيرونا عام ٢٤٩م. وبدأ القتال بين الطرفين عنيفاً، حيث بذل كل من الفريقين أقصى جهوده مدركاً بأن هذه المعركة بالنسبة إليه معركة حياة أو موت. وكان الإمبراطور فيليب العربي يقاتل بشجاعة وجرأة وإقدام لا مثيل لهما، مما جعل تلك المعركة تنتهي بموت الإمبراطور فيليب العربي بالقرب من مدينة /فيرونا/ عام ٢٤٩م.

أما خلفه، فكان ابن الإمبراطور فيليب الثاني، الذي لم يتفق المؤرخون حول مصيره حتى الآن، والذي أعده أبوه أحسن إعداد من أجل استمرار الحكم، وتثبيت دعائمه ومتابعة الاستقرار، والإصلاحيات التي بدأها، لذلك انقسم المؤرخون إلى فريقين: فريق اعتقد بأن الإمبراطور فيليب العربي قد ترك ابنه في روما وقاد جيشه متجهاً لقتال دوكيوس الإمبراطور المزيف والجنود الذين تمرّدوا معه على الإمبراطور فيليب العربي(٥٩). وبعد أن وصل نبأ موت فيليب العربي في معركة فيرونا الحاسمة إلى

روما، قام رجال الحرس الإمبراطوري بانقلابهم على الأسرة الحاكمة، وقتلوا فيليب العربي الثاني. وتخلصوا منه ومن أسرته الحاكمة.

وفريق آخر من المؤرخين اعتقدوا بأن الإمبراطور فيليب العربي قد اصطحب معه ابنه فيليب الثاني ليساعده في القضاء على خصمه دوكيوس والجنود المتمردين معه، حيث قتل هو وأبوه في معركة فيرونا الحاسمة، في بداية شهر تشرين الأول من عام ٢٤٩م[٦٠]. ولم يكن لفيليب الثاني من العمر إلا اثنتي عشرة سنة[٦١].

رأي المؤرخين في الإمبراطور فيليب العربي:

بعض المؤرخين استخدموا عبارات وأوصافا أطلقوها اعتباطا على شخصيات غير رومانية. كقولهم عن الإمبراطور فيليب العربي: بأنه ابن أحد قطاع الطرق، أو اتهامه باشتراكه في القضاء على حكم الإمبراطور الشاب جورديان الثالث وموته... أو انتقاده لأنه وقع معاهدة مع الفرس الساسانيين وتخليه عن أرمينية وبلاد الرافدين إلى شابور الأول[٦٢]. إلا أن المؤرخين الموضوعيين والمنصفين ذكروا الصفات الإيجابية التي كان يتمتع بها الإمبراطور فيليب العربي والتي كان من أهمها:

أ- اعتزازه بمجتمعه وبيئته، وحسن اهتمامه بقريته التي نشأ بها، حيث عبّر عن وفائه لها بإعمارها، كما أنه جعلها تحمل كل صفات المدينة الرومانية.

أراد فيليب أن يجعل منها مدينة عظيمة تنافس أعظم مدن الغرب لاسيما مدينة روما، نطلق عليها اسمه (فيليبوبوليس) أي مدينة فيليب، وأمر بتحسينها وتحصينها وبتشييد المباني المدنية والدينية: من معابد وملاعب وقصور وحمامات عامة وأقواس نصر. وللترفيه عن الشعب بنى فيها مسرحا ثم أمر ببناء سور يحيطها من جميع الجهات على شكل مربع وجعل له أربعة مداخل رئيسية في جهاتها الأربع. يتصل المدخل الجنوبي مع الشمالي بشارع رئيسي فرش بالبلاط الحجري، وكذلك يتصل المدخل الشرقي مع الغربي بشارع رئيسي اخر، ويتقاطع الشارعان في وسط المدينة ليشكلا

باباً رباعياً (باب مفترق الطرق أو التيرابيل) تحيط به ساحة عامة شبه بيضوية[٦٢]. وتم العثور على بقايا دار كبيرة ما زالت تحتفظ برسوم الفسيفساء الفنية التي تمثل ربة البحر تالاسا، وعرس أرديان والشاعر الموسيقاو أورفة، وأفروديت.

وإلى الغرب من الشارع الرئيسي توجد أجزاء مبنى شبيه ببناء القصور، يسميه أهالي شهبا باسم (الكلبية) وإلى يسار الكلبية يوجد ضريح آل فيليب العربي، وهو بناء صغير يشبه المعبد أمر ببناءه الإمبراطور فيليب من أجل تقديس ذكرى والده الذي وصل في تلك الفترة إلى مرتبة الإله[٦٣]. ولا تزال آثار هذه المدينة تشهد على عظمتها حتى يومنا هذا.

ب- جرأة الإمبراطور فيليب العربي وشجاعته.

جـ- حسن اختياره للعمل في الجيش كمهنة التزم بها حيث دخل الجيش مقاتلاً عادياً وظل يتدرج في المناصب العسكرية الرومانية حتى أصبح إمبراطورا وهذا دليل على ذكائه وشجاعته، وبذلك حقّق طموحاته التي خطط لها.

د - أخلاقه العالية وتربيته العسكرية وحبه للنظام والتقيّد به، ولهذا قام بإصلاحات عديدة لاسيما موقفه المتسامح مع الديانة المسيحية، وإعادة الهيبة إلى مجلس الشيوخ لشيوخ، وتطبيقه للقانون في جميع ولايات الإمبراطورية الرومانية.

وجدير بالذكر أن التزام الإمبراطور فيليب العربي بالنظام العام، جعل الجنود يتمرّدون عليه، وهم الذين اعتادوا على هذا الإمبراطور أو ذاك. لذلك كان فيليب العربي ضحية هؤلاء المتمردين بسبب تمسكه بالنظام العام الذي كان يعتبره أداة لكل تقدم واستقرار وازدهار في الإمبراطورية الرومانية المترامية الأطراف.

الخاتمة:

من خلال ما تقدم تبدو لنا دراسة الإمبراطور فيليب العربي هامة جداً، بسبب كثرة المنجزات التي حققها للإمبراطورية الرومانية لاسيما من النواحي: السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية، والدينية. كما أن دراسة هذا الإمبراطور العربي السوري، تظهر لنا دور سورية الهام والفعّال منذ العصر الروماني حيث أثر وتأثر العرب كثيراً بالحضارة الرومانية، رغم تعتيم أغلب المؤرخين على الدور السوري الهام في الحضارة الرومانية، سواء من الناحية السياسية، أو الاقتصادية، أو المعمارية...

وإذا كان الرومان قد احتلوا مصر وسورية ودمروا قرطاجة في الحرب البونية الثالثة ١٤٩-١٤٦ق. م وغيرها...، فإننا نجد أن العرب قد كانوا حضاريين حيث نشروا الحضارة في كل مكان وصلوا إليه، وخاصة الكتابة الأبجدية التي انتقلت عن طريق الكنعانيين (الفينيقيين بحسب التسمية الإغريقية) إلى أوروبة.

إن دراسة تاريخنا بشكل علمي وصحيح، تعتبر من إحدى أهم دعائم شعورنا بكياننا القومي، وشخصيتنا الحضارية لأن تاريخنا الحضاري قديم منذ عصور ما قبل التاريخ وما يزال مستمراً حتى الآن.

الحواشي

(١) **مجلة الحوليات الأثرية السورية**: المديرية العامة للآثار والمتحف المجلد الحادي عشر والثاني عشر العام ١٩٦١-١٩٦٢م، ص ١٧٠.

(٢) هورست كلينكل: **آثار سورية القديمة**- ترجمة قاسم طوير، ص ٨٦.

(٣) س. ي. كافاليف: **تاريخ الرومان**، لينغراد، ١٩٨٦، ص ٦٣٦.

(٤) بشير زهدي: **الإمبراطور فيليب العربي**، منشورات وزارة الثقافة دمشق ١٩٩٠، ص ٢٢.

(٥) **مجلة الحوليات الأثرية السورية**: المجلد الحادي عشر والثاني عشر، ص ١٧٠.

(٦) بشير زهدي: **الإمبراطور فيليب العربي**، ص ٢٣.

(٧) بهجت قبيسي: **الكنعانيون والآراميون العرب في الإمبراطورية الرومانية من القرن الأول ق. م. وحتى القرن الثالث ميلادي** - رسالة ماجستير دمشق ١٩٩٤. (غير منشورة).

(٨) بشير زهدي: **الإمبراطور فيليب العربي**، ص ٢٤.

(٩) س. ي. كافاليف: **تاريخ الرومان**، ص ٦٣٦.

(١٠) م. رستوفتزف: **تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي، والاقتصادي** الجزء الأول. ترجمة زكي علي- مراجعة محمد سليم سالم. مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧.

(١١) مجلة الحوليات الأثرية السورية: المجلد الحادي عشر والثاني عشـــر، ص ١٧٠.

(12) M. Besnier, (Paris 1973), 153.
(13) Calderini, I serveri, 150, and de Blois, Talanta 10/11 (1976 97), 14-18.
(14) J. Fimz, Honorific **Timles of Roman Milimory units in the 3rd** cenmury (Budapest 1983),178.
(15) X. Loriom, chronologie du Regne de Philippe Arabe (Berlin 1975)244 249.
(16) J.Fimz 3rd 178.

(١٧) تيودور ممزين- **تاريخ الرومان** الجزء الثاني موسكو، ١٩٣٦، ص ٥٥٢.

(18) X .**Loriom,les premieres ann** (Berlin 1975) 763 67.
(19) K. Krumbacher, Geschichte der byrantinischen **Littertur** (Munich 1897), 370 376.
(20)X. Loriom Les prmieres .
(21) A.T. Olmstead, the Mid third century of the christian Era, CP 37 (1942), 243.
(22)G. F. Hill, Catalogue of Greek coins in the British Museum: **Arabia, Mesopotamia, and Persia** (London 1922), Cix, 122FF.
(23) H. Pohlsander philip the Arab and christianity. Historia 29 (1980), 465. 73.
(24) I.shohid, Rome and the Arabs: A prolegomenon to the study of Byrantium and the Arabs (Washington 1984). 65 93.
The New Encyclopaedia Britannica Chicago 1985.2376.

(٢٥) س . ي. كافاليف: **تاريخ الرومان**، ص ٦٣٦.

(٢٦) بشير زهدي: **الإمبراطور فيليب العربي**، ص ٢٨.

(٢٧) فيليب حتي: **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين** -الجزء الأول ترجمــــة الدكتـــور جورج حداد وعبد الكريم رافق، ١٩٥٨، ص ٣٨٢.

(٢٨) س . ي. كافاليف: **تاريخ الرومان**، ص ٦٣٧.

(٢٩) سيد أحمد علي الناصري، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري- دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٥، ص ٣٦٣.

(٣٠) بشير زهدي: **المرجع السابق**، ص ٤٣.

(٣١) ن. آ. ماشكين - **تاريخ روما القديمة**، ص ٥٧٥.

(32) Damascus: Wroth. Catalogue of the Greec coins Galatia, Cappadocia. and Syria (London 1899) IXXV. 288-87.

(33) M. Rosenberger . 1977). 17-22.

(٣٤) بشير زهدي: **المرجع السابق**، ص ٣٥.

(٣٥) م. رستوفتزف: **تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي، والاقتصادي** الجزء الأول، ص ٥٤٣.

(٣٦) **مجلة الحوليات الأثرية السورية**: المجلد الحادي عشر والثاني عشر، ص ١٧٠.

(٣٧) بشير زهدي: **المرجع السابق**، ص ٣٨.

(٣٨) م. رستوفتزف: **تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي، والاقتصادي** الجزء الأول، ص ٥٧٠.

(٣٩) بشير زهدي: **المرجع السابق**، ص ٤١.

(٤٠) م. رستوفتزف: **تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي، والاقتصادي** الجزء الأول، ص ٥٤٢.

(٤١) **مجلة الحوليات الأثرية السورية**: المجلد الحادي عشر والثاني عشر، ص ١٧٠.

(٤٢) ن. ا. ماشكين **تاريخ روما القديمة**، ص ٥٧٥.

(٤٣) بشير زهدي: **المرجع السابق**، ص ٤٧.

(٤٤) م. رستوفتزف: **تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي، والاقتصادي** الجزء الأول، ص ٥٢٣.

(٤٥) إدوارد جيبون: **اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها**، ترجمة محمد سليم سالم، الجزء الأول لوزان، ١٧٨٧، ص ٢٢٦.

(٤٦) م. رستوفتزف: **المرجع السابق**، الجزء الأول، ص ٥٢٣.

(٤٧) بشير زهدي: **المرجع السابق**، ص ٥٠.

(٤٨) إدوارد جيبون: **المرجع السابق**، الجزء الأول، ص ٢٢٧.

(٤٩) س . ي. كافاليف: **المرجع السابق**، ص ٦٣٥.

(50) Stephenson, Op. Cit, P. 44 Bury, Op., P. 446.

(٥١) بشير زهدي: **المرجع السابق**، ص ٥٤.

(52) The New Encyclopaedia Britannica (Chicago 1985), 376.

(٥٣) بشير زهدي: **المرجع السابق**، ص ٥٣.

(٥٤) **مجلة الحوليات الأثرية السورية**: المرجع السابق، ص ١٧١.

(٥٥) مكرر، ص ١٧١.

(٥٦) . رستوفتزف: **المرجع السابق**، ص ٥٢٣.

(٥٧) **مجلة الحوليات الأثرية السورية**: المرجع السابق، ص ١٧١.

(٥٨) ن. آ. ماشكين - **المرجع السابق**، ص ٥٣١.

(٥٩) **مجلة الحوليات الأثرية السورية**: المرجع السابق، ص ١٧١.

(٦٠) بشير زهدي: **المرجع السابق**، ص ٦٢.

(61) X. Lorion, les Premieres.

(٦٢) غالب عامر: **شهبا "فيليبوبوليس" مدينة الإمبراطور فيليب العربي**، منشورات المديرية العامة للآثار والمتاحف، دمشق ١٩٨٢، ص ٤.

(٦٣) هورست كلينكل: المرجع السابق، ص ٨٦.

سياسة الدولة الأموية
إزاء قبائل الجزيرة وأثرها

الدكتور محمد إحسان النص

سياسة الدولة الأموية إزاء قبائل الجزيرة وأثرها

الدكتور محمد إحسان النص

توطئة:

مواطن القبائل العربية في عصر بني أمية:

لكي نتبيّن صلة الدولة الأموية بالقبائل العربية إزاءها ينبغي أن نبيّن أولا مواطن القبائل العربية في ذلك العصر. وليس لدينا مرجع قديم يسعفنا في معرفة هذه المواطن. ولا مفرّ لنا من الاستعانة بشتى المراجع التي تحدثت عن قبائل الجزيرة العربية وبالمراجع التاريخية القديمة لنخرج بتصور تقريبي للمواطن التي استقرت بها تلك القبائل منذ أوائل العصر الأموي.

وقبل الشروع في بيان هذه المواطن ينبغي أن نذكر أن الجمهرة العظمى من قبائل العرب أخذت بالنزوح في مواطنها في الجزيرة إلى مواطن جديدة في البلاد التي فتحها المسلمون منذ عهد عمر بن الخطّاب. وهذا هو التحوّل الهام في الحياة القبلية منذ ظهور الإسلام. وبذلك انتقل مركز الثقل القبلي إلى الأمصار المحدثة بدلا من جزيرة العرب. فقد استقرّ جمهور القبائل اليمنية والعدنانية في الكوفة والبصرة وخراسان وبلاد الشام ومصر وبلاد المغرب والأندلس. ومن هنا نرى أن الدولة الأموية لم تعد تحفل كثيرا بالقبائل العربية التي بقيت في الجزيرة -باستثناء قريش- وغدا من همّها انتهاج سياسة تكفل لها طاعة القبائل ذات الوزن السياسي كالقبائل

القيسية واليمنية في بلاد الشام وقبائل الأزد وسائر اليمن وربيعة ومضر في بلاد العراق وخراسان وغيرها.

كان ثمة دوافع شتى وراء هجرة القبائل العربية من جزيرتها إلى المواطن المحدثة في الأقطار المفتوحة وفي مقدمتها نشر الدعوة المحمدية والجهاد في سبيل الله، وثمة دافع قوي هو الرغبة في الثراء والنزول في مواطن يتوافر فيها الماء والزرع ومختلف ألوان الطعام والشراب. أما القبائل التي اختارت البقاء في الجزيرة فقد آثرت ملازمة اوطانها واحتمال ما قد تتعرّض له من ندرة القوت والماء على مغادرة منازلها التي مازج حبها منها الدماء والنفوس، على قوة الإغراء بحيازة الأموال وتوافر الماء والطعام،، وعلى رغم حضّ الخلفاء الراشدين وعمّالهم القبائل العربية على الهجرة والنزوح من ديارهم في بلاد العرب إلى المواطن الجديدة. وقد ورد في خطبة لخالد بن الوليد ألقاها على المقاتلة من العرب بعد هزيمة الفرس يوم الولجة قوله: "ألا ترون إلى الطعام كرفغ التراب، وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في سبيل الله والدعاء إلى الله عزّ وجلّ ولم يكن إلاّ المعاش لكان الرأي أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به ونولّي الجوع والإقلال من تولاّه ممّن اثاقل عمّا أنتم عليه"(١).

أجل، لقد ارتضت القبائل التي أقامت في الجزيرة احتمال ندرة الأقوات والخيرات على مغادرة أوطانها ولم تغرها وفرة الأموال والسبي والخيرات بمفارقتها، على أن هؤلاء كانوا قلة قليلة بالقياس إلى القبائل التي نزحت عن ديارها.

ولكي نعيّن مواطن القبائل العربية في جزيرة العرب منذ مستهّل العصر الأموي نستعين بالمراجع القديمة التي تناولت القبائل قبل الإسلام(٢). فقد ظلت هذه القبائل بعد الإسلام بوجه عام، تلازم مواطنها التي كانت تستقر فيها قبل الإسلام، ولم يطرأ على خارطة التوزيع القبلي هذه تغير ذو شأن، إلا ما كان من هجرة طوائف من القبائل -ومنها قريش- إلى المدينة في زمن النبي عليه السلام.

استقرت طائفة من القبائل العدنانية والقحطانية في الحجاز وتهامة، فاستقرت قبيلة كنانة بتهامة، ونزلت قبيلة قريش في مكة وماوالاها والمدينة، ونزلت مزينة في جبل رضوى وقدس وآرة إلى الجنوب الغربي من المدينة المنورة، ودار هُذيل إلى الشرق من مكة، وفي شمالها في سراة الحجاز قبيلتا فهم وعدوان القيسيتان، ونزل بنو سُليم في حرتهم بين نجد والحجاز، وكان موطن ثقيف مدينة الطائف إلى الجنوب الشرقي من مكة، ونزلت قبيلة أشجع القيسية شرقي الحجاز في أدنى المواطن إلى نجد، ونزلت طوائف أخرى من هوزان ما بين غور تهامة إلى ماوالى بيشة وناحية السراة وحنين وأوطاس.

ومن القبائل اليمانية التي استطونت الحجاز قبيلتا الأوس والخزرج في المدينة ومنذ الإسلام غلب عليهما لقب الأنصار، ونزلت معهما منذ الهجرة النبوية طوائف من قبائل شتى أهمها قبيلة قريش (المهاجرون). ونزلت بعض القبائل اليمانية كعُذرة وسعد هُزيم بوادي القرى وما حوله شمالي الحجاز، ونزلت بلَيّ بتهامة محاذية سيف البحر، ونزلت خزاعة تهامة شمالي مواطن كنانة وقرب مكة، ونزلت قبيلة بجيلة جنوبي الحجاز على مقربة من بيشة وتبالة.

أما نجد فكانت موطن طائفة من القبائل جلّها عدنانية، والقبيلة القحطانية التي استوطنتها هي قبيلة طيّيء، وكانت منازلها شمالي نجد في جبلي أجأ وسلى، وقد جاورتها من قبائل مضر أسد وغَطَفان (عبد الله بن غطفان وعبس وذبيان وأشجع)، وكانت منازل أشجع أدنى إلى الحجاز منها إلى نجد. واستقرت طوائف من قيس عيلان جنوبي نجد وامتدت منازلها جنوباً وغرباً وجلّها من بني عامر بن صعصعة من كلاب خاصة.

وفي اليمامة نزل بنو حنيفة وبطون من تميم، وامتدت منازل بني تميم حتى رمل يبرين. كما نزلت بطون أخرى من تميم في الحَزْن والدّهناء والصَّمان يجاورهم إلى

الشرق أقرباؤهم بنو ضبّة. ونزلت عبد القيس الربعية البحرين في حين نزلت قبائل بكر وعنزة أطراف العراق، دانية من الفرات[٣].

أما بلاد اليمن فكانت موطن جلّ القبائل القحطانية ومنها: همْدان والأشعر وكندة ومذْحج وحِمير. وكانت طوائف القبائل القحطانية قد نزحت إلى بلاد الشام، ومواطن أخرى منذ العصر الجاهلي، فنزحت قبائل الأزد إلى شمالي الجزيرة (يثرب) وشرقيها (عُمان). واستقرت جلّ قبائل قضاعة في بلاد الشام وكثرتها من قبيلة كلب.

تلك هي مواطن القبائل العربية قُبيل الإسلام وبُعيده، وهذا التوزيع القبلي تعرض لبعض التغيير منذ الفتوح الإسلامية، فقد خرجت قبائل كثيرة إلى مواطن جديدة في الأمصار المحدثة، فتناقص عدد القبائل العربية في الجزيرة تناقصاً كبيراً، ومن القبائل التي تضاءل عدد رجالها كثيراً في جزيرة العرب بعد الإسلام قبائل قيس عيلان وتميم وعبد القيس وبكر والأزد.

١- سياسة الدولة الأموية إزاء قبائل الجزيرة

١- سياسة بني أمية إزاء القبائل عامة:

منذ أن تولّى بنو أمية خلافة المسلمين أدركوا حقيقة هامة، تلك هي أنْ استقرار حكمهم رهن بانقياد قبائل العرب لهم ودخولها في طاعتهم، فعلىً أن قيام الدولة الإسلامية أضعف النظام القبلي الذي كان سائداً قبل قيامها، ومع أن الإسلام ألغى العصبية القبلية وجعل المسلمين جميعاً إخوة في دين واحد يضمّ شتاتهم ودولة واحدة تدين لها قبائل العرب كافة، لم تكن الأحوال عصرئذٍ تأذن بإلغاء النظام القبليّ وقطع الوشائج القبلية، فالقبيلة ظلت تؤلف وحدة اجتماعية لها كيانها المستقل في إطار الدولة الواحدة، وكان لا بدّ من أن يظل النظام القبلي سائداً حقبة من الزمن قبل أن يذوب ويتوارى في إطار مجتمع المدينة، فلم يكن ثمة بديل لهذا النظام في تلك الحقبة. وهكذا وجدنا عمر بن

الخطاب يقيم ديوان العطاء على الأساس القبلي، وكذلك كان ديوان الجند يقوم عليه فكانت كل قبيلة تتولى أمر مقاتلتها، وكان سيد القبيلة بمثابة القائد الحربي لها يندبها للقتال كلما دعت الحاجة إلى تجنيد الجند. بل إن التوزيع القبلي كان هو السائد لدى هجرة القبائل إلى الأمصار واستقرارها فيها، فكان لكل قبيلة خطتها التي تستقل بها، فلم يكن من المتاح عصرئذٍ دمج القبائل بعضها ببعض في البلد الواحد، فكذلك رأينا أنه لما مُصرت الكوفة سنة سبع عشرة جعلت خطط أهل اليمن في الجانب الشرقي منها وخطط العدنانية في الجانب الغربي(٤). جعلت قبائل الكوفة في بادئ الأمر أعشاراً تؤلف كل قبيلة أو كل زمرة قبلية منها عشراً، ثم جعلها سعد بن أبي وقاص أسباعاً، وجعلها زياد بعد ذلك أرباعاً. وكذلك جُعلت البصرة لدى تمصيرها سنة أربع عشرة للهجرة –أو بُعيد ذلك– أخماساً وفق الانتماءات القبلية(٥). وكان هذا التوزيع القبلي يساعد على تعبئة الجند عندما تدعو الحاجة.

كان لا بدّ –والأمر على ما بيّنا– من أن تنتهج الدولة الأموية سياسة ذكية إزاء قبائل العرب عامة توافق مصلحتها في استقرار السلطان في يدها، وكان معاوية المخطط الأول لهذه السياسة، وهي تقوم على أساس المصلحة السياسية وحدها، ومرتكزاتها الأساسية اصطناع رؤوس القبائل بالمال وبالمصاهرة في حالة السلم والبطش بلا هوادة وضرب القبائل بعضها ببعض حين تنشب الفتن والحروب.

أدرك معاوية بثاقب نظرته السياسية منذ أن كان والياً على بلاد الشام أنه بحاجة إلى تأييد قبائل الشام ومساندتها له،، فأصهر إلى قبيلة كلب اليمانية، وهي يومئذٍ أقوى قبائل الشام وأكثرها عدداً، فتزوج ميسون بنت بحدل الكلبية(٦)، وسيد كلب يومئذٍ حسان بن مالك ابن بَحدل، فأنجبت له ابنه يزيد. وكان لهذه المصاهرة أعظم الأثر في وقوف قبيلة كلب إلى جانب بني أمية إبان صراعها مع مخالفيها، ولولا تأييد قبيلة كلب لما استطاع بنو أمية التغلب على أعدائهم والثائرين عليهم.

وقد ظل معاوية يجري على هذه الخطة بعد توليه الخلافة سنة ٤١هـ، فلك يكن لبني أمية كثرة عددية تأذن لهم بالاعتماد على قوتهم الذاتية، ولم يكن لهم بد من الاستناد إلى دعم قبلي لتوطيد دعائم سلطانهم، فلجؤوا إلى مصاهرة قبائل الشام القوية، فأصهر معاوية -على ما بينا إلى قبيلة كلب بزواجه من ميسون بنت بحدل ثم تزوج كذلك نائلة بنت عُمارة الكلبية.

وقد جرى خلفاء بني أمية بعد معاوية على هذه الخطة في تألف القبائل من طريق المصاهرة، ولاسيما قبيلتا كلب وقيس عيلان، وهما أقوى قبائل الشام عصرئذ، فأصهر مروان بن الحكم إلى بني جناب الكلبيين بزواجه من ليلى بن زبّان[٧]، وأصهر إلى قبيلة بني كلاب القيسية بزواجه من قُطيّة بنت بشر بن عامر، وهي أم بشر بن مروان[٨]، وكذلك فعل ابنه عبد الملك بعده فأصهر إلى بني عبس القيسيين بزواجه أم الوليد بنت العباس العبسية[٩]، ثم جرى سائر خلفاء بني أمية على هذه الخطة. وقد أثمرت هذه الخطة ثمراتها فكانت القبيلة تساند الخليفة الذي أصهر إليها أو التي كانت أمه منها.

على أن الإصهار إلى إحدى القبائل كان ربما أدّى بالمقابل إلى تعصب الخليفة لقبيلة أصهاره وإيثارها على القبائل الأخرى بالولايات والهبات، فنسمع خالد بن يزيد يقول مثلاً:

أحبّ بني العوّام طُراً لحبّها ومن أجلها أحببتَ أخوالها كلبا[١٠]

وانحاز الوليد بن يزيد إلى أخواله من قيس عيلان -إذ كانت أمه من ثقيف- فتعصّب على اليمانية وبطش بزعمائهم[١١].

على أن المصاهرة لم تكن وحدها دافع الانحياز إلى قبيلة بعينها، وإنما كانت هناك في أغلب الأحوال دوافع سياسية أيضاً.

والمرتكز الثاني في سياسة بني أمية إزاء القبائل هو سياسة تألف رؤوس القبائل واصطناعها اجتلاباً لولائها ومساندتها. فكانوا يغدقون المال والهبات على أسياد القبائل ويقرّبونهم منها ويُعلون منزلتهم، وقد يولّونهم الولايات تألُّفاً لهم. ومن ذلك أنه بعد توقف الحرب بين قيس وتغلب بالجزيرة قرّب عبد الملك بن مروان زفر بن الحارث الكلابي، سيد القيسية، وأجلسه إلى جواره على سريره تألُّفاً له وللقيسية، وكانوا قوة لا يُستهان بها في بلاد الشام، وقد غاظ صنيعه هذا الأخطل شاعر تغلب، فأنكر على عبد الملك تقريبه إياه وذكّره بقولة زفر المشهورة:

فقد ينبت المرعى على دِمن الثرى وتبقى حزازات الصدور كما هيا

فلما سمع عبد الملك البيت لم يتمالك نفسه من ضرب زفر برجله وإلقائه عن سريره وقال: أذهب الله حزازات تلك الصدور(١٢).

والمرتكز الثالث هو اللجوء إلى سياسة ضرب القبائل بعضها ببعض حين تثور الفتن وتضطرب أمور الدولة ويتعرّض سلطانهم للخطر، وحين كانت القبائل تشق عصا الطاعة عليهم، ويصدق على هذه الخطة مبدأ "فرّق تسُد". وقد اتبع ملوك بني أمية وولاتهم هذه الخطة أكثر من مرة. ولاسيما في مستهلّ حكمهم. وممن لجأ أليها زياد بن أبي سفيان حين تولّى إمارة العراق، بل إنه لجأ إليها منذ أيام علي بن أبي طالب، فقد أشار على ابن عباس بذلك حين استشاره في أمر القبائل واضطراب الأمور فقال له: "اضرب من عصاك بمن أطاعك". فلما ولّي زياد البصرة بعد ابن عباس اتبّع هذه الخطة عينها، وعلم ابن عباس حينئذٍ أن زياداً محضه النصيحة حين أشار عليه بهذا الرأي(١٣). ولجأ زياد إلى هذه الخطة أيضاً إبّان فتنة ابن الحضرمي سنة ٣٨هـ(١٤).

وسار على هذه الخطة كذلك عبد الملك بن مروان حين كانت الأمور مضطربة في الشام والعراق، وفقد غضّ الطرف عن الفتن التي نشبت بالجزيرة بين قيس عيلان

وكلب ثم بين قيس عيلان وتغلب، ولم يحاول إصلاح ذات البين إلا بعد أن استقر الأمر في يده وقضى على مصعب بن الزبير في العراق.

وسلك أخوه بشر بن مروان خطة إثارة العصبيات القبلية حين ولاّه عبد الملك إمارة الكوفة ولكن من طريق آخر هو إغراء الشعراء بعضهم ببعض وإثارة العداوة بينهم. كان الشاعر يأتيه فيطلب إليه هجاء شاعر آخر. ثم يبادر بإرسال القصيدة إلى الشاعر المهجوّ ويطلب إليه نقضها وهذا تثور العداوة بين الشاعرين ويستحرّ الشاعر التهاجي بينهما وينشر كل منهما مخازي قبيلة خصمه، فتثور الأحقاد والعداوات بين الحييّن. وبشر هو الذي أثار التهاجي بين جرير والأخطل[١٥]، وبين جرير وسُراقة البارقي[١٦]، وكان يحلو لخلفاء بني أمية أحياناً التحريش بين أشراف القبائل فيقوم التفاخر بينهم بدافع العصبية. دخل عياش بن الزبرقان التميمي على عبد الملك يوماً وعنده روح بن زنباع الجذامي، فقال عبد الملك لعياش: يا عياش، أما ترى هذا اليماني يفخر عليك بملوك اليمن! فما لبث أن لجّ التفاخر بين الرجلين وتعصب كل منهما لقومه[١٧].

والمرتكز الرابع في السياسة الأموية إزاء قبائل العرب هو اللجوء إلى البطش والشدة حين تشقّ إحدى القبائل عصا الطاعة عليهم وتأبى الانقياد لسلطانهم، فصالح الدولة فوق أي اعتبار آخر. فكذلك نرى أن معاوية، مع ما عُرف به من الحلم وإيثار اللين على البطش، يولّي زياداً العراق فيجنح إلى البطش والشدة ليقمع الفتن في العراق ويحمل قبائلها على الطاعة لبني أمية، فكان معاوية يتبع سياسة الملاينة في كان واليه زياد يجنح إلى العنف والبطش، وحين أنكر زياد على معاوية جنوحه إلى التسامح والملاينة أجابه معاوية بقوله: "لا ينبغي لنا أن نسوس الناس بسياسة واحدة فيكون مقامنا مقام رجل واحد، ولكن تكون أنت للشدة والغلظة، وأكون أنا للرأفة والرحمة، فيستريح الناس فيما بيننا"[١٨]. ومع ما عرف به معاوية من إيثار اللين والتسامح لم يتردد في قتل حجر بن عديّ حين وجد أن الحزم في قتله، درءاً لاتساع الفتنة[١٩].

وأذن لبسر بن أرطأة حين وجهه إلى المدينة ومكة أن يلجأ إلى الشدة والبطش فيقتل خلقاً كثيراً ممن أعان على قتل عثمان. وكذلك كان ولاة بني أمية لا يترددون في أخذ القوم بالشدة والعنف حين يخلعون طاعة بني أمية، وكان أشدهم في ذلك الولاة الثقفيين: زياداً وابنه عُبيد الله والحجاج بن يوسف ويوسف بن عمر.

تلك هي مرتكزات السياسة الأموية إزاء القبائل عامة، وسنقف الآن عند سياسة بني أمية إزاء قبائل الجزيرة خاصة.

٢- سياسة بني أمية إزاء قبائل الجزيرة:

آ- بنو أمية وقريش في الحجاز:

لقريش خصوصية ليست لغيرها من القبائل. فهي قبيلة الرسول عليه السلام، وإليها ينتمي الخلفاء الراشدون وبنو هاشم وبنو أمية. وقد استقر لدى جمهور المسلمين أن الخلافة ينبغي أن لا تخرج عن قريش. ومنذ أن حُسم النزاع حول خلافة رسول الله في سقيفة بني ساعدة لصالح المهاجرين انتقل النزاع على الحكم إلى الدائرة القرشية، فتنازعت بطونها حول من هو أولى بالأمر. وقد حُلّ النزاع بادئ الأمر باللجوء إلى الرأي الغالب أو الشورى. فتولّى الخلافة أولاً أبو بكر وهو من بني تيم بن مرة، ثم تولاها عمر بن الخطاب وهو من بني عدي بن كعب، ثم صارت إلى عثمان وهو من بني أمية، وآلت آخر الأمر إلى علي بن أبي طالب الهاشمي النسب. ومنذ ذلك الحين برز على نحو واضح اتجاهات متعارضان: أحدهما يرى أن الأمر لا ينبغي أن يخرج عن بني هاشم، فآل البيت أحق بالخلافة من سائر بطون قريش للقرابة من رسول الله عليه السلام. وكان من الطبيعي أن يتجه أنصار هذا الرأي إلى علي بن أبي طالب وسلالته لأن الرسول عليه السلام لم يكن له أبناء يخلفونه، وتفضيل علي يقوم على كونه صهر رسول الله وابن عمه وعلى بلائه في الذود عن رسول الله ونصرته، وهذا قبل أن تبرز فكرة الوصي التي استند إليها جمهور الشيعة فيما بعد. والاتجاه الثاني

يقف إلى جانب معاوية والي الشام في إبائه مبايعة علي ومطالبته بدم عثمان ومعاقبة قتلته. وما لبث هذا الاتجاه أن تبلور في صورة حزب سياسي يناصر بني أمية ويؤيد صيرورة الأمر إليهم. وبعد مقتل علي وتنازل ابنه الحسن أجمع المسلمون على مبايعة معاوية عام ٤١هـ.

وما كاد الأمر يتم لمعاوية حتى جعل دمشق حاضرة لملكه وأخذ يهيئ الجو لجعل الخلافة وراثية في بني أمية ووقفاً عليهم وإلغاء مبدأ الشورى في اختيار خليفة المسلمين. ولم يكن يدور في خلد أشراف قريش أن الخلافة ستغدو وراثية بعد أن كانت شورية. ولم يسفر معاوية عن نيته إلا في أواخر عهده (سنة ٥٦هـ) حين وجد الأسباب مهيأة لجعل الخلافة بعده في ابنه يزيد، فأخذ يتألف رؤوس القبائل وأشرافها ويصطنعها بالمال والوعود، وأخيرا تم الأمر كما أراده ولم يخرج عنه إلا خمسة نفر هم: الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن عباس[٢٠].

وهنا نجد وثيقة هامة توضّح لنا خبرة معاوية السياسية وثاقب نظرته، فقد ترك لابنه يزيد وصية تبين له كيف ينبغي أن يتصرف إزاء هؤلاء الذين يتوقع أن يأبوا مبايعته، ويقول في عهده هذا: "... وإني لا أتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذي استتب لك إلا أربعة نفر من قريش: الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر. فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذته العبادة، وإذا لم يبق أحد غيره بايعك. وأما الحسين بن علي فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه، فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه، فإن له رحماً ماسة، وحقاً عظيماً. وأما ابن أبي بكر فرجل إن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثلهم، وليس له همة إلا في النساء واللهو. وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد، ويراوغك مراوغة الثعلب، فإذا أمكنته فرصة وثب، فذاك ابن الزبير، فإن هو فعلها بك فقدرت عليه فقطّعه إرباً إرباً"[٢١].

ذلك كان موقف معاوية ممن توقع خلافهم لابنه يزيد، وكانت سياسة معاوية طوال مدة خلافته سياسة تألف واسترضاء، ولكنه في الوقت نفسه كان حريصاً على إلهاء أشراف قريش وأبنائهم عن المشاركة في الحياة السياسية، فكان يغدق الأموال عليهم لينصرفوا إلى متع الحياة ولذائذها ويتجنبوا الخوض في أمور السياسة والحكم. وقد اتبع خلفاء بني أمية بعد معاوية هذه الخطة، ولكن كان بينهم بعض الاختلاف في إنفاذها، فكان بعضهم أميل إلى الأخذ بخطة العنف، شأن يزيد بن معاوية مثلاً. ومهما يكن من أمر يمكن القول إن معاوية كان واضع "استراتيجية" التعامل مع قبيلة قريش وأشراف "القبائل، وقد استطاع بحنكته السياسية تجنب الاصطدام بقريش طوال سني حكمه العشرين، وكان بعض أشراف قريش ينعمون في عهده بثراء يحسدهم عليه رجال القبائل الأخرى، وكانوا يقتنون العدد الوفير من العبيد والموالي، ويغشى بعضهم مجالس الغناء في مكة والمدينة.

وفي صدر العصر الأموي كانت طوائف من قريش قد استقرت في الأمصار، ولكن جمهرتها ظلت مقيمة في الحجاز: في مكة والمدينة والطائف. وقد ظل بنو أمية مقيمين في الحجاز إلى أن أخرجهم منها عبد الله بن الزبير حين خلع طاعة بني أمية، فتوجهوا إلى الشام واستقروا فيها، وكان صنيع ابن الزبير خطأً سياسياً جسيماً لأنه أتاح لهم اجتماع كلمتهم على مروان بن الحكم[٢٢].

وقد حرص خلفاء بني أمية بعد معاوية على صرف القريشيين في الحجاز وغيره عن الاشتغال بالسياسة بالوسائل التي ذكرناها، فكانوا يغدقون المال على أشراف قريش ويولّونهم الولايات ليشغلوهم عن معارضة حكمهم. إلا أن معاوية كان يختار ولاة الحجاز من بني أمية ليطمئن إلى ولائهم، وممن ولاهم على مدن الحجاز مروان بن الحكم، وخالد بن العاص، وسعيد بن العاص، والوليد بن عتبة بن أبي سفيان[٢٣]. فلم يولّ طوال مدة حكمه مكة والمدينة إلا ولاة من بني أمية.

•قد سار عبد الملك بن مروان على خطة معاوية في اختيار عماله على مكة والمدينة من بني أمية، إلا أنه خالف هذه السنة في بعض الأحيان فولّى الحجاج بن يوسف على مكة والمدينة بعد قضائه على عبد الله بن الزبير سنة ٧٣هـ[٢٤]، وولى هشام بن اسماعيل المخزومي المدينة سنة ٨٢هـ[٢٥].

وقد سار بنو أمية على خطة التألّف والاسترضاء إزاء شعراء قريش في الحجاز ليلهوهم عن قول الشعر السياسي ومعارضة حكمهم، فانصرف جلّهم إلى اللهو والتغزل بالنساء، صنيع عمر بن أبي ربيعة والعرجيّ والحارث بن خالد المخزومي، وحين وقف عبيد الله بن قيس الرقيّات، وهو من بني معيص بن عامر بن لؤي، إلى جانب مصعب بن الزبير وقال فيه أماديحه الرائعة سخط عليه عبد الملك وطارده فاضطر إلى الاستخفاء ولم يجد بداً آخر الأمر من التماس عفوْ الملك، فلجأ إلى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فاستأمن له عبد الملك ، فوفد إليه ابن الرقيات وأنشده قصيدته في مدحه التي يقول فيها:

يعتدل التاجُ فوق مُفرقه ... على جبين كأنه الذهبُ

فيغضب عبد الملك ويقول له: "يا بن قيس، تمدحني بالتاج كأنني من العجم وتقول في مصعب:

إنما مصعب شهابٌ من اللـ ... ـه تجلّت عن وجهه الظلماءُ

ملكُه ملك عزة ليس فيه ... جبروت ولا به كبرياء

أما الآن فقد سبق لك، ولكن والله لا تأخذ مع المسلمين عطاء أبداً"[٢٦].

بيد أن بني أمية ما كانوا يترددون في انتهاج خطة البطش وسفك الدماء إزاء قريش في الحجاز حين يجنح بعض رجالها إلى خلع طاعتهم -وذلك هو المرتكز الثاني في

سياسة بني أمية كما قدّمنا- وقد رأينا معاوية يوصي ابنه يزيد بتقطيع عبد الله بن الزبير إرباً إرباً إذ ظفر به.

أول معارضة لحكم بني أمية قام بها القرشيون في الحجاز كانت ثورة الحسين بن علي، فقد كاتبه أهل الكوفة ودعوه أن يقدم عليهم ليناهضوا بني أمية معه، فأرسل إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل ليقف على أخبارهم ويتحقق من اجتماع كلمتهم وصحة عزيمتهم، فقدم الكوفة ونزل دار هانئ بن عروة المرادي، فاختلفت إليه الشيعة تبايع للحسين، فلما بلغ النبأ يزيد عزل عامله على الكوفة النعمان بن بشير وضمّ ولاية الكوفة إلى عبيد الله بن زياد مع البصرة، فقدم ابن زياد واحتال في صرف أهل الكوفة عن ابن عقيل ثم ظفر به وقتله. وكان ابن عقيل قد أرسل إلى الحسين كتاباً يبلغه فيه أن الكوفة قد بايعوه ويدعوه إلى القدوم عليهم، فقدم الحسين بمن معه من آل بيته وأنصاره سنة ٦١هـ، فوجّه إليه ابن زياد عمر بن سعد بن أبي وقّاص وأمره ألاّ يمكّنه من الرجوع إلى المدينة وأن يطلب منه النزول على حكم يزيد، ولم يكن ليزيد حلم أبيه ولا ثاقب نظرته السياسية فلم يعمل بوصاة أبيه إذ أوصاه بالحسين خيراً لما بينهما من صلة الرحم وإنما اتبع خطة البطش والتنكيل، وانتهى الأمر بمصرع الحسين ومن معه سنة ٦١هـ وبعث ابن زياد برأسه إلى الشام[٢٧]. وكان قتل الحسين ووقعة الحرة من أشد ما أنكره المسلمون على يزيد.

ومنذ ذلك الحين سار بنو أمية على خطة البطش وسفك الدماء إزاء بني هاشم كلما خلع أحدهم طاعتهم، لأنهم رأوا فيهم أخطر منافس لهم على الحكم، فلما ثار زيد بن علي سنة ١٢٢هـ بالكوفة قتله يوسف بن عمر وصلبه ثم ثار ابنه يحيى بخراسان سنة ١٢٥ وانتهى أمره بالقتل وكذلك باءت ثورة عبيد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر سنة ١٢٧ هـ بالإخفاق فسجن ومات في سجنه[٢٨]. على أنه منذ مقتل الحسين بن علي لم يقم بنو هاشم المستقرون في الحجاز بأي ثورة على بني أمية حتى قيام الدولة العباسية.

والثورة الثانية التي قام بها القرشيون في الحجاز على بني أمية كانت ثورة عبد الله بن الزبير. كان ابن الزبير قد اعتصم بمكة ولازم البيت الحرام وأطلق على نفسه لقب "العائذ"، وكانت نفسه تحدثه منذ وفاة معاوية بالدعوة إلى نفسه، ولكنه كان يعلم أن أهل الحجاز لم يكونوا ليبايعوه والحسين على قيد الحياة.

وكان على المدينة يومئذٍ الوليد بن عتبة، فعزله يزيد وولّى مكانه عمرو بن سعيد بن العاص المعروف بالأشدق سنة ٦٠هـ وأمره بقتال ابن الزبير، فوجّه عمرو بن سعيد عمرو بن الزبير إلى مكة لقتال أخيه عبد الله، وكان بين الأخوين عداوة شديدة، ولكن أنصار عبد الله هزموا جيش بني أمية وسجن عبد الله أخاه في سجن عارم[٢٩]، وحين بلغه مصرع الحسين سنة ٦١هـ خلت له الساحة فدعا إلى نفسه وبايعه أهل مكة.

وفي سنة ٦٣هـ يثور أهل المدينة ويخلعون طاعة يزيد ويخرجون عامله عليها عثمان بن محمد بن أبي سفيان، وبذلك تخرج مكة والمدينة عن طاعة بني أمية، فيبادر يزيد بإرسال جيش من أهل الشام عليه مسلم بن عقبة المُرّي لقتال الخارجين عليه في المدينة ومكة. وبعد أن فرغ مسلم بن عقبة من إخضاع أهل المدينة بعد أن أوقع بهم في وقعة الحرّة شخص إلى مكة لقتال ابن الزبير سنة ٦٤هـ، وقد رأينا معاوية يوصي ابنه يزيد إذا ظفر بابن الزبير أن يقطّعه إرباً إرباً. على أن مسلم بن عقبة كان مريضاً منذ أن قدم من الشام، فلما دنا من مكة أحسّ بدنوّ منيته فولّى مكانه على جيش أهل الشام الحُصين بن نُمير السكوني امتثالاً لأمر يزيد، وما لبث أن توفي، فقدم الحصين وجيش الشام على ابن الزبير مكة وقد بايعه أهلها وأهل الحجاز كافة، وقد وافى ابن الزبير نفر من أهل المدينة ممّن شهدوا وقعة الحرّة كما وافاه الخوارج وقاتلوا معه.

حاصر الحصين بن نمير عبد الله بن الزبير وأنصاره في مكة أربعة وستين يوماً ورموا البيت الحرام بالمجانيق وحرّقوه. وفي أثناء الحصار توفي يزيد بن معاوية في

ربيع الآخر من سنة ٦٤هـ، وقد ظل الحصين يقاتل ابن الزبير وأنصاره أربعين يوماً قبل أن يبلغه نبأ موت يزيد، وبلغ الخبر عبد الله بن الزبير قبله فأنبأه به فقفل راجعاً إلى الشام.

ويذكر الطبري أن الحصين بن نمير عرض على ابن الزبير أن يقدم معه الشام فإن أهلها سيبايعونه ولن يختلف عليه اثنان، ولكن ابن الزبير يأبى مغادرة مكة ثم يندم على تفويته هذه الفرصة(٣٠).

بعد وفاة يزيد ووفاة ابنه معاوية الثاني اضطربت الأمور في الشام وسائر الأمصار إذ لم يبقَ من أبناء يزيد من هو أهل لتولّي الخلافة. وأدّى هذا إلى انتقال الحكم من البيت السفياني إلى البيت المرواني فتولّى مروان بن الحكم الخلافة أواخر سنة ٦٤هـ. وفي عهده حدثت موقعة مرج راهط بين أنصار بني أمية –وجلّهم من اليمن– وأنصار ابن الزبير– وجلّهم من قيس عيلان– وانجلت الوقعة عن هزيمة أنصار ابن الزبير ومقتل قائدهم الضحّاك بن قيس الفهري، على أن سلطان ابن الزبير امتد فشمل الحجاز والعراق وخراسان ولم يبقَ في يد بني أمية إلا الشام.

ولما آلت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان سنة ٦٥هـ، واستتبت له الأمور في الشام بعد قتله عمرو بن سعيد الأشدق لم يكن له همّ إلا القضاء على عبد الله بن الزبير. وقد بدأ بمصعب بن الزبير والي العراق فاستطاع بدهائه أن يستميل إليه رؤوس قبائل العراق بالمال والوعود بالتأمير تارة وبالتهديد والوعيد تارة أخرى، فانفضّ أكثرهم عن مصعب. وقدم عبد الملك لقتال مصعب سنة ٧١هـ، بعد أن استوثق من استمالة رؤوس القبائل، وقد طلب إليه بعض خلصائه أن يقيم في دمشق ويرسل إلى مصعب من يقاتله ولكنه أبى إلا الشخوص إليه بنفسه وعلّل ذلك بقول يدلّ على أن براعته السياسية وثاقب نظره إذ قال: "إنه لا يقوم بهذا الأمر إلا قرشي له رأي، ولعلي أبعث من له شجاعة ولا رأي له، وإني أجد نفسي أني بصير بالحرب،

شجاع بالسيف إن أُلجئت إلى ذلك؛ ومصعب في بيت شجاعة، أبوه أشجع قريش، وهو شجاع ولا علم له بالحرب ، يحبّ الخفض، ومعه من يخالفه ومعي من ينصح لي"[٣١].

وقد تحقق مصعب من الهزيمة حين تخلّى عنه أهل الكوفة وخذلوه، صنيعهم بالحسين قبله. ودارت الدائرة على مصعب في موقعة دير الجاثليق بمسكن سنة ٧١هـ، إذ انفضّ عنه رؤوس القبائل الذين كان عبد الملك قد وعدهم ومنّاهم، فقُتل مصعب وقتل قائده ابراهيم بن الأشتر ودانت العراق لعبد الملك[٣٢].

بعد مقتل مصعب وانقياد العراق وخراسان لعبد الملك لم يبقَ في يد ابن الزبير إلا الحجاز، فوجّه عبد الملك الحجاج بن يوسف في جيش كثيف من أهل الشام فحاصر ابن الزبير بمكة أواخر سنة ٧٢هـ، ودام الحصار ما يزيد على ستة أشهر ورمى الحجاج الكعبة بالمجانيق.. وأخذ أصحاب ابن الزبير ينفضّون عنه ويأتون الحجاج وقد أمنَهم، حتى لم يبقَ إلا قلة من أنصاره، وكان ممن فارقه ابناه حمزة وخُبيب، واستشار عبد الله أمه فأشارت عليه بالمضي في القتال، فالقتل خير له من أن يمكّن غلمان بني أمية من رقبته يتلعّبون بها. فخرج إلى القوم فقاتل حتى قُتل سنة ٧٣هـ، وبعث الحجاج برأسه إلى عبد الملك وبايع أهل الحجاز لعبد الملك[٣٣].

منذ مقتل عبد الله بن الزبير لم يقم القرشيون في الحجاز بأية ثورة ولم يشاركوا في أية فتنة حتى نهاية العصر الأموي، فقد يئس أشراف قريش الحجازيون من انتزاع الخلافة من أيدي بني أمية فأخلدوا إلى السكينة ولزموا الطاعة وانصرفوا عن معارضة بني أمية. ولكن بني هاشم المقيمون في العراق حاولوا -على ما بيّنا- القيام ببعض الثورات ولكنها انتهت كلها بالإخفاق إلى أن استطاع العباسيون الهاشميون إسقاط الحكم الأموي سنة ١٣٢هـ، وقنع القرشيون في الحجاز بالمشاركة في حركة الفتح التي نشطت منذ زمن الوليد بن عبد الملك.

٣- بنو أمية والأنصار في المدينة:

هاجرت منذ بداية حركة الفتح الإسلامي طوائف من الأنصار إلى الأمصار المحدثة - وإلى بلاد الشام خاصة- وظلت طوائف أخرى مقيمة في المدينة. وممن هاجر إلى الشام سيد الأنصار في صدر العصر الأموي النعمان بن بشير.

خرج الأمر من يد الأنصار، أوسهم وخزرجهم، إثر اجتماع السقيفة. ولم يعد لهم أمل في تولّي الخلافة وآل الأمر إلى قريش. وقد اضطر الأنصار إلى قبول الأمر الواقع وبايعوا لأبي بكر ثم لعمر ثم لعثمان. ولما نشبت الفتنة أيام عثمان وقفت جماعة قليلة من الأنصار إلى جانب عثمان. وحاول محمد بن مسلمة الأنصاري أن يردّ المصريين عنه. وممن كان هواه مع عثمان حسان بن ثابت شاعر الرسول عليه السلام وكعب بن مالك. وانحازت طائفة أخرى إلى صف الثائرين به وكان من أشد المحرضين عليه منهم عمرو بن حزم الأنصاري[٣٤]. ولما حصره القادمون من مصر في بيته تخلّى عنه الأنصار كما تخلى عنه كثرة المهاجرين. وقد لام حسان بن ثابت قومه بني النجار لامتناعهم من نصرته. ومن قوله في ذلك:

أوفت بنو عمرو بن عوف نَذرها ... وتلوّثت غدرا بنو النجار

ونسوا وصاةَ محمد في صهره ... وتبدّلوا بالعزّ دار بوار

أتركتموه مفردا بمضيعة ... تنتابه الغوغاء في الأمصار

لهفان يدعو غائثا أنصاره ... يا ويحكم يا معشر الأنصار[٣٥]

فلما قتل عثمان بايعت الأنصار عليّا إلا نفرا يسيرا منهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك ومسلمة بن مخلد وأبو سعيد الخدري ومحمد بن مسلمة والنعمان بن بشير وزيد

بن ثابت، وهؤلاء جميعاً كانوا من العثمانية[٣٦]. وأبى بنو أمية في المدينة كذلك مبايعته فمضى فريق منهم إلى الشام ولحق بمعاوية ومضى فريق آخر إلى مكة.

فلما كانت وقعة صفين (٣٦-٣٧هـ)، ظاهر أنصار المدينة علي بن أبي طالب وقاتلوا تحت لوائه معاوية وأهل الشام، ومن أبرز رجالهم يومئذٍ قيس بن سعد بن عُبادة الأنصاري. وظاهر أنصار الشام معاوية ومنهم الحجاج بن غزية الشاعر وسُبيع بن يزيد وعلقمة بن يزيد. وكان رأس الأنصار الذين أيدوا معاوية النعمان بن بشير، وكان من القوّاد الذين أرسلهم معاوية لقتال أهل العراق بعد التحكيم، وقد كوفئ على ولائه لمعاوية بتوليه الكوفة عام ٥٩هـ [٣٧]، وبعد مقتل علي وصيرورة الأمر إلى معاوية تلكأ أنصار المدينة عن مبايعته ثم ما لبثوا أن بايعوه واستطاع معاوية استمالة سيدهم قيس بن سعد، فصالحه وبايعه بعد أن استجاب معاوية لما طلبه[٣١].

ولم يبدِ الأنصار أي معارضة لحكم بني أمية طوال خلافة معاوية، وقد جرى معاوية على خطة المصانعة والتألّف إزاءهم، فلما جعل ولاية عهده لابنه يزيد سنة ٥٦هـ، أبدى الأنصار استياءهم كما أنكر ذلك المهاجرون في مكة، على أنهم لم يظهروا الخلاف على بني أمية إلا بعد وفاة معاوية سنة ٦٠هـ، وتولّى يزيد الخلافة.

وقد حاول يزيد استرضاءهم فعزل واليه على الحجاز عمرو بن سعيد الأشدق، وولّى مكانه الوليد بن عتبة ثم عزل الوليد وولّى مكانه عثمان بن محمد بن أبي سفيان، وكان فتى غُرّاً حدثاً لم تحنّكه التجارب. وقد أرسل إلى يزيد وفداً من أهل المدينة من الأنصار والمهاجرين فيهم عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري، فقدموا على يزيد سنة ٦٢هـ، فأكرمهم وأعظم جوائزهم، جرياً على خطة التألف التي سار عليها أبوه، ولكنهم ما كادوا يعودون إلى المدينة حتى أظهروا شتم يزيد وطعنوا في دينه وخلقه وأشهدوا الناس على خلعه، فتابعهم الناس وأخرجوا والي يزيد من المدينة وبايعوا عبد الله بن حنظلة وولّوه عليهم، ثم طاردوا بني أمية ومواليهم في المدينة. وكانوا نحو ألف

رجل -فخرجوا بجماعتهم ونزلوا دار مروان بن الحكم فحصرهم الناس فيها،فاستغاث بنو أمية بيزيد فلما بلغه الخبر تمثّل بقول الشاعر:

لقد بدّلوا الحلم الذي من سجيتي فبدّلت قومي غِلظةً بليان

ولم يرَ يزيد بعدئذٍ بُدّاً من اللجوء إلى القوة -عملاً بالخطة التي وضحناها قبل- فوجّه إليهم مسلم بن عُقبة المُرّي سنة ٦٣هـ، وهو يومئذٍ شيخ كبير فريسة للمرض، فندب أهل الشام لقتال الأنصار والمهاجرين في المدينة، ومكة.

توجّه مسلم بجيشه إلى الحجاز، وقد أمره يزيد أن يبدأ بدعوة القوم إلى الطاعة فإن أبوا فليقاتلهم وليستبح مدينتهم. فأقبل مسلم بالجيش فلما دنا منها أخرج أهلها بني أمية منها فلقوا ابن عقبة بوادي القرى. وقدم جيش أهل الشام فأتى المدينة من قبل الحرّة، وأنذر مسلم أهلها بالرجوع إلى الطاعة وأجّلهم ثلاثاً، فأبى الأنصار المهاجرون الدخول في طاعة يزيد، وكان على جماعتهم عبد الله بن حنظلة. وما لبث القتال أن نشب وانجلت المعركة عن مصرع عبد الله بن حنظلة وهزيمة أهل المدينة، وأباح ابن عقبة المدينة لجنده ثلاثة أيام يقتلون وينهبون، وقتل ابن عقبة صبراً نفراً من وجوه الأنصار وقريش(٣٩).

اضطر الأنصار في المدينة بعد أن وقع بهم يزيد يوم الحرّة إلى الدخول في طاعة بني أمية مكرهين وأخلدوا إلى السكينة، فلم يشاركوا في أي فتنة من الفتن التي تمخّض عنها عصر بني أمية بعدئذٍ. أما سيد أنصار الشام النعمان بن بشير فقد انحاز إلى عبد الله بن الزبير، وكان والياً على حمص، وتخلّى عن بني أمية، فلما انتهت وقعة مرج رهط سنة ٦٤هـ، بهزيمة أصحاب ابن الزبير ومصرع قائدهم الضحاك بن قيس فرّ

النعمان من حمص، فلحق به أحد الكلاعيين فقتله وبعث برأسه إلى مروان بن الحكم(٤٠).

٤- بنو أمية وسائر قبائل الجزيرة:

سار بني أمية إزاء سائر قبائل الجزيرة على الخطة عينها التي سلكوها إزاء قريش والأنصار، على أنهم لم يكونوا يعنون كثيراً برعاية هذه القبائل والاهتمام بشؤونها، وذلك أن عظّم قبائل الجزيرة كان قد نزح عن مواطنه فيها إلى مواطن جديدة في الأقطار المفتوحة، وكان الرسول عليه السلام وخلفاؤه وأمراؤهم وقادتهم لا يزالون يحضّون القبائل على الهجرة ويرغبّونها بما فيها من خيرات، على نحو ما ذكرنا آنفاً، فاندفعت هذه القبائل تغادر مواطنها في الجزيرة وتلتمس لها مواطن جديدة في الأقطار المفتوحة، يحدوها إلى ذلك الرغبة في حياة الرفاهية والنعمة، حيث يتوافر الماء والنبت والمراعي الخصبة والطعام الكثير والمناخ الطيب، وشارك أكثرهم في حركة الفتح إعلاءً لكلمة الله ورغبة في المغانم الوفرة، فلم يبقَ في الجزيرة إلا من يؤثر حياة البادية والتقشف على حياة الحضارة والرفاهية، ومن يتشبث بأرضه حباً بوطنه، وهم قلة. ولدينا مثال على مشهور على إيثار حياة البادية القشفة على حياة القصور والرفاهة ما قالته ميسون بنت بحدل، زوج معاوية وأم يزيد ابنه من أبيات تعبر فيها عن تشوقها إلى حياة البادية وإيثارها العيش في خباء تخفق فيه الريح على العيش في القصور الفخمة ومنها:

لَبيتٌ تخفقُ الأرواحُ فيه أحبّ إليّ من قصرٍ منيف

ولُبسُ عباءةٍ وتقَرَّ عيني أحبُّ إليّ من لُبس الشُفوفِ(٤١)

وقد اختار البقاء في جزيرة العرب بعض الشعراء المشهورين كجرير بن عطية الذي كان يقيم باليمامة ويختلف إلى البصرة، وكذي الرمة الذي كان مقيماً بالدهناء. وكان

هؤلاء الشعراء يقيمون بالبادية ويختلفون إلى الحواضر للامتياز أو لمديح الخلفاء والأمراء أو لإنشاد الشعر في الأسواق.

وكان المهاجرون من سكان البادية أكثر عدداً ممن هاجر إلى الحواضر من قاطني المدن والحواضر كمكة والمدينة والطائف واليمامة وحواضر اليمن، وذلك لخشونة الحياة في البادية وقلة خيراتها. وليس في وسع الباحث أن يعرف على وجه الدقة عدد من نزح من مختلف القبائل من ديارهم في الجزيرة إلى المواطن الجديدة، ولكننا حين نرجع إلى ما توافر لدينا من إحصاءات لأعداد القبائل التي نزلت الحواضر الشامية والعراقية وفي خراسان ومصر وغيرها يلفت نظرنا كثرة عددهم. وكان النازحون من قبائل قيس عيلان وتميم واليمن أكثر عدداً من سائر القبائل.

ولتقديم صورة تقريبية عن أعداد هؤلاء المهاجرين نستعين ببعض ما ورد في المصادر التاريخية القديمة من إحصاءات. فقد ذكروا مثلاً أن قتلى وقعة الجمل من أهل البصرة كانوا عشرة آلاف ومن أهل الكوفة خمسة آلاف[٤٢]. وأن عدد مقاتلة العرب الذين أعدّهم علي لقتال معاوية من سكان الكوفة وحدها بلغ سبعة وخمسين ألفاً، خلاف عدد الموالي[٤٣]. وأحصى ديوان الجند أيام ولاية زياد على العراق مقاتلة فبلغوا ثمانين ألفا وعيالهم مائة وعشرين ألفاً، وبلغ عدد مقاتلة الكوفة يومئذٍ ستين ألفاً وعيالهم ثمانين ألفاً[٤٤].

انتقل إذن مركز الثقل القبلي من العصر الأموي من الجزيرة إلى الأمصار المحدثة والأقطار المفتوحة، ولم يعد لقبائل الجزيرة وزن سياسي يُعتدّ به، باستثناء قبيلتي قريش والأنصار في مكة والمدينة، ولم يكن للقبائل التي استقرت في الجزيرة كبير خطر على الدولة الأموية، على نقيض قبائل العراق وخراسان، ولهذا لم تولِ الدولة الأموية كبير عناية لهذه القبائل، وكانت تختار ولاتها عليهم من الرجال الذين كانوا موضع ثقتها ولم تتعمد اختيارهم من بني أمية وحدهم، شأنها في الحجاز، وكثيراً ما

كانت هذه القبائل تتعرّض لعسف الولاة وجباة الخراج فتعلن استياءها وتذمّرها وتنكر على بني أمية سياستهم إزاءها وتتهمهم بالخروج عن كتاب الله وسنة نبيه. ومن هنا نجد بعض قبائل الجزيرة تشارك في الحركات السياسية المناهضة لبني أمية، ولاسيما في ثورات الخوارج، فكان بنو أمية يقمعون هذه الثورات بأشد العنف.

وأول ظهور للخوارج على مسرح الأحداث في الجزيرة كان عام ٦٤هـ، حين قدم الخوارج على عبد الله بن الزبير وقاتلوا معه الحصين بن نمير. وبعد رجوع جيش بني أمية إلى الشام إثر وفاة يزيد بن معاوية فارق الخوارج ابن الزبير لأنه لم يستجب لمطالبهم فصار أبو طالوت البكري وأبو فُديك عبد الله بن ثور، وهما من بني قيس بن وثعلبة البكريين، وعطية بن الأسود اليشكري، إلى اليمامة، فوثبوا بها وعليهم أبو طالوت، ثم أجمعوا بعد ذلك على نجدة بن عامر الحنفي(٤٥).

وفي سنة ٧٢هـ، غلب أبو فُديك على البحرين وقتل نجدة بن عامر، فوجّه إليه والي البصرة خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد -وكانت البحرين تتبع ولاية البصرة- أخاه أمية بن عبد الله في جند كثيف، ولكن أبا فديك يهزمه فيفرّ إلى البصرة(٤٦).

وفي سنة ٧٣هـ، وجه عبد الملك بن مروان عمر بن عبيد الله بن معمر لقتال أبي فُديك وأمره بأن يندب من شاء من أهل المصريين -البصرة والكوفة- فندب من أهلها عشرين ألفاً، فلما التقوا حاقت الهزيمة بالخوارج وقُتل أبو فُديك ونزل بالخوارج على حكم عمر بن عبيد الله فقتل منهم نحواً من ستة آلاف وأسر ثمانمائة(٤٧).

ظلّت قبائل الجزيرة بعد هذا بعيدة عن المشاركة في الأحداث السياسية التي شهدها العصر الأموي حتى أواخر عهد بني أمية. ففي سنة ثمان ومئة تحرك الخوارج الإباضية الذين كانوا يلتزمون الهدوء طوال العصر الأموي، فظهر عبد الله طالب الحق باليمن وقدم عليه أبو حمزة الخارجي وهو المختار بن عوف الأزدي من البصرة فبايعه على الخلافة ودعا إلى خلاف مروان وآل مروان.

ونجد في الأغاني تفصيل خبر عبد الله وأبي حمزة[٤٨]، وخلاصة ما ذكره أن عبد الله ابن يحيى الكندي كان من حضرموت، وكان مجتهداً عابداً، فلم يرضَ عما رآه في اليمن من جور عمّال بني أمية وعسفهم، فكاتب إباضية العراق، فشخص إليه أبو حمزة الخارجي وبلْج بن عقبة في رجال من الإباضية، فحثّوه على الخروج، فدعا إلى نفسه وبايعه أصحابه، فقصد دار الإمارة وعلى حضرموت إبراهيم بن جبلة الكندي فأخرجه منها. ثم قدم صنعاء وعليها القاسم بن عمر الثقفي فدارت الدائرة على جيش أهل الشام واليمن ودخل طالب الحق صنعاء واستولى على اليمن كلها. ووافته الشراة من كل جانب. فلما كان موسم الحج أرسل أبا حمزة وبلج بن عقبة وأبرهة بن الصبّاح إلى مكة، وعليها عبد الواحد بن سليمان، فدخلها بغير قتال. ثم مضى إلى المدينة وعليها عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز فلقيهم أهل المدينة بقُديد، وكثرتهم من قريش، فانتصر عليهم أبو حمزة، على قلة من معه، وقتل منهم مقتلة عظيمة. ودخل أبو حمزة المدينة فخطب على منبرها خطبة طويلة مشهورة حمل فيها على بني أمية وكان مما قاله فيهم" "فملكوا الأمر، وتسلّطوا فيه تسلّط ربوبية، بطشهم بطش الجبابرة، يحكمون بالهوى، ويقتلون على الغضب، ويأخذون بالظن، ويعطّلون الحدود بالشفاعات، ويؤمنون الخونة، ويُقصون ذوي الأمانة، ويأخذون الصدقة في غير وقتها على غير فرضها، ويضعونها في غير موضعها...".

فلما بلغ النبأ مروان بن محمد انتخب من عسكره أربعة آلاف وجعل عليهم عبد الملك بن عطية السعدي، وبعث أبو حمزة بلج بن عقبة في ستمئة رجل ليقاتل عبد الملك بن عطية وذلك سنة ١٣٠هـ، وقد أجلت الموقعة عن مصرع بلج وأكثر أصحابه، ورجع فلّهم إلى أبي حمزة.

ثم توجه عبد الملك إلى المدينة فلقيه أهلها جميعاً، وأبو حمزة مقيم بمكة، ثم قدم عبد الملك مكة، ودار القتال بيَن الفريقين فكان الظفر لجيش أهل الشام، وقتل أبو حمزة

وامرأته ومعظم أصحابه. وكانت تلك آخر ثورة يقوم بها خوارج الجزيرة في عصر بني أمية إذ ما لبثت الدولة الأموية أن سقطت سنة ١٣٢هـ.

تلك كانت سياسة بني أمية إزاء قبائل الجزيرة ونتائجها وآثارها في نشوب طائفة من الفتن وفي السخط على سياستهم التي تقوم على محاباة رؤساء القبائل وإهمال سواد الناس، وفي إيثار القريشيين على غيرهم من القبائل. وبعد إخفاق المحاولات التي قام بها القرشيون لانتزاع الحكم من أيدي بني أمية وإخفاق الأنصار في ثورتهم على يزيد لم تقم أي ثورة يعتدّ بها في الجزيرة، باستثناء ثورات الخوارج القليلة التي تحدثنا عنها. ولم يكن بنو أمية يسمحون لقبائل الجزيرة أو لمن يتحدثون باسمها بمعارضة حكمهم أو انتقاد سياستهم. ومن الأمثلة على المحاولات القليلة لتوجيه النقد إلى سياسة عمال بني أمية وجباتهم، قصيدة الراعي النميري الرائعة حين وفد على عبد الملك وشكا إليه عسف الولاة وسوء حال قبيلته والمظالم التي تعرضت لها، ومنها قوله:

أخليفةَ الرحمن إنا معشرٌ حنفاءُ نسجدُ بُكرةً وأصيلا

عربٌ نرى الله في أموالنا حقَّ الزكاة مُنزَّلاً تنزيلا

أخليفة الرحمن أنّ عشيرتي أمسى سَوامُهم عزين فُلولا

قطعوا اليمامةَ يُطردون كأنهم قومٌ أصابوا ظالمين قتيلا

وأتاهمْ بيحيى فشدّ عليهم عقداً يراه المسلمون ثقيلا

كتباً تركن غنيّهم ذا عيلة بعد الغنى وفقيرَهم مهزولا

أنت الخليفةُ عدلُه ونوالُهُ وإذا أردت لظالمٍ تنكيلا

فارفعْ مظالم عيّلت أبناءنا عنا وأنقذْ شلونا المأكولا

إن السُّعاة عصوك حين بعثتهم وأتوا دواهي لو علمت وغولا

أخذوا الكرام من العشار ظلامة منا ويكتب للأمير أفيلا

أخذوا العريف فشققوا حيزومه بالأصبحية قائماً مغلولا

وقد بسط الراعي المظالم التي تعرضت لها قبيلة نمير من قبل الجباة الذين كانوا يأخذون كرام الإبل ثم يكتبون في سجلهم أنهم من صغار الإبل، فإذا امتنع العرفاء من أداء ما على قومهم ضربوا بالسياط بلا هوادة.

وقد ختم الراعي قصيدته ببيت تشتم منه رائحة التهديد بجلاء قومه عن ديارهم فقال:

ولئن بقيت لأدعون بطعنة تدع الفرائض بالشريف قليلا

فلما سمع عبد الملك هذا البيت غضب أشد الغضب وطرد الراعي ولم يجبه إلى سؤاله ولم يحظ بشيء عنده. فلما كانت السنة التي تليها جاءه الراعي فأنشده قصيدة عرض فيها سوء حال قبيلته فلجأ إلى الملاينة ولم يجنح إلى التهديد بالجلاء. ومنها قوله:

أما الفقير الذي كانت حلوبته وفق العيال فلم يترك له سبد

واختل ذو المال والمثرون قد بقيت على التلاتل من أموالهم عقد

فإن رفعت بهم رأساً نعشتهم وإن لقوا مثلها من قابل فسدوا(٤٩)

هذه الصورة التي عرضها الراعي لحال قبيلته لا تصدق على بني نمير وحدهم وإنما تصدق على الكثرة من قبائل الجزيرة عصرئذ. وهي تعدّ وثيقة هامة في بيان ما كانت تتعرض له بعض قبائل الجزيرة من جور بعض الولاة وعسف الجباة وسوء أمانتهم ومن تقصير الخلفاء في رعاية أمورهم.

الهوامش

(١) تاريخ الطبري ٢/ ٥٥٩.

(٢) أهم المراجع التي استعنت بها في تعيين هذه المواطن هي: كتاب "معجم ما استعجم" للبكري، و"سيرة ابن هشام" و "معجم البلدان" لياقوت. و"صفة جزيرة العرب" للهمذاني، و"نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب" للقلقشندي، و"الأغاني" للأصفهاني. و"بلاد العرب" للحسن بن عبد الله الأصفهاني (لغدة)، و "أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع" لحمد الجاسر. و"الجبال والأمكنة والمياه" للزمخشري.

(٣) ينظر في تفصيل هذه المواطن كتابنا "زهير بن أبي سلمى" ص ١٨ وما بعدها.

(٤) **فتوح البلدان** للبلاذري ٢/٣٣٩.

(٥) يرجع في بيان خطط البصرة والكوفة إلى الجزء الثاني من **فتوح البلدان**، وإلى الجزء الثالث من **تاريخ الطبري**، وإلى كتاب "خطط الكوفة" لماسينيون.

(٦) انظر **تاريخ الطبري** ٧/٢٥٤.

(٧) **نسب قريش** لمصعب الزبيري، ص ١٦٠.

(٨) **نسب قريش**، ١٦٠.

(٩) **نسب قريش**، ص ١٦٢.

(١٠) **الكامل للمبرّد** ١/٣٠٢، **أنساب الأشراف للبلاذري** ٤/٦٦.

(١١) انظر **تاريخ الطبري** ٥/٥٤١.

(١٢) **الأغاني للأصفهاني** ٨/٢٩٦.

(١٣) **تهذيب تاريخ ابن عساكر لبدران** ٥/٤٠٨.

(١٤) انظر تفصيل الخبر في الطبري ٥/١١٠.

(١٥) انظر طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١/٤٤٠، **والأغاني** ٣/٣١٥.

(١٦) **طبقات ابن سلام** ١/٤٤٠، **الأغاني** ٨/٦٨، **أنساب الأشراف** ٥/١٧٤.

(١٧) **أنساب الأشراف** ١١/٢٥٤.

(١٨) **العقد الفريد** لابن عبد ربه ٥/١٠.

(١٩) انظر تفصيل **الخبر في الطبري** ٥/٢٥٣، وما بعدها.

(٢٠) **الطبري** ٥/٣٠١ وما بعدها.

(٢١) **تاريخ الطبري** ٥/٣٢٢، المعمّرون للسجستاني، ص ١٥٥، وللعهد رواية أخرى قريبة من هذه.

(٢٢) **الطبري** ٥/٥٣١.

(٢٣) انظر **الطبري** ٥/٢١١، ٢٩٢، ٣٠٨.

(٢٤) **الطبري** ٦/٢٠١.

(٢٥) **الطبري** ٦/٣٥٥.

(٢٦) **الأغاني** ٥/٧٨.

(٢٧) انظر تفصيل مقتل الحسين في **مقاتل الطالبيين**، ص ٧٨-١٢٢، **وفي تاريخ الطبري** ٥/٤٠٠-٤٧٠.

(٢٨) انظر تفصيل خبر مقتل زيد بن علي في **مقاتل الطالبيين**، ص ١٢٧-١٥١، وفي **تاريخ الطبري** ٧/١٨٠-١٩١.

(٢٩) **الطبري** ٥/٣٤٣.

(٣٠) **الطبري** ٥/٣٩٦ وما بعدها.

(٣١) **الطبري** ٦/١٥٧.

(٣٢) تفصيل **الخبر في الطبري** ٦/١٥١، وما بعدها.

(٣٣) تفصيل خبر مقتل ابن الزبير في **الطبري** ٦/١٨٧ وما بعدها.

(٣٤) **الطبري** ٤/٣٧٠.

(٣٥) ديوان حسان بن ثابت، **تحقيق فرحات** ١/٣١١.

(٣٦) **الطبري** ٤/٤٢٩.

(٣٧) يرجع في تفصيل أخبار وقعة صفين إلى كتاب "**وقعة صفين**" لنصر بن مزاحم وإلى تاريخ الطبري ٥/١٥ وما بعدها.

(٣٨) **الطبري** ٥/١٦٣.

(٣٩) **الطبري** ٥/٤٨٢ وما بعدها.

(٤٠) **الطبري** ٥/٥٣٩.

(٤١) **الأمالي الشجرية** ١/٢٨٠، **خزانة الأدب** ٣/٥٩٢.

(٤٢) **الطبري** ٤/٥٣٩.

(٤٣) **الطبري** ٥/٧٩.

(٤٤) **فتوح البلدان** ٢/٤٢٩.

(٤٥) **الطبري** ٥/٥٦٦.

(٤٦) **الطبري** ٦/١٧٤.

(٤٧) **الطبري** ٦/١٩٣.

(٤٨) انظر **الأغاني** ٢٣/٢٢٤ وما بعدها.

(٤٩) **ديوان الراعي النميري؛ جمهرة أشعار العرب** لأبي زيد القرشي، ص١٧٢، **طبقات ابن سلام** ١/٥٠٢.

* عزين ج عزة: الفرقة. العيلة: الفقر. الغول: الداهية والهلكة. الأفيل: الصغير من الإبل. الأصبحية: ضرب من السياط. الفرائض من الإبل والغنم: ما بلغ عدده حدّ الزكاة. الشُريف: منازل بني نمير من بلاد نجد. الحلوبة: الناقة ذات اللبن. وفق العيال: على قدر حاجتهم. لم يترك له سبد: لم يُترك له شيء. اختل: افتقر. التلاتل: الشدائد. العقد: البقايا القليلة.

مصادر البحث

١- إحسان النص، زهير بن أبي سلمى؛ دار الفكر، دمشق ١٩٨٥.

٢- الأصفهاني، أبو الفرج؛ الأغاني؛ ط. دار الكتب والهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة، ١٩٢٧، وما بعدها.

٣- الأصفهاني، أبو الفرج؛ مقاتل الطالبيين. تح: سيد صقر، القاهرة، ١٩٤٩م.

٤- البغدادي عبد القادر؛ خزانة الأدب، تح. عبد السلام هارون، القاهرة، ١٩٦٧م.

٥- البكري عبد الله بن عبد العزيز؛ معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تح: مصطفى السقا، القاهرة، ١٩٤٥م.

٦- البلاذري أحمد بن يحيى؛ فتوح البلدان، تح: صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٩٥٦م.

٧- ابن جرير الطبري؛ تاريخ الرسل والملوك، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٠، وما بعدها.

٨- حسان بن ثابت؛ ديوانه، تح: وليد عرفات، بيروت، ١٩٧٤.

٩- حمد الجاسر؛ أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع. الرياض ١٩٦٨.

١٠- الراعي النميري؛ ديوانه، تح: نوري القيسي وهلال ناجي، بغداد، ١٩٨٠.

١١- الزمخشري محمود بن عمر؛ الجبال والأمكنة والمياه. تح: إبراهيم السامرائي، بغداد، ١٩٦٨.

١٢- أبو زيد القرشي؛ جمهرة أشعار العرب، تح: محمد علي البجاوي، القـــاهرة، ١٩٦٧.

١٣- السجستاني أبو حاتم؛ المعمّرون ، مطبعة البابي الحلبي القاهرة.

١٤- ابن سلبام محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تح: محمود محمـــد شاكر، القاهرة، ١٩٧٤

١٥- ابن الشجري؛ **الأمالي**، طبعة حيدر أباد، ١٣٤٩هـــ.

١٦- ابن عبد ربه أحمد بن محمد، العقد الفريد، تح: أحمد أمين والزين والأبيـــاري، القاهرة، ١٩٤٠.

١٧- ابن عساكر؛ **تاريخ مدينة دمشق**، تهذيب عبد القادر بن بدران، دمشق.

١٨- القلقشندي شهاب الدين؛ نهاية **الأرب في معرفة أنساب العرب**، تــح: إبراهيـــم الأبياري، القاهرة، ١٩٥٩م.

١٩- لغدة الأصفهاني، بلاد العرب، تح: حمد الجاسر وصـــالح العلـــي، الريـــاض، ١٩٦٨م.

٢٠- ماسينيون؛ **خطط الكوفة**، ترجمة: تقي بن محمد المصعبي، صيدا، ١٩٤٦م.

٢١- المبرّد محمد بن يزيد؛ **الكامل في الأدب**، ط. البابي الحلبي القاهرة، ١٩٣٩م.

٢٢- مصعب الزبيري؛ **نسب قريش**، تح: ليفي بروفنسال، القاهرة، ١٩٥٣م.

٢٣- نصر بن مزاحم؛ **وقعة صفين**، ط. البابي الحلبي، القاهرة.

٢٤- ابن هشام عبد الملك؛ **السيرة النبوية**، تح: السقا والأبياري وشلبي، القـــاهرة، ١٩٥٥م.

٢٥- ياقوت الحموي؛ **معجم ما استعجم**، إشراف: أحمد فريد الرفـــاعي، القـــاهرة، ١٩٣٦ وما بعدها.

دور الكندي في إغناء

الحضارة العربية الإسلامية

الدكتور: حامد ابراهيم

كلية الآداب

جامعة دمشق

دور الكندي في إغناء الحضارة العربية الإسلامية

الدكتور: حامد ابراهيم

كلية الآداب

جامعة دمشق

يعدّ القرن الثالث الهجري، من أزهى عصور الحضارة العربية الإسلامية، ففي هذه المرحلة ازدهرت العلوم العربية الإنسانية في جميع المجالات، وفي هذا المناخ الفكري، ظهر الكندي وعمل على استيعاب ثقافة عصره، طامحا لتأسيس منهج فلسفي وعلمي للفكر العربي ينطلق ممّا هو أصيل، ومباشرة فعل جريء، في حقل الفكر العربي يظهر في اختراع مصطلح فلسفي، وقيامه بقيادة برنامج تثقيف فلسفي وعلمي داخل إطار الثقافة الكلامية.

إنّ مشروع الكندي الموسوعي الذي سوف نلحظه، هو الذي منحه في تاريخ الفكر العربي سمة الأصالة، فقد تحفظ على المحاولات الدينية التي سبقته، وفي ذات الوقت مارس فعل وصل متجاوزا حركة الاعتزال، راسما منهجا جديدا في حقل الفكر العربي بنشاطاته المعرفية المختلفة ومحاولا قراءة المباحث الكلامية من زاوية فلسفية.

. وانطلاقا من الإيمان بأنّ الحدث أو الفكر أو العلم يعبّر عن سياق تاريخي مرّت به الأمة العربية.

نرى أنّ مشروع الكندي موضوع بحثنا، لا يخرج عن حدود هذا الفهم، فهو قد تأثّر بالمناهج السابقة عليه والمعاصرة له. وهذا أمر طبيعي نسلّم به ما دمنا نسلّم بفكرة التواصل الحضاري، باعتبار مشروع الكندي الموسوعي، بأبعاده الفلسفية والعلمية اللغوية والمنهجية جهداً يضاف إلى جملة الجهود التي أسهم في طرحها العقل العربي والإنساني، هذا من طرف، ومن طرف آخر يتميز هذا المشروع بكونه نظرة خاصة محدّدة زمانياً ومكانياً، فهي تبرز نتاج عقلية الكندي بوصفها ثمرة الظروف الطبيعية والتاريخية والسياسية التي أفرزت وبلورت هذه العقلية المميزة، ونتيجة للتعقيد والتطوّر اللذين أبرزتهما النقول الفكرية والعلمية.

تتمثّل محاولتنا في هذا البحث في استقراء الأصالة الفلسفية والعلمية عند الكندي من خلال التدقيق في نصوص رسائله والكشف عبر قراءة جديدة عن أصالته في هذين الحقلين ضمن إطار الفكر الفلسفي العربي الوسيط.

اشتهر الكندي في بواكير مرحلة الاتصال الثقافي، المرحلة التي فتحت فيها الأمة العربية ميدان حوار مع الإرث الثقافي والعلمي الإنسانيين، التي اتّسمت في الوقت نفسه بنوع من الاستقرار السياسي. في هذا المناخ الفكري راح الكندي يعمل في الواجهة الأمامية من الحياة، يباشر فعل حفر لمجرى منهجي ينجز مشروع تأسيس لفكر وعلم عربيين.

جاهد فيلسوفنا لتحقيق هذا المشروع مجاهدة ثقافية عالية، حمّلته الكثير من المعاناة والإساءة. إلا أنّه تحمّل ذلك بصبر لا حدود له، اعتقاداً منه، أنّه رمز الأمة الثقافي، الذي يجاهد بهدف تجديد هويتها الثقافية والعلمية، والحفاظ على أصالتها وعصريتها، ونفهم على أساس ذلك المكانة المميّزة التي شغلها الكندي في ساحة تاريخ الفكر العربي الوسيط من حيث أنّه، (أي الكندي): (أثار بأشكال طريفة وعميقة مشكلة

الوجود بملحقاته. والشيء المهم في ذلك هو أنه جسّد ذلك الميـــل المبكـر بطرحـه لمشكلات الوجود بشكل مختلف، بل متناقض مع الطرح النصي(١).

تمثّل فعل المجاهدة الثقافي عند الكندي في البحث، بدون ملــل، فــي الإرث الثقــافي الإنساني، عن موجهات فكرية لتأسيس منهج عقلي، يساعد في بناء النســق الفلســفي العلمي الذي ينشد تحقيقه، وفي المباشرة بفعل تقليب سجلات التراث الفكري العربــي، ليرصد نقاط القطع والاستمرارية في مسيرة الفكر العربــي. وكــان الــهدف التقــاط موجهات من داخل بيئة الفكر العربي لإنشاء مبــاحث معرفيــة وعلميــة جديــدة، أو موجهات تدعم نشر هذه المباحث وتدعو إلى توطينها في ساحة هذا الفكر.

حقاً كان فعل الكندي الثقافي ثورة ثائر على موقعين ثقافيين:

الأول: موقع الانغلاق، الذي قيّد الفكر العربي وسجنه داخل مقولات مذهبية، فأســهم (بقصد أو بدون قصد)، في ارتكاب خيانة مزدوجة، فقد أساء الانغلاق للفكر العربــي، إذ حبسه داخل أسيجة ضيقة، ووضعه في خانة من خانات تاريخ الفكــر، تجاوزتــها الحياة العربية، هذا من ناحية ومن ناحية ثانية مارس تعسفاً على الواقع العربي، الــذي أصاب الكثير من المتغيرات الإيجابية، وأصبح النظر إلى الواقع العربي، من منظــور الانغلاق تشويهاً له، ودعوة إلى تمجيد حركته وقتل الزمن العربي. فأصبحت مقولاتــه تلهث وراء الواقع العربي. في حين أنّ الفكر الذي يمتلك شرعية العصر، يفترض بــه أن يتقدّم مع الواقع ويتجاوزه.

الثاني: موقع الرافضين للفكر العربي (والتراث)، والمنفتحين علــى الفكــر والعلــم الإنسانيين، من دون شرط. وقد نسي هؤلاء، أو ربما تناسوا أنّ الفكــر والعلــم همــا مجموعة نظريات لواقع غير واقعهم. وكان من المفروض، أن يباشروا، قبل عمليــة

التبنّي لمنظومات هذا الفكر الآخر ومباني تلك الثقافة، فعل فحص وتعرّف على طبيعة الواقع العربي، احتياجاته، اختناقاته، القوى الفاعلة فيه والقوى المعطّلة له ولحركته.

فبهذا السلوك يكون هذا الموقع، قد مارس فعل تغريب ثقافي للعقل العربي، إذ باشر بقصد أو من دون قصد، عملية اجتثاث الجذور والبنى، التي تشدّ الفكر العربي، وتربطه بالأرض العربية.

في حين أنّ الكندي -مقابل هذا الموقع- لم يقف في الفلسفة وفي العلم عند حدود تقليب سجلات الإرث الفكري العربي، بل رسم ساحة حوار ومقابلة بين مّا احتوته هذه السجلات وبين الواقع العربي. وانتهى إلى برفض المقولات الجاهزة التي تنشد إيقاف عقارب الزمن العربي. وتساهم في تغير حركة الواقع، مما جعل هذه المقابلة تحقق نوعاً من التأصيل للثقافات، التي تمنح قوى التغيير العربي دفعاً جديداً، وتستوعب قوانين الواقع العربي، وبهذا تكون قد هيأت المناخ الملائم للعقل العربي لإعادة تشكيل بُنية ثقافية جديدة، تدخل هذه المقولات في أنساقها الفلسفية والعلمية. وجعلت من البنية الثقافية الجديدة، بنية معجونة في طينة الواقع العربي، ومتجاوزة له في آن معاً.

على أساس هذا الفهم ندرج هنا الرؤية التقديرية التي طرحها فعل الإنتاج الفلسفي العقلي في ساحة الفكر العربي، الذي باشره فيلسوفنا، فهو أول فيلسوف عربي سلك دراسة المسائل الطبيعية بطريقة موضوعية وهو كذلك على حدّ تعبّير جعفر آل ياسين (الطليعة المتقدمة في الفكر الفلسفي... أغنى الفكر واستغناه، ورجع عنه بما يستحق أن يوصف بأنه فيلسوف العرب غير منازع[٢]).

يتوزّع مشروع بحثنا هذا، في رسم حدود الأصالة في فسلفة الكندي وموقع العقل في إطار هذه الأصالة على ثلاثة مستويات هي: الأصالة الفلسفية، والأصالة العلمية التجريبية، والأصالة النظرية. وأثر ذلك كلّه في تطوير الأساس الفكري للحضارة العربية.

أولاً- الأصالة على المستوى الفلسفي:

نرى من اللازم أن نشير إلى أنّ منح منزلة ريادة الفلسفة العربية للكندي، لـــم يــأت بشكل عفوي، بل نتيجة لمؤشرات ضغطت على المؤرخين، وأساطين الفكر العربـــي من بعده، وألحّت عليهم بمنحه هذا اللقب، فقد تحدّث عنه المؤرخون كفيلســـوف لـــم يعرف التاريخ العربي قبله فيلسوفاً، اتجه في دراسته اتجاهاً مميزاً، في أبعاد منهجيتـــه واقتفى خطى أرسطو وعمل على تقريب وجهات النظر بين أرسطو وأفلاطون، ومزج بين "الأفلاطونية" و"الفيثاغورثية الجديدة" وتسرّبت إليه عـــن طريـــق هـــذه المنـــافذ المعرفية، أصول فكرية تعود إلى سقراط، وأخرى ترجع إلى الرواقية بشكل خاص في مباحثه الأخلاقية[٣].

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أنّ الكندي (كان من أشدّ طباعه تمسكاً بها، هو الاعـــتراف بفضل السابقين على اللاحقين، وخاصة بما قدمته الحضارة اليونانية في نقلها الشرقي، وكان يدرك عمق هذا الأثر عليه وعلى منهجه، حتى أننا كثيراً ما نجد له هجوماً على آراء تتفق وطبيعته العربي الإسلامية، ونجده في مجال آخر يعترف بقيمـــة الأفكـــار كأفكار فحسب لها ميزانها الإنساني والعام[٤]).

ويعبّر الكندي عن هذا الموقف التقويمي لأفكار السابقين عليه بقوله: "ينبغي أن يعظـــم شكرنا للآتين بيسير الحق فضلاً عمّن أتى بكثير من الحق، إذ أشـــركونا فـــي ثمـــار فكرهم وسهّلوا لنا المطالبة الحقيّة، التي بها تخرجنا إلى الأواخر من مطلوباتنا الخفية، فإنّ ذلك إنما اجتمع في الأعصار السالفة المتقادمة عصراً بعد عصر إلى زماننا هـــذا، مع شدّة البحث ولزوم الدأب وإيثار التعب في ذلك. وينبغي أن لا نستحي من استحسان الحق واقتناء الحق من أين أتى وإن أتى من الأجناس القاصية عنا والأمم المباينة لنـــا، فإنه لا شيء أولى بمطالب الحقائق من الحق[٥]".

ونحن نجد بهذا الصدد، في طبيعة الكندي الفكرية (نحواً من العلمانية الحقة التي استوعبت قيم المعرفة الإنسانية فأحاطت بها بعضاً أو كلاً بما تمكنت منه، خلال حياتها التي امتدّت إلى سبع وستين سنة... لأنّ الكندي يمثّل صدقاً الفيلسوف الحق الذي ينهج نحو البحث عن الحقيقة أنّى كانت وأنّى وجدت لأنّ الحكمة ضالّة المؤمن فهو وحدوي الرأي علمي المنهج حقق بموقفه أهم منجزات الفكر الحضاري في عهده الذهبي[٦]).

إذاً الموقع الذي احتلّه الكندي في إطار الفكر الفلسفي العربي الوسيط موقع هام، وإن انحصر في نقل ومناقشة ودراسة الموضوعات الفكرية من دائرة علم الكلام إلى الفلسفة[٧].

فمحاولة نقل هذه الموضوعات إلى مستوى علمي خاص بها، ودراستها في ضوء منهج مستقل، مهمة ليست بالسهلة، ومن هنا تأتي محاولة الكندي في هذا المجال، التي اتكأت على جملة المحاولات التي سبقته في هذا الاتجاه بغية تحرير الموضوعات الفكرية التي مثّلت لاحقاً موضوعات للفلسفة العربية من ثقل علم الكلام ومناهجه، هذه المحاولة التي جسّدها الكندي، مهدّت لمن أتى بعده، طريقاً واضح المعالم يستطيع أن يغنيه بإضافات جديدة. وهنا نتفق مع الشهرزوري في ما ذهب إليه من (أنّ الكندي، وإن كان يسمى فيلسوف العرب، فهو يمثّل دور الانتقال من الكلام إلى الفلسفة الخالصة[٨]).

أما الصور الأخرى التي ننشد تأثيرها هنا، فتقوم على تقرير الحقيقة التي تذهب إلى أن بعض الآراء الكلامية ظل لها ثقل واضح على فلسفته، إذ نلحظ أنه (أي الكندي) يلتقي في أكثر من مسألة مع المعتزلة من أبرزها مسألة "حدوث العالم" لكنه يخالفهم فصحيح أنّ الكندي قال بخلق العالم من العدم شأنه في ذلك شأن المتكلمين الذين أولوا الشريعة على هذا النحو، لكن التدقيق في نصوص الكندي تكشف عن أن ثمة فلسفة

علمية أصيلة كامنة في أعماق ذلك اللاهوتي، وإنّ فكرة الخلق المذكورة ربما قيلت لأسباب أخرى ليس لها علاقة بموقفه الحقيقي. فحين يتحدّث عن كيفية حدوث الموجودات نكتشف رؤية جديدة لا تتفق مع الرؤية اللاهوتية السائدة في عهده، هي القائلة بأن الله يؤثر في المادة تأثيراً مباشراً دون وسائط، فكيف نفسّر ذلك؟

يبدو لنا أن النزعة الفلسفية الأصيلة لدى الكندي هي التي تعبّر عن موقفه الحقيقي فالموجودات تتولّد بعضها من بعض، بحيث يصبح كل منها معلولاً لما يسبقه وعلّة لما يأتي بعده. وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدلّ على أن لاهوتية الكندي لاهوتية ظاهرية فحسب، فهو يقول: (وأما ما دونه، أعني جميع خلقه، فإنها فاعلات بالمجاز لا بالحقيقة أعني أنها كلها منفعلة بالحقيقة، فأما أولها فعن باريه تعالى، وبعضها عن بعض – فإن الأول منها ينفعل، فينفعل عن انفعاله آخر وينفعل عن انفعال ذلك آخر وكذلك حتى ينتهي إلى المنفعل الأخير منها. فالمنفعل الأول يسمى فاعلاً بالمجاز للمنفعل عنه، إذ هو علّة انفعاله القريبة، وكذلك الثاني، إذ هو علّة الثالث القريبة في انفعاله، حتى ينتهي إلى آخر المفعولات فأما البارئ تعالى فهو العلّة الأولى لجميع المفعولات التي تتوسط لما بعد المنفعل الأول من مفعولاته[٩]).

فهذا النص يكشف عن أن اتجاه الكندي الذي يذهب إلى نفي التأثير الإلهي المباشر في المادة، وإلى إسناد التأثير المباشر إلى العلل الطبيعية، وقد عزّز هذا الموقف بقوله في رسالة أخرى: (إنّ الطبيعة علّة أولية لكل متحرك ساكن[١٠])، وقوله (...لأنّ الطبيعة هي الشيء الذي يجعل من الله، العلّة والسبب لجميع الأشياء المتحركة الساكنة حسب الحركة[١١]).

وعلى هذا النحو يكون الكندي من المؤمنين بأنّ ثمة (قانونية يسير العالم بمقتضاها، وإذا ما بحثنا عن الأساس الفلسفي العلمي الذي يبني عليه تصوّره لهذا النظام وجدناه في التزامه، العلمي الراسخ بقانون العلاقات السببية بوصفه المرجع والقاعدة لمجمل

القوانين الطبيعية، وحتى أنه يوسع شمولية القانون المذكور وضرورته إلى خارج ما يسميه هو "عالم الكون والفساد" أو عالم "ما دون القمر" أي خارج العالم الأرضي. أعني عالم الأفلاك أو مجموعة النظام الشمسي باصطلاحنا الحديث[١٢]).

ظل الكندي، في الخط العام، يتحرك على أرض دينية بالرغم من محاولته إكساب العملية إطاراً معلمناً رياضياً. في البدء نجد الكندي يطرح قضية "الله" وقضية "العالم" من حيث هما قضيتان متعارضتان بشكل أولي، إن النص القرآني التالي (إنما أمره إذا أرادَ شيئاً أن يقول له كن فيكون[١٣]).

تكتسب هذه الآية القرآنية لدى الكندي مضموناً وطابعاً فلسفيين، يطرحها من خلال نظور منطقي منسق، وفي مجموعة محاولاته للبرهان على "عملية الخلق" للعالم تبرز مقولتان رئيسيتان، هما "النهاية" و "اللانهاية" في علاقتهما ببعضهما فالثاني هو بحسب الكندي الله، أما العالم، الجسم فنهائي. إن هذا التحديد ينسحب على مجموع أفكار الكندي الفلسفية. بيد أنه من الملاحظ، أنه كلما انحدر الباحث في بحثه لفلسفة الكندي من أعلى إلى أسفل يرى نفسه مواجهاً لجوانب فلسفية أكثر دنيوية وعلمانية[١٤].

على أساس الفهم الذي أبرزته الإشارات السابقة، نحاول أن نقف ونتساءل ما هي إذاً مواقع الأصالة في فكر الكندي؟ وما هي الطبيعة الفكرية لتلك الأصالة؟

آ- المصطلح الفلسفي:

كان الطريق أمام الكندي في إيجاد المصطلح الفلسفي العربي شاقاً وعِراً، لكن لم يصل الأمر إلى حدّ اللغو والتسليم مع جعفر آل ياسين بأن "أعمال الكندي في اشتقاق المصطلح تعتبر طفرة في الشكل والمضمون معاً لأنه تمكّن أن يؤسس (حدوداً) و(رسوماً) للمصطلحات الفلسفية[١٥].

ولا ينكر أحد أهمية الكندي ودوره الهام في الفلسفة والمصطلح الفلسفي العربي في طور الولادة. لكن لن يصل الأمر إلى اعتبار الكندي الرائد حقاً في نحت الألفاظ (الفلسفية) الجديدة[١٦] فاعتناق رأي كهذا يمثّل (قطيعة أبستمولوجية) حقيقية مع الفكر العربي السابق عليه عملا أن ليس ثمة حدودا فاصلة بشكل قاطع بين استغراق علم الكلام، ونشوء الفلسفة العربية. فالسريان قبل الإسلام وبعد الإسلام اشتغلوا بالفلسفة اليونانية وترجمتها إلى العربية ويذكر ابن النديم في "الفهرست" أن بداية ترجماتهم -ي السريان- العربية تعود إلى أكثر من قرن قبل ولادة الكندي[١٧]، لقد كان للكندي الكثير من المساعدين والتلاميذ يترجمون تحت إشرافه. ويمكن القول: إنّ إفادة الكندي من ترجمات السريان وترجمات مساعديه هو ما يحمل على القول: إن المصطلحات التي استخدمها الكندي تمثّل (استمرار) أو (تهذيبا) للمصطلحات التي استخدمها التراجمة من قبله[١٨]. أو معاصروه. فقد اهتم الكندي في تهذيب المصطلحات الفلسفية وتحديدها حتى تكون صادقة التعبير عن الحقيقة الفلسفية.

ويستعمل الكندي لفظة "أيس" للدلالة على الموجود. ويجمعها "أيسات" ويشتق منها "الأيسية" للدلالة على حالة الوجود. وفعل أيّس يؤيّس بمعنى أوجد الشيء من العدم، ومصدر "التأييس" واسم الفاعل الله "المؤيّس" واسم المفعول "المؤيَس". فيصبح تحديد الفعل الإبداعي الحقيقي عنده "تأييس الأيسات عن ليس"[١٩]. إن لفظة "أيس" سريانية ومعناها "يوجد" ويستعمل الكندي أيضا لفظة "ليس" للدلالة على العدم كقوله: "إن الفعل الخق الأول تأييس الايسات عن ليس. وهذا الفعل بيّن أنه خاصة لله تعالى الذي هو غاية كل علة. فإن تأييس الأيسات عن ليس. ليس لغيره[٢٠]". وهذه الكلمة سريانية أيضا وتعني "لا يوجد" ويحاول أبو ريدة إثبات عروبة هاتين الكلمتين إذ يرى أن الكندي ينفرد بأنه إذ يحاول وضع الاصطلاح، يعتمد أحيانا على إحياء كلمات عربية قديمة قد أوشكت أن تسقط من الاستعمال. مثل كلمة "الأيس" للدلالة على الموجود

بالإجمال[٢١]. لكن أغناطيوس يعقوب الثالث يرى أن أصل هـــذه الألفـــاظ سـريانية "والأظهر أن الكندي اقتبس (أيس وليس) من اللهجة السريانية العامية[٢٢]".

يستعمل الكندي لفظ (الهوية) بمعنى الوجود الجزئي المتعين تحت الحس فـي مقـابل الحقيقة والماهية المعقولين، ويصوغ فعل يهوى بمعنى يوجـــد، ويسـمى الله تعـالى (مهوي الهويات عن ليس[٢٣])، أي موجد الموجودات، وبهذا الخصوص يعتقد أبو ريدة أن الكندي يستعمل، هنا، اللغة العربية بحرية، فيضيف أداة التعريف إلـــى الضمـير الغائب المفرد (هو) ومن لفظ (الهو) يشتق لفظة (الهوية)[٢٤]، أما أغناطيوس يعقـوب الثالث فيعتقد أن الكندي أخذ هذا اللفظ ومشتقاته عـن السـريانية تعنـي الصـيرورة والوجود[٢٥]، ويستعمل الكندي أيضاً لفظة (قنية) بمعنى الملكة كقوله (قنيــة النفـس) واللفظة سريانية لا عربية كما أثبتتها المعاجم السريانية العربية واســتعملها الكتـاب السريان، كما أنه يستعمل لفظة (مائية) بدلاً من (ماهية)، وهي سريانية مأخوذة مـــن اللهجة السريانية العامية، وهناك ألفاظ أخرى استعملها الكندي، كلفظة (انيـــة) والتـي تعني الوجود.

بيد أن المفكرين اختلفوا حول أصلها: فاعتقد بعضهم أنها من أصل عربي مأخوذة من أن العربية أو من إن، واعتقد بعضهم الآخر أنها مأخوذة من اللفظ اليونـاني (اون) أي الوجود، أما أغناطيوس يعقوب الثالث فيرجح أنها من أصل سرياني[٢٦].

فاستعمال الكندي لهذه المصطلحات التي ربما كانت سريانية، تدل على أنـــه اتصـل بالمصنفات والترجمات السريانية لا اليونانية مباشرة، وممـــا يسـترعي الانتبـاه أن المصطلحات الفلسفية اليونانية التي أوردها إلى جانب العربية قد وردت كذلـــك فـي الترجمات السريانية نفسها، كالفلسفة والأسطقس والهيولى[٢٧]...إلخ.

إن الوقوف على بعض الألفاظ الفلسفية التي استعملها الكندي سواء منها السـريانية أو اليونانية، لا يقلل من أهمية الفيلسوف العربي الأول الذي يعترف صراحة بفضل الذين

سبقوه قائلاً: "فقد كانوا لنا أنساباً وشركاء في ما أفادونا من ثمار فكرهم التي صارت لنا سبلاً وآلات مؤدية إلى علم كثير.. فإنهم لو لم يكونوا لم تجتمع لنا هذه الأوائل الحقية التي بها تخرجنا إلى الأواخر من مطلوباتنا الخفية فإن ذلك إنما اجتمع في الأعصار السالفة المتقادمة عصراً بعد عصر، إلى زماننا هذا(٢٨). ويسميهم الكندي بـ (المبرزين من المتفلسفين قبلنا من غير أهل لساننا(٢٩)). إن الناس تعير وتستعير، والأمم تأخذ وتعطي في كل زمان، وتلك هي حقيقة التفاعل بين الأمم والشعوب في مسيرة الفكر تاريخياً، وليس في ذلك ما يحطّ من شأن الكندي في صياغة المصطلحات الفلسفية العربية، التي أسهمت بشكل أساسي في خلق تواصل عميق بين الثقافة العربية الإسلامية والتراث الفكري اليوناني.

إن ريادة الكندي في الفلسفة العربية تكمن في محاولته تقديم أرسطو للفكر العربي آنذاك(٣٠).

وبرز فضل الكندي في المصطلح الفلسفي العربي من خلال محاولته هذه في صياغة المصطلحات الفلسفية التي تجاوزت المفاهيم الدينية الجاهزة فهو أول من أوجد صياغة فلسفية عربية لمفهوم إسلامي عن الله وعلاقته بالعالم، تلك الصياغة التي تمتلك لغة الفلسفة وأسلوبها، ولها مفاهيم الفلسفة ومقوماتها ثم معادلاتها المنطقية، وبهذا فالكندي أول من تخطى النصوص الدينية الجاهزة مكسباً بعمله هذا ، الفلسفة العربية استقلاليتها عن الدين في المرحلة الأولى لنشوئها(٣١).

مما يستوقف النظر حقاً هو الطبيعة الفكرية للمنهج الانتقائي عند الكندي الذي يكشف عن القدرة الذهنية الفائقة التي استوعبت التيارات الفكرية السائدة، وتشخيصه للمشكلات التي يعجّ بها واقع الأمة، والتي انعكست في دوائره الثقافية، وتمكنه من تطويع اتجاهات مختلفة في بيئة فكرية جديدة تحقق هذا الغرض، وهذا يتكشف في الخط المعرفي الذي ينسحب على مجموع النتائج الفكرية للكندي، ويتميز الأخير

بالرغم من تأثره الكبير بأرسطو بكونه فيلسوفاً احتفظ بالحلقات الأساسية من الإسلام كدين. وهذا يعني بالتالي أنه لم يأخذ مفهوم أرسطو عن العالم والمادة إن هذا لم يكن ممكناً لسببين: الأول إن الكندي تعرف على أرسطو كما قلنا ممتزجاً بمعالم الأفلاطونية المحدثة، بالرغم من أنه أبدى اتجاهاً أولياً لفهم أرسطو بعيداً عن التأثيرات الأفلاطونية الحديثة، أما السبب الثاني فهو التأثير الكبير الذي مارسه الدين على عملية تكوين ذهنيته الفلسفية، وخصوصاً في مسألة الخلق وعلاقة الإنسان بالإله(٣٢).

ويمكننا أن نلمس الطبيعة الفكرية لهذا المنهج الانتقائي في الجوانب الآتية:

١-تبرز محاولة الكندي في التوفيق بين آراء أفلاطون وآراء أرسطو(٣٣) (ونرى كذلك أن الكندي رغم تأثره بأرسطو فإنه لم يقتنع بكل آرائه الفلسفية فنلاحظ أنه يتفق معه في المجالات التي تنحصر في حدود فلسفته الطبيعية، في حين أنه يفترق عنه بخصوص المسائل الميتافيزيقية، واعني بهذا مسألة "قدم العالم" والركائز الفكرية التي تقوم عليها فبينما اتكأ ارسطو في تقرير "قدم العالم" على الزمان، نجد الكندي يؤكد حدوثه من "العدم" دفعة واحدة(٣٤)).

أما نقاط اللقاء بينه وبين أفلاطون، فتبرز في التأكيد على أهمية الرياضيات في دراسة الفلسفة، فقد ألزم أفلاطون تلامذته بمعرفة العلوم الرياضية، وذهب إلى حدّ الكتابة فوق الأكاديمية "لا يدخل أبوابي من لا يعرف الهندسة" من حيث يرى الكندي إن الفلسفة ينبغي أن تبنى على الرياضيات وبدونها تتحول الفلسفة إلى مجرّد رواية.

ويذهب أفلاطون إلى تقرير "حدوث العالم" والكندي لا يختلف معه في أساس القضية، بل بالتفاصيل التي تمت بها عملية الحدوث، فبينما يرى الأول أن عملية الحدوث ذاتية، أي أن العالم حادث بطبعه، يرى الكندي أن عملية الحدوث إمكانية، أي بمعنى آخر أن العالم يحدث بإرادة مغايرة له(٣٥).

على هذا الأساس، نقول: إن الكندي ضمن هذا التعدّد والتشعّب اختطّ لنفسه منظـــوراً خاصاً حول المادة والعالم المادي (إذ إن تأثره بأفلاطون وأرســـطو، وأفلوطيـن لـم يلامس المسألة الأساسية في رأيه، وهي مسألة العلاقة بين "الحق" و"الخلق" كما يقــول الصوفيون الإسلاميون، أي بين الله والعالم، في وجهة نظره تلك ظلّ الكندي في الخط العام، يتحرك على أرضية دينية[٣٦]).

٢-تشخص الركن الآخر من أركان الطبيعة الفكرية لمنـــهج الكنــدي، فقـد ذهـب المؤرخون إلى أنه جمع بين الأفلاطونية الحديثة و"الفيثاغورثية الجديدة" ونحــاول أن نقف هنا لنطرح تحديداً للأبعاد الفكرية لهاتين المدرستين، فقد ذهـب يوسـف كرم في تحديده للفيثاغورثية الجديدة أي أنها نهضـــة فكريـــة متعـدّدة الأبعـاد والوجهات، فهي دينية، وهي مذهب فلسفي، يعدّ محاولة لفـــهم العـــالم بقوانيــن واضحة...وهي مدرسة عنيت بالرياضيات والفلك والطب... وهي هيئة سياســـية استهدفت إقرار النظام على أيدي الفلاسفة.

أما الأفلاطونية المحدثة فهي محاولة لوضع فلسفة دينية، تقوم على أسس أفلاطونيـة – تسربت إلى داخل منظوماتها الفكرية آراء رواقية، وهـــي مدرســـة تحــرص علــى الاحتفاظ بالعقلية العلمية، التي تنظر إلى الوجود وكأنه هندسة كبرى، في الواقع لقـــد كانت النظريتان الفيثاغورثية، والأفلاطونية موجودتين أمام الكندي، فتأثر بالأولى فـــي القول بقوة الأعداد وما لها من أثر وسحر. أما الثانية، فقد خدمـــت الفكـــر العربـــي الإسلامي بشكل عام، وفلسفة الكندي في جهتين، الأولى أنها قدمت فلســـفة أرســـطو ممزوجة بملامحها، وعلى هذا قبلت فلسفة أرسطو من قبل دائرة الثقافة العربية وكذلك من قبل ثقافة الكندي. الثانية أنها قدمت للفكر العربي الوسيط، والحال كذلك بالنســـبة للكندي. شخصية أفلوطين، الذي قام بحل قضية "الوحدة" الحل الذي لاقى قبولاً معينـــاً

من دائرة الفكر الفلسفي العربي، إذ قام أفلوطين بإزالة ثنائيــة، (الصـورة والمـادة) الأرسطية)، وثنائية (الحسي والمثال العقلي) الأفلاطونية.

ب- نظرية العقل:

ونأتي الآن إلى إيضاح أحد أركان الأصالة لدى الكندي التي تمثلت في رؤيته للعقــل والتي لا تخلو في الحقيقة من الالتباس والغموض. حيث إن الكندي عرض تلك الرؤية في رسالة صغيرة له تحمل اسم "في العقل[٣٧]"، تبحث بشكل مختصر وتاريخي فــي آراء بعض الفلاسفة اليونانيين المرتبطة بالعقل. وهو في هذه الرسالة يتأثر بأرســطو وشرّاحه ولاسيما الاسكندر الأفروديسي[٣٨]، الذي ترجمت رسالته "في العقل" إلى اللغة العربية وقام بنشرها عبد الرحمن بدوي في بيروت، في المطبعة الكاثوليكية ١٩٧١.

وقد أبرز في هذه الرسالة ثلاثة أنواع من العقول:

الأول: العقل الهيولاني: هو عقل بالقوة غير خالد.

"**ثاني:** العقل بالملكة: وهو العقل الهيولاني وقد حصلت فيه المعقولات بالفعل أي أنــه يمثّل مرحلة وسطى بين القوة والفعل.

الثالث: العقل الفعال: فعلى طريقته هذه يخرج العقل الهيولاني من القوة إلى الفعل.

وأما عند الكندي فقد قسم العقل إلى أربعة أقسام.

"الأول: العقل الذي بالفعل أبدا، والثاني العقل الذي بالقوة وهو للنفس، والثالث العقــل الذي خرج من النفس من القوة إلى الفعل[٣٩]. وأما الرابع فهو العقــل الظــاهر فــي النفس[٤٠].

وهذا على خلاف ما نجده عند أرسطو الذي قسم العقل إلى قسمين العقــل المنفعــل، والعقل الفعال، وكذلك على خلاف الأفروديسي الــذي قــال بثلاثــة أنــواع: العقــل

الهيولاني، والعقل بالملكة ، والعقل الفعال، لكن الكندي رغم الكثير من الأبحاث التي كتبت حوله فإنه أكد على أنواع أربعة تمثّل الأخير منها بالعقل البنائي أو البياني وهذا ما ذكره عبد الرحمن بدوي بقوله: (إن الفرق بين العقل الثالث والعقل الرابع، عند الكندي، يتمثّل بالفرق الموجود بين الاكتساب القديم للملكات والممارسة الفعلية لها)(٤١).

وعلى كل حال فالعقل عند الكندي واحد يوجد في النفس بالقوة ويخرج إلى الفعل بتأثير المعقولات ذاتها. كان الأفروديسي قد أشار إلى أن العقل الفعال هو الذي يخرج العقل من القوة إلى الفعل، وأما الكندي فإنه يرى أن المعقولات هي التي تخرج العقل من القوة إلى عقل بالفعل، وهذا العقل بالفعل هو العقل البياني. وعند حصوله في النفس يكون ملكة لها، وهذا ما سيجعل لرسالة الكندي في العقل أثراً كبيراً في فلسفة اللاحقين في الغرب الوسيط اللاتيني والعربي، وهنا نلمس أصالته الفلسفية في نظرية العقل.

ج- الأثر العلمي في نسقه الفلسفي:

إن الكندي باشر فعل نشر لثقافة علمية أنتجها العقل الإنساني، في الإرث العربي، إدراكاً منه لأهمية العلوم في عصره، والدور الذي تلعبه في تغيير حياة الأمة، لذا نلاحظ بأن فلسفته مثلت النسيج، الذي يعكس الوحدة العلمية بين الميادين المختلفة، وهذه في الواقع ميزة جديدة في الفكر الإنساني جسدها الكندي، بعد أن كانت الحواجز، قائمة بين البحوث النظرية والتجريبية، يسود العقل في الأولى كطريقة علمية في بناء النظريات، في حين تلعب الثانية الدور الأساسي التجريبي.

ومن المؤشرات التي بدأها الكندي لترويج الثقافة العلمية في إطار الفكر العربي الوسيط، قول اليازجي: لقد "رافق حركة المعتزلة، في توسعها وانتشارها إقبال متزايد على مؤلفات اليونان، أدى بهذه الحركة تدريجياً إلى الانطلاق من حدود الكلام إلى

آفاق العلوم النظرية والعقلية والتجريبية على اختلافها، وكان من أول الذين توفـــروا على العناية بهذه العلوم جملة (يعقوب بن اسحاق الكندي)[٤٢].

مما يدل على أن الكندي كان واعياً، بشكل واضح لمخاطر الفصل بين الجانبين فـــي حياة الأمة، لذلك جاهد في سبيل تأثير الصورة الموحدة بينهما، للدور الأساسي الـــذي يقومان به في عملية التغيير، ما ورد في جملة نقلها الكثيرون ممن ترجموا له ومنـــهم دي بور الذي قال: (إن فلسفته تنحصر في الرياضيات والفلسفة الطبيعية)[٤٣].

ونأتي الآن على إبراز تصنيف الكندي للعلوم، ودراسة "الجوانب التجريبية"، باعتبارها علوماً، دارت موضوعات بحثها حول "العالم الخارجي" بأشـــيائه وظواهـــره، وبيـــان "الجوانب النظرية" (الرياضيات والمنطق) باعتبارها أجهزة لغوية، تستعين بها العلـــوم في صوغ ما توصلت إليه من نتائج في بحثها العلمي على هيئة "صيـــغ" و"مقـــولات رياضية"، وعلاقات منطقية، تمثّل ضوابط للبناء. فجاء المشروع التوحيدي، يجمع بين حقول العلوم المختلفة في بناء الكندي الموسوعي.

ثانياً- الأصالة على مستوى العلوم التجريبية:

يمثل العالم الخارجي موضوعاً لدراسة هذه العلوم، بهدف التعرف عليـــه ثـــم كشـــف جوهره والسيطرة عليه واستثماره، وعبر دروب التعرف عليه واكتشـــافه، صياغـــة "مبادئ" و"نظريات"، تفسر وتعلل سلوك الظواهر والأشياء والعلاقات بينها. كما يمثـــل العالم الخارجي مختبراً يكشف فيه عن صدق تلك المبادئ والنظريات،.

وسنركّز هنا على إبراز محاولة الكندي التطبيقية، التي رسمت حدود مباحث "الفيزيـــاء والكيمياء" والجغرافية والفلك والطب.

١-دارت بحوث الكندي حول البصريات باعتبارها جزءاً من علم الفيزياء، فقد ألـــف كتباً في اختلاف المناظر، وآخر في اختلاف مناظر المرآة[٤٤]. وفي ضوء هـــذه

الإشارات نستطيع أن نقول إن الكندي ركز في بحثه على موضوع الأبصار وهو العالم الخارجي بأشيائه وظواهره وعلاقاته والإبصار باعتباره صورا عن الموضوع، والوسيلة وهي الإحساس. ويعني هذا أنه أدرك أن معرفة الشيء لا يمكن أن تتم من دون توافر هذه الأبعاد، الموضوع، الوسيلة والصور الذهنية لذلك الموضوع.

ويرى فيليب حتي: ان من كتبه التي انتشرت في الشرق والغرب، مؤلفه الفريد في البصريات. وهو يستند إلى مؤلف أقليدس. ونلاحظ في مجموعة الكندي الفلسفية، رسالة بعنوان: "في علة اللون اللازوردي الذي يرى في الجو في جهة السماء وظن أنه لون السماء".

والكندي يناقش في هذه الرسالة طبيعة الأجسام المستضيئة، ويرى أن التفاوت في إضاءتها عائد الى قابليتها في عكس الضوء. وينعطف في حديثه ليناقش مسألة في غاية الأهمية، فيذهب إلى أن الضوء الذي نراه في الجو، هو ضوء منعكس في الذرات البخارية والأرضية التي يحملها الهواء، وإذا تخطينا طبقة الهواء الذي يحملها، انعدم ذلك وحدث بالتالي الظلام.

٢- عرف الكندي ان كل علم يختص بدراسة جزء من الطبيعة، وهذه بداية جنينية شارك بها بدور الأصالة العلمية في إثبات استقلالية مركز العلوم، وبالتالي ظهور ظاهرة التخصص في ميدانها. وعلى أساس هذا الفهم، نجد الكندي مفردا كتابا حول الكيمياء، درس فيه المعادن، وهو كتاب "الجواهر والأشباه" قال البيروني: (ولم يقع إلي من هذا الفن غير كتاب أبي يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي، الذي قد اخترع فيها عذرته وظهر ذروته كاختراع البدائع في كل ما وصلت إليه يده من سائر الفنون فهو إمام المحدثين وأسوة الباقين)[٤٥].

٣-واكب على دراسة الظروف الجوية، وطبيعة الإمكان (التوقع)، في محاولة لتحديد سمات علم الجغرافية. ولبيان ذلك لا بدّ أن نشير إلى مجموعة من رسائل الكندي التي احتوتها موسوعته العلمية، في الجغرافية الطبيعية، الطقس خصوصاً.

في العلة التي لها تكون بعض المواضع لا تكاد تمطر.

في علة كون الضباب.

في علة الثلج والبرد والبرق والصواعق والرعد والزمهرير.

٤-وضم الكندي في أصالته العلمية الموسوعية، مناقشة لموضوع آخر من موضوعات العالم الخارجي، وهو علم الفلك، حيث درس الأجرام السماوية، وبهذا السلوك أكد رفضه لأثر الكواكب على حياة الإنسان بالصورة التي يسمها المنجمون، ونجد من خلال دراسة رسائله، أنه اهتم بدراسة المواقع التي تشغلها الكواكب في القبة السماوية، وعلى وجه الخصوص (الشمس) و(القمر) بالنسبة للأرض، والأثر الطبيعي لذلك، وما ينشأ عنها من ظاهرات يمكن تقديرها من حيث الكم والكيف والزمان والمكان.

ومن اللزوم الإشارة إلى بعض رسائله، التي ناقش فيها الموضوعات الفلكية والتي أهمها:

(رسالة في إيضاح تناهي جرم العالم).

(وفي الإبانة عن أن طبيعة الفلك مخالفة لطبائع العناصر الأربعة).

(في أن العناصر والجرم الأقصى كروية الشكل).

ثالثاً- الأصالة على مستوى العلوم النظرية:

والمقصود بهذه العلوم، أساليب وطرقاً نظرية، تستعين بها العلوم في تشكيل بنياتها، وهي العلوم الرياضية والمنطق، باعتبار الأولى تمثل أجهزة لغوية تستخدمها العلوم لعرض حقائقها، والثاني آلة تستعين بها العلوم، في اختبار المفهوم العلمي كوعاء نظري يحدد ماهية الشيء، أو يشخص الحادثة، ويقدم لها مجموعة قوانين تسهم في بناء المبادئ العلمية، وتشكيل النظريات، وأما عن مشروعه التصنيفي لهذه العلوم فيعوم كالآتي:

١- إن الرياضيات هي جهاز لغوي، يتألف من مجموعة من المفاهيم الدقيقة والواضحة، ومجموعة من الصيغ الخالية من التناقض وتتوفر فيها المتانة، يتكئ عليها العالم في حياته في ما توصل إليه من نتائج أثناء قيامه بالتجارب والملاحظات على هيئة صيغ ونظريات، فلقد اشتهر الكندي بالعلوم الرياضية إلى حد اعتبره البيهيقي" رياضياً مهندساً خائضاً في غمرات العلم"[٤٦].

حتى أن الكندي ذهب إلى أن الفيلسوف يحتاج إلى علم الرياضيات، ويعني بها "العدد والتأليف والهندسة والتنجيم، الذي هو علم هيئة الكل"[٤٧].

نفهم من هذا أن الرياضيات أصبحت تمثل قناة لمختلف العلوم، ويظهر أن فكرة اللجوء إلى الرياضيات وجعلها جسراً للفلسفة، قد أثرت على فلسفة الكندي واتخذت أبعاداً جديرة بالاهتمام، تحددت في كونها منهجاً ولغة، اتكأ عليها في أبحاثه الطبية المتعلقة بالأدوية.

وإذا ألقينا نظرة فاحصة على مؤلفات الكندي وجدنا أن للرياضيات ثقلاً ظاهراً، فقد ذكر المؤرخون له ما يقارب المئة رسالة في مختلف الموضوعات في الحساب والهندسة... النسبة[٤٨] ومن أهم رسائله الرياضية نذكر:

(رسالة كمية كتب أرسطو "يقول الكندي فيها: "إن لم يكن العدد موجوداً لم يكن معدوداً، ولا تأليف العدد، ولا من المعدود الخطوط والسطوح والأجرام والأزمان والحركات، فإن لم يكن عدد لم يكن علم المساحة ولا علم التنجيم)[٤٩].

(رسالة الكندي إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى "وفي هذه الرسالة يتابع الكندي رأي القدماء منذ إقليدس في اعتبار العدد كمية، حيث نراه يقول: (إن كان الواحد عدداً، فهو كمية ما، وإن كان الواحد كمية، فخاصة الكمية تلحقه وتلزمه، أعني أنه مساوٍ ولا مساوٍ)[٥٠].

٢- أما عن أصالة الكندي في ميدان المنطق، فقد ذهب المستشرق ديلاسي اوليري في تحديد مكانة الكندي في تاريخ المنطق والثقافة العربية، إلى أن تعاليم الكندي المنطقية، قد صممت البحث المنطقي لأرسطو. ودفعت إلى الأمام، في دائرة الثقافة العربية.

لقد تابع الكندي صاحب المنطق في ذكر كتبه المنطقية، وهي معروفة لدى المشتغلين بالفلسفة لولا أمرين:

الأول: إضافة كتابي الخطابة والشعر إلى المنطق، أيرجع ذلك إلى الكندي أم أنهما ألحقا لدى السريان والمفسرين من أنصار المشائين؟

الثاني: غرابة الأسماء التي استعملها الكندي. درج الأخير في كتاب "كمية كتب أرسطو" على تعريب اسم الكتاب اليوناني ثم ترجمته، مع عرض وجيز لموضوع كل كتاب وعلى سبيل المثال:

قاطيغرورياس، وهو المقولات -باري أرميناس، معناه علم التفسير- أنالوطيقيا الأولى ومعناه "العكس من الرأس" -أنالوطيقيا الثانية ومعناه "الإيضاح"- طوبيقا، ومعناه "المواضع" -بويطيقا، ومعناه "الشعري"، سوفسطيقا، ومعناه "المنسوب في السفسطائيين"- ريطوريقا، معناه "البلاغي".

في الحقيقة إن كتاب كمية كتب أرسطو كان من أوائل تآليف الكندي حيث لم تكن المصطلحات قد استقرت بعد عند المشتغلين بالترجمة. ودليلنا على ذلك أنه يستخدم في بعض كتبه التي ألفها فيما بعض المصطلحات المألوفة، مثل القياس بدلاً من /العكس من الرأس/ والبرهان بدلاً من الإيضاح.

ننتقل بعد ذلك إلى الحديث عن إلحاق كتابي الخطابة والشعر بالمنطق: لم تكن الخطابة أو الشعر من جملة المنطق في الثبت الذي نقله القفطي عن شخص يسمى بطليموس أورد قائمة بأسماء كتب أرسطو. ذلك أنه أورد كتابه في صناعة الشعر في موضع، ثم بعد ذلك بقليل تحدث عن أربعة كتب منطقية متتالية هي العبارة، والقياس، والبرهان، والسفسطة. وبعد أن ذكر كتبه الخلقية، والسياسية، أورد كتاب الخطابة. وعندما أخذ السريان ينقلون المنطق من اليونانية إلى السريانية، وقفوا عند كتاب السفسطة، كما يتضح من آخر النسخة المنشورة عن المخطوطة التي كانت في حوزة الحسن بن سوار المنطقي، فالأرجح أن إلحاق كتابي الخطابة والشعر بالمنطق لم يتم إلا على يد العرب، ويلوح أن أول من فعل ذلك هو فيلسوف العرب (الكندي). فقد شارك في نقل المنطق، فاختصر المقولات والعبارة والشعر وفسر القياس والسفسطة وشرح البرهان، كما يقول لنا القفطي[٥٠].

• الخلاصة كانت مهمة الكندي خطيرة وشاقة، فقد سلك طريقة جديدة في الفكر العربي، دفعته إلى تدشين ميدان الثقافة العربية بفعل فلسفي علمي أصيل فهو من جهة باشر فعلاً تثقيفياً فلسفياً وعلمياً داخل محيط الثقافة الدينية، يحقق اجتياحاً لكثير من المباني التي تتعارض مع المنهج العقلي. ومن جهة ثانية حقق منهجية جديدة أسهمت في تشييد هيكلية البنيان الفلسفي العربي الوسيط، استقل عن هيمنة ووصاية علم الكلام. وذلك من خلال نشر الفكر الفلسفي العلمي الموسوعي الذي يجمع كل أطراف العلوم التي أنتجها العقل الإنساني لاتخاذ موقف نقدي حيال المرتكزات الفكرية المتخلفة.

الهوامش وثبت مراجع الدراسة

(١) طيب تيزيني، **مشروع رؤية جديدة في الفكر العربي الوسيط**، دار دمشق ط١، دمشق، ١٩٧١، ص ٢٨٢.

(٢) جعفر آل ياسين، **فيلسوفان رائدان: الكندي والفارابي**، بيروت، دار الأندلس، ١٩٨٠، ص ١٣.

(٣) انظر: ناجي التكريتي، **الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكري الإسلام**، بيروت، ١٩٧٩، ص ١٣٧-١٤١، وانظر كذلك في **رسالة دفع الأحزان**، عند محمد كاظم الطريحي، الكندي فيلسوف العرب الأول، بغداد، ١٩٦٢، ص ١١١.

(٤) جعفر آل ياسين، **فيلسوفان رائدان: الكندي والفارابي**، بيروت، ١٩٨٠، ص ١٧.

(٥) الكندي، **رسائل الكندي الفلسفية**، تحقيق محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٠، ص ١٠٢-١٠٣.

(٦) جعفر آل ياسين، **فيلسوفان رائدان: الكندي والفارابي**، ص ٢٨.

(٧) انظر: كارل بروكلمان، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط٣، ج٥، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٠، ص ٣. ص٣٩.

(٨) دي بور، **تاريخ الفلسفة في الإسلام**، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١، ص ١٢٨.

(٩) الكندي، **رسائل الكندي الفلسفية**، ص ٣٥-١٣٦.

(١٠) المصدر السابق، ص ١١.

(١١) المصدر السابق، ص ٤٠.

(١٢) حسين مروة، **النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية**، دار الفارابي، بيروت، ط٣، ١٩٨٠، ص ١٠٨-١١٠.

(١٣) القرآن الكريم، سورة يس: الآية، ٨٢.

(١٤) طيب تيزيني، **مشروع رؤية جديدة**، ص ٢٦٧-٢٦٨.

(١٥) جعفر آل ياسين، **فيلسوفان رائدان**، ص ٢٩.

(١٦) المرجع السابق.

(١٧) ابن النديم، **الفهرست**، ص ٣٠٤.

(١٨) فلسفة (أيس) مثلاً التي استخدمها الكندي، نجدها في ترجمة أسطات لكتاب **الميتافيزيقيا الأرسطية**، فهذه اللفظة وردت في رسائل الكندي الفلسفية تحقيق عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة، ١٩٥٠، ص ١١٣، ١٢٣، ١٢٤، ١٣٣، ١٣٤، ١٨٢، ١٨٣، ٢١٥.

(١٩) **رسائل الكندي الفلسفية**، ص ١٣٤.

(٢٠) انظر المصدر السابق، ص ١٣٤-١٣٥.

(٢١) عبد الهادي أبو ريدة في تعليقه على **رسائل الكندي الفلسفية**، ص ١٣٤.

(٢٢) أغناطيوس يعقوب الثالث (بطريك أنطاكية وسائر المشرق) (**الكندي والسريانية**)، وهو البحث الذي ألقاه في الاحتفالات الألفية لبغداد والكندي في السادس من شهر كانون الأول عام ١٩٦٢، ص ١١.

(٢٣) **رسائل الكندي الفلسفية**، ص ١٠٥-١٠٦.

(٢٤) محمد عبد الهادي أبو ريدة، في مقدمته **لرسائل الكندي الفلسفية**، ص ٢٠، ص ٢١، ص٥٣، ويذهب إلى هذا الرأي، حنا الفاخوري وخليل الجر، **تاريخ الفلسفة العربية**، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٢، ط٢، ج٢، ص ٨٧.

(٢٥) انظر أغناطيوس يعقوب الثالث، **الكندي والسريانية**، ص ١٢.

(٢٦) انظر: **المرجع السابق**، ١٤.

(٢٧) **المرجع السابق**.

(٢٨) **رسائل الكندي الفلسفية**، ص ٣٢-٣٣.

(٢٩) **المرجع السابق**، ص ٣٢-٣٣.

(٣٠) نشير هنا إلى أن الكندي أخذ أرسطو ممزوجاً بملامح أفلاطونية حديثة ومن خلال مواقع إسلامية لاهوتية.

(٣١) نود أن نشير هنا إلى أن انطون رشيد سيف (**الكندي مفاهيمه الفلسفية من خلال مصطلحاته الأساسية**) أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، في الجامعة اللبنانية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بيروت، ١٩٩٢، إننا نتحفظ على الكثير مما جاء في هذا العمل بالرغم من الجهد الكبير الذي بذله الباحث. ففي الوقت الذي يدعي الباحث اتباع منهج (البنيوية الجدلية)(ص ١١) فإن النتائج التي توصل إليها تظهر بأنه لم يكن منهجياً مع ذاته، وذلك بإطلاقه أحكاماً قطعية ومتسرعة. لقد تضمن عمله أحكاماً تحمل الكثير من القسوة التي لا أجد مسوّغاً لها فقد نفى دور الكندي في عمله لاستقلال المصطلح الفلسفي عن المفاهيم الدينية فالباحث سيف يرى أنه لمن (الصعوبة القبول بأن لمصطلحات التي يستعملها الكندي رأت النور لأول مرة في رسائله) (ص ١٣) ولم يكتف الباحث بهذا بل وصل إلى حد التشكيك ووضع علامات استفهام حول صحة نسبتها (أي رسالة

الكندي في حدود الأشياء ورسومها) إلى الكندي (ص ١٣) والقارئ لعمل الباحث سيف يذهب إلى حد التساؤل ماذا بقي من الكندي؟. يبدو أن السيد سيف يفهم تكون المفاهيم الفلسفية وتطورها بالمعنى الإبداعي الفني والفريد والفذ متجاهلاً حتمية التطور الفكري والتفاعل بين الحضارات والشعوب في خلق ثقافة لكل شعب من هذه الشعوب. هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فبدلاً من أن يشكك السيد سيف في رسالة الكندي (في حدود الأشياء ورسومها) معتمدا نقدا خارجيا (ص ١٣) كان يتوجب عليه أن يتسم ويتحلى بمبدأ البحث والأمانة العلمية، فقبل إطلاق الأحكام التقريرية. والمتعسفة أحيانا كان عليه أن يكلف نفسه دراسة مقارنة وتحليلية لهذه الحدود والرسوم. كان من الأفضل للسيد سيف أن يشير ولو بكلمة واحدة إلى أن الكندي في رسالته (في حدود الأشياء ورسومها) تبع أرسطو الذي قدم معجماً فلسفيا لأول مرة في تاريخ الفكر الفلسفي اليوناني. إذ خصص لهذا العمل المقالة الرابعة من الميتافيزيقا. فإذا كان أرسطو أول فيلسوف يوناني قدم معجما فلسفيا. فإن الكندي هو واضع أول كتاب في التعريفات الفلسفية عند العرب. وأول قاموس للمصطلحات عندهم وقد سار على خطاه الفلاسفة العرب من بعده.

(٣٢) انظر: محمد بحر العلوم. الكندي **الرائد الأول للفلسفة الإسلامية ومفخرة الفكر العربي**. الجانب التاريخي. النجف، ١٩٦٢، ص ٤٣.

(٣٣) انظر: طيب تيزيني. **مشروع رؤية جديدة**، ص ٢٦٧.

(٣٤) **المرجع السابق**. ص ٢٦٧.

(٣٥) انظر: الكندي، **رسائل الكندي الفلسفية**. ص ٣٥٣، لقد نشر عبد الرحمن بدوي هذه الرسالة في كتاب **رسائل فلسفية**. ص ١-٥، دار الأندلس، بيروت، ط٢، ١٩٨٠.

(٣٦) محمد عبد الرحمن مرحباً، **خطاب الفلسفة العربيـــة الإســلامية - النشــأة والتطور والنضوج**، دار عز الدين للطباعة، ١٩٩٣، ص ٦٨.

(٣٧) انظر: غسان فنياس، **تاريخ الفلسفة العربية**، دمشق، ١٩٨٢، ص ١١٧.

(٣٨) انظر: كمال اليازجي، **معالم الفكر العربي في العصر الوسيط**، بيروت، ط٢، ١٩٥٨، ص ١٧١.

(٣٩) انظر دي بور، **تاريخ الفلسفة في الإسلام**، ص ١٢٩.

(٤٠) انظر عمر فروخ، **عبقرية العرب في العلم والفلسفة**، ط٢، بيروت، ١٩٥٢، ص٣٧.

(٤١) غسان فنياس، **تاريخ الفلسفة العربية**، ص ١١٧.

(٤٢) كمال اليازجي، **معالم الفكر العربي في العصر الوسيط**، ص ١٧١.

(٤٣) دي بور، **تاريخ الفلسفة في الإسلام**، ص ١٢٩.

(٤٤) عمر فروخ، **عبقرية العرب في العلم والفلسفة**، ص٣٧.

(٤٥) البيروني، **المجاهر في معرفة الجواهر**، جمعية وزارة المعارف العثمانيـــة، حيدر أباد، ١٣٥٥هـ، ص ٣١-٣٢.

(٤٦) نقلاً عن دي بور، **تاريخ الفلسفة في الإسلام**، ص ١٢٩.

(٤٧) الكندي، **رسائل الكندي الفلسفية**، ج٢، ص ٣٧٠.

(٤٨) انظر ابن النديم، **الفهرست**، ص ٣٥٨-٣٦٤.

(٤٩) الكندي، **رسائل الكندي الفلسفية**، ص ٣٦٢-٣٧٤.

(٥٠) الكندي، **كتاب الكندي إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى**، تحقيق أحمد فؤاد الأهواني، ص ١٢٥، نقلاً عن الأهواني، الكندي فيلسوف العرب، ص ١٢٥-١٢٦.

(٥١) انظر عبد الرحمن بدوي، محقق، **منطق أرسطو**، ج٣، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٨، ص ١٠١٤، وانظر كذلك أحمد فؤاد الأهواني، الكندي **فيلسوف العرب**، ص ١١٢-١١٣.

ابن حزم في كتابات المستشرقين

سانتشث البرنس (Sanchez–Albornoz)

رينهارت دوزي (Reinhardt DOZY) نموذجاً

الدكتور: علي دياب

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة دمشق

ابن حزم في كتابات المستشرقين

سانتشث البرنس (Sanchez-Albornoz) رينهارت دوزي (Reinhardt DOZY) نموذجاً

الدكتور: علي دياب
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة دمشق

إنّ للاستشراق فرقاً وتيارات مختلفة، يرتدي معظمها إن لم نقل كلها ثوب الموضوعية، والنزاهة والعلمية، ولكنها في الواقع تخفي حقيقتها على المطّلع عليها، إذ لا يتنبّه إلى ما فيها من ضعف في التحليل، ونقص في الاطلاع، وتسرع في إطلاق الآراء المسبقة، تكاد خليطاً من المعلومات الصحيحة والأخطاء الفادحة.

إننا نجد وبكل أسف أن عدداً من الباحثين العرب المعاصرين قد تأثر بكتابات المستشرقين، وانبهر بما قامت عليه من أسس، وبالنتائج الخطيرة التي تمخضت عنها من افتراء على التاريخ، وتزييف للحقائق. وباختصار يمكن القول: إن دراسات المستشرقين هدفت إلى تثبيت بعض المفاهيم السلبية عن العرب، والتي تتلخص في أن العربي متخلف بطبيعته، وجاء الدين الإسلامي ليؤكد ذلك، فهو دين زجر ونهي، أفقد الأمة العربية روح الإبداع والابتكار، ولم يتعدّ دور العلماء العرب في مراحل التاريخ المختلفة سوى تقليد الأمم الأخرى، والنقل الحرفي عن لغاتها، وأن العلاج الوحيد لهذه

الأمة كي تنهض من غفوتها عليها أن تأخذ بما جاء به المستشرقون وأن تحذو السلوك الغربي.

إن نظرة عمق وتأمل فيما ذكر، تظهر بكل جلاء ووضوح الحيف الذي لحق بثقافتنا العربية من كتابات معظم المستشرقين، فعلى الرغم من تعدّد اللغات التي كتب بها أدب الاستشراق، والاتجاهات التي سار على منوالها، فلا يزال بحاجة إلى غربلة وتقويم. إن الأمانة العلمية ترتب علينا أن نكون موضوعيين في أحكامنا وليس تلك الموضوعية التي لبسها الكثير من المستشرقين، فهناك بعض المستشرقين المنصفين ولو كان عددهم لا يتجاوز كثيراً عدد أصابع اليد الواحدة أو اليدين، إذا ما قورنوا بحشرات المستشرقين الذين ناصبوا العروبة والإسلام العداء، وكرسوا جهودهم لتزوير وإنكار ما قدمته الحضارة العربية للحضارة الإنسانية. نذكر من المستشرقين المنصفين على سبيل المثال:

من الإنكليز السير توماس أرنولد T. Arnold والأستاذ آربري Arbury والأستاذ جيوم Guillaume ومن الفرنسيين الأستاذ ما سينيوس Massignon، والأستاذ جاك بيرك J. Berque والأستاذ بلاشير (R) Blachere والدكتور روجيه غارودي والدكتور موريس بوكاي حيث انتهيا إلى اعتناق الإسلام والتبشير به من خلال أبحاثهما، ومن الألمان الدكتورة زيغريد هونكه (Sigrid Hunke) ومن الأسبان: فرانسيسكو كوديرا (١٨٣٦-١٩١٧)، (Francisce Codera) وتلاميذه الذين عرفوا ببني كوديرا(٢)، والأستاذ خوان فيرنيت (Juan Vernet). وهنا أود أن أذكر شيئاً سريعاً عن السيد كوديرا يقال: إنه ينحدر من أصول عربية، واختار لنفسه صيغة عربية هي: الشيخ فرنسيشكو قدارة زيدين (Zaydin).

فكوديرا كان متميزاً بتسليطه الضوء على الحقيقة، وجهره بها ويعلن فضل العرب على الحضارة الإنسانية وحفاظهم على التراث القديم فيقول: "إن العرب كانوا أكثر

شعوب العصور القديمة والوسطى اهتماماً بالعلم، وأغزرهم تأليفاً في شتى صنوف المعرفة" وكان من الداعية إلى تعريب الحضارة الأوروبية، ويقول في بعض ما ذكره عنه جيمس مونرو: إن من الخطأ العمل على "أوروبة إسبانية" بل الواجب هو تعريب أوروبة وعلى إسبانية أن تسترد دورها الأندلسي القديم في هذا التعريب(٢).

نكتفي بهذا التقديم الوجيز وننتقل إلى موضوع بحثنا: ابن حزم في كتابات المستشرقين. يعدّ ابن حزم الفيلسوف، الباحث والفقيه، الشاعر والأديب، اللغوي المؤرخ، السياسي والمفكر، من أهم النماذج التي تعكس تباين الموقف الاستشراقي تجاه كثير من مظاهر الثقافة العربية الإسلامية، فغنى هذه الشخصية العظيمة يغري كثيراً من الثقافات بادعاء انتمائه إليها، ولاسيما عندما تتعدّد الآراء في تاريخ هذا الرجل الذي تتنازعه الانتماءات العربية والإسبانية والفارسية. فقد تباينت آراء الباحثين المحدثين في نسبه، فذهب دوزي وجولد تزيهر إلى أن جدّه أو والد جده لم يكن عربياً ولم يولد مسلماً، وإنما اعتنق الإسلام، وأظن أنهما استندا إلى قول ابن حيان:

"فقد عهده الناس خامل الأبوة، مولدَّ الأرومة، من عَجَم لبْلة، جده الأدنى حديث عهد بالإسلام"(٣).

أما الحميدي وهو تلميذ ابن حيان فيقول في جذوته:

"إن أصله من الفرس، وجده الأقصى في الإسلام اسمه يزيد مولى ليزيد بن أبي سفيان"(٤).

ويفتخر ابن حزم نفسه بنسبه الفارسي وولائه لبني أمية فيقول في إحدى قصائده:

سما بي ساسان ودارا وبعدهم قريشُ العلى أعياصها والعنابس

فما أخّرت حرب مراتب سؤددي ولا قعدت بي عن ذرى المجد فارس(٥)

وهكذا نجد أن كلا النسبين يبعدان نسبة ابن حزم إلى العرب، إلا أننا نجد أن نسبته إلى الفرس تجعل لأسرته جذورا إسلامية راسخة، أما نسبته على عجم لبلّة فيقصر علاقته بالإسلام على جده الأدنى أو والد جده، وقد أيّد هذا الرأي عدد من الباحثين، لأنه يصل ابن حزم بالمسيحية أو بالإسبانية رغبة منهم بدراسته في ضوء الوراثة القريبة.إلا أن الدكتور إحسان عباس يقول:

"ولكن أميل إلى ترجيح النسبة الفارسية، لأن اتهام ابن حزم في نسبه الفارسي، إنما صدر عن رجل ميال للذم والثلب، هو ابن حيان المؤرخ"(٦).

لا نريد أن نمضي طويلا مع ابن حيّان أو د. إحسان عباس، وإنما نود أن نثبت رأي الفيلسوف الإسباني الكبير: أورتيجا إي جاسيت فيما إذا كان ابن حزم عربياً أم إسبانياً ومن ثم نتوقف عند رأي البرنس. يقول أورتيجا:

"من الواضح أنني حين أدعو ابن حزم عربياً إسبانياً، فإنما أنسبه إلى العربية جاداً، وإلى الإسبانية بصورة غير جدية، ودون أن أحول بين الآخرين وبين أن يصنعوا ما حلا لهم، ولست مستعداً من جانبي أن أغامر فأدعو "إسبانياً" في جدية كل من يولد على أرض شبه الجزيرة الإيبيرية، حتى ولو كان من دم إيبيري أصلاً، وحتى لو كان عاش فيها كل حياته فالأرض والجبلة الدموية تأتي في آخر قائمة الخصائص التي يمكن أن تحدد قومية الإنسان. لأن هذه خلاصة الواقع التاريخي، وإنما تكون لهما فعاليه فحسب، حين تحتلان منه المكان الأول قبل كل الخصائص الأخرى، والدليل عليه بسيطا وشهيرا، يتمثل في أن بالإمكان أن يصبح المرء إسبانياً بأقصى ما تحتمله الكلمة من معنى، دون أن يكون قد رأى الأرض الإسبانية مطلقاً، وعلى النقيض يمكن أن يكونه، وبالمستوى نفسه، دون أن تجري في عروقه نقطة من دم جنسنا، أو فيه منه شيء قليل للغاية، ويصدق في ذلك عصرنا الآن، لأن إسبانية، منذ وقت طويل، حققت كامل قوميتها، أعظم بكثير جداً عما كانت عليه خلال القرنين العاشر والحادي عشر،

عندما بدأ الشيء الذي يدعى "إسبانية" ينبثق فحسب. وكل هذه الصفات القومية تعني، إذا أخذت بمعناها الدقيق، الانتماء الأصيل لمجتمع محدد، وكان مجتمع الأندلس العربي مختلفا، وشيئا آخر غير المجتمع، أو المجتمعات، غير العربية، التي كانت تسكن إسبانية إذ ذاك[٨].

• يقول المستشرق سانتشش البرنس: "لا أستطيع أن أوافق أورتيجا فيما وصف فيه ابن حزم من أنه عربي إسباني. وأجرؤ على أن أناديه بما هو نقيض لقوله: إسباني متعرّب[٩]". ويضيف: "أعتقد أن الرجل هو التاريخ، على حين يرى أورتيجا أن الشعوب تتغير مع حركة الأجيال السريعة، وأن الأمس يختلف دائما عن اليوم، وأن اليوم يغاير الغد، ولا يوجد عصران إسبانيان متماثلان. وذلك يسمح لنا بل يضطرنا، أن نعدّ إسبانيين كل أولئك الذين على امتداد التاريخ، داخل إسبانية وخارجها، فكّروا وأحسّوا وعاشوا على نحو ما كان مألوفا اذ ذاك في إسبانية الرومانية قبل فرياتو* بزمن طويل وحتى بعد بريم* بقرون عديدة[٩]" ويقول البرنس: ((ليس السلالة أو الأرض إذن هما اللذان صنعا من مؤلف "طوق الحمامة" إسبانية وإنما صاغه التاريخ من طين لبّلة الإيبيرية. ومن ثم إيبيري يتدفق عبر جدوده المولّدين، وهي حقيقة نسيت، كما نسي من قبل أن نهر تنتو أقدم نهر إسباني[١٠])). ويمضي البرنس في التدليل على إسبانية ابن حزم وأنه تعرّب معتمدا على ما قاله ابن حزم نفسه وهو:

أنا الشمس في أفق العلوم منيرة ولكنّ عيبي أن مطلعي الغرب

ولو أنني من جانب الشرق طالع أجدّ على ما ضاع من علمي النهب[١١]

---

* فرياتو: إيبيري تزعم الثوار في شبه جزيرة إيبيرية ضد الاستعمار الروماني. فدفع الرومان بمن اغتاله عام ١٤٠ قبل الميلاد.

* بريم: قائد ليبيري إسباني، اشتهر في الحروب الأهلية التي عمت إسبانية في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

صحيح ما قاله ابن حزم، إلا أن استنتاج البرنس غير دقيق، فابن حزم يقول ذلك في حساده، ويأتي في إطار الردّ على ما كان سائداً في عصر ابن حزم حول علاقة الأندلس بالمشرق، ويحتج على انصراف معاصريه عما هو أندلسي تجاه ما هو مشرقي وأن العلاقة بينهما لم تعد علاقة الأصل بالفرع، أو التابع والمتبوع، فالأمر إذن لا يتعلق بغربية ابن حزم.

ومما يسوقه أيضاً البرنس مؤيداً قوله بالإسبانية ابن حزم ماذكره عنه ابن سعيد في مغربه: "وكان يجادل عن علمه هذا من خالفه، على استرسال في طباعه، ومذْل بأسراره، واستناداً إلى العهد الذي أخذه عل العلماء من عباده" ليبيّننه للناس ولا يكتمونه"، فلم يك يلطف بما عنده بتعريض، ولا يزفّه بتدريج، بل يصك معارضه صدك الجندل، وينشقه أحرّ من الخردل، فطفق الملوك يقصونه عن قربهم، ويسيرونه عن بلادهم، إلى أن انتهوا به منقطع أثره، بقرية بلده، من بادية لبلة، وبها توفي رحمه الله سنة ست وخمسين وأربعمئة[١٢].

ويذكر البرنس لابن حزم قوله: "حد الشجاعة بذل النفس للموت عن الدين والحريم، وعن الجار المضطهد، وعن المستجير المظلوم، وعن الهضيمة ظلماً في المال والعرض، وفي سائر سبل الحق، سواء قلّ من يعارض أو كثر، والتقصير عما ذكرنا جبن وخور، وبذلها في عرض الدنيا تهور وحمق[١٣].

يتكئ البرنس على أقوال ابن حزم في نقد الولاة والفقهاء، وذمّ الكذب، والدعوة إلى الشجاعة في الدفاع عن الدين والنساء والمظلومين، إذ يرى في ذلك نزعة كيخونية - الدون كيخوتة أو كيشوتة بطل رواية سرفانتس الخالدة التي تحمل اسم البطل نفسه الذي كان يحلم بإشاعة العدل ورفع الظلم وتنظيم الكون، ثم رأى أحلامه تسقط الواحد تلا الآخر - لقد فات البرنس أن هذا النقد ليس خاصاً بابن حزم وحده وإنما نجده عند كثيرين غيره، فلو اطلع على سبيل المثال على رسالة ابن عبدون في "آداب الحسبة

والمحتسب" لما خلص إلى النتيجة التي انتهى إليها، وهذا المنزع ليس إسبانياً فحسب، بل هو مطلب إنساني عام، نجده لدى كل الشعوب والأقوام ولاسيما في الدين الإسلامي، الذي حضّ على تغيير المنكر بما يستطيع المرء من قوة، كما أن الساكت عن الحق شيطان أخرس".

كما يثبت البرنس قول ابن حزم: "إذا لم يكن بدّ من إغضاب الناس أو إغضاب الله عز وجل، ولم يكن لك مندوحة عن منافرة الخلق، أو منافرة الحق، فأغضب الناس ونافرهم، ولا تغضب ربك، ولا تنافر الحق[١٤]"، والغريب هنا في أمر البرنس أنه ينظر إلى كلام ابن حزم على أنه إسباني، ولا علاقة له بالروح العربية والإسلامية وهذا يذكرنا بحديث رسول الله (ص) أو بما في معناه (من أرضى الله بسخط الناس رضي الله وأرضى الناس فيه، ومن أرضى الناس بسخط الله، سخط الله عليه وأسخط الناس فيه).

هذا ويكشف لنا البرنس عن الموقف الإسباني لابن حزم تجاه الثروة:

"وذمني أيضاً بعض من تعسف الأمور، دون تحقيق بأني أضيع مالي، وهذه جملة بيانها أني لا أضيع منه إلا ما كان في حفظه نقص ديني، أو إخلاق عرضي، أو إتعاب نفسي، فإني أرى الذي أحفظ من هذه الثلاثة، وإن قل، أجل في العوض ما يضيع من مالي ولو أنه كل ما ذرت عليه الشمس[١٥]. وهنا نرد على البرنس وبكل بساطة إن من أهم خصائص العرب الكرم، وما عرف عن الرعيل الأول قبل الإسلام وبعده من الصحابة ومن تبعهم من بذل المال في سبيل الدين والعرض والنفس كفيل وحده بتفسير موقف ابن حزم، ولا علاقة له بموضوع إسبانيته.

لعل من أطرف ما استدل به البرنس على إسبانية ابن حزم قوله:

"ولنذكر أن الملامح النفسية التي ينسبها إلى ابن حزم من كتبوا سيرته، والصفحات التي خط عليها نفسه جانباً من سيرته تؤكد إسبانيته في عمق:

الشموخ، والعاطفة، والعنف، وطلاقة اللسان، واستقامة الكلمة، والوفاء، وتحليق الروح نحو الله، والقسوة في نقد الوطن، وحب الحقيقة، وشدة الخلق، والحماسة التي تبلغ حد التضحية بالحياة دفاعاً عن أفكاره وشرفه، والنضال من أجل المثل العليا على نحو ما ناضل "دون كيخوتة" واحتقاره للثروة في مواجهة الشرف، وكراهية النفاق، واحتقار الملق، والصلابة في الشدائد، وعبادة الصداقة، وجود يبلغ حد السرف، وسهولة الغضب والبلاغة... إنها صفات إسبانية عريقة، تؤكد في وضوح وصدق ما قاله ابن حيان وابن سعيد عن أصوله الإسبانية...كان ابن حزم إسبانياً في أخفى طيات.أعماق روحه، ومن العدل أن نضعه بين أسمى قمم الفكر الإنساني على امتداد كل العصور، لأن حجم وتعقد ونفاذ إنتاجه الأدبي والفلسفي والفقهي والعقائدي يعطي له هذا الحق(١٦).

إننا نوافق البرنس على ما ذكره عن ابن حزم، ولكننا إذا أمعنا النظر في هذه الصفات فهل هي غريبة عن العرب والمسلمين؟ أم أنها في صلب المفاهيم والقيم العربية ومع تقديرنا للبرنس وابن حيان وابن سعيد، فإننا نقول: إن هذه الصفات هي عامة وإنسانية وتشكل قواسم مشتركة لدى الجميع وليست حكراً على قوم أو ديانة معينة، وختاماً يمكننا القول: إن قلة مخزون البرنس من الثقافة العربية وعدم إحاطته بخلفياتها هو الذي حال دون عقده مقارنات صحيحة للكثير من آراء ابن حزم وبالتالي أوقعه في هذه المغالطات أو النتائج التي توصل إليها.

دوزي وابن حزم:

أما فيما يخص المستشرق دوزي(١٧)، فقد اكتشف عام ١٨٤١، نسخة وحيدة من مخطوطة (**طوق الحمامة في الألفة والآلاف**) لابن حزم في مكتبة ليدن بهولندا، وأفاد من هذا المخطوط في كتابه "تاريخ مسلمي الأندلس" وتوقف أمام نص لابن حزم، يبين فيه خطاه الأولى في عالم الحب، وسنورد النص الذي أورده دوزي ورأيه فيه:

"وإني لأخبر عني أني ألفت في أيام صباي، ألفة المحبة، جارية نشأت في دارنا، وكانت في ذلك الوقت بنت ستة عشر عاماً، وكانت غاية في حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخفرها ودماثتها، عديمة الهزل، منيعة البذل، بديعة البشر، مسبلة الستر، فقيدة الذام، قليلة الكلام، مغضوضة البصر، شديدة الحذر، نقية من العيوب، دائمة القطوب، حلوة الإعراض، مطبوعة الانقباض، مليحة الصدود، رزينة العقود، كثيرة الوقار، مستلذة النفار، لا توجه الأراجي نحوها، ولا تقف المطالع عليها، ولا معرس للأمل لديها، فوجهها جالب كل القلوب، وحالها طارد من أمها، تزدان في المنع والبخل، ولا يزدان غيرها بالسماحة والبذل، موقوفة على الجد في أمرها، غير راغبة في اللهو، على أنها كانت تحسن العود إحساناً جيداً، فجنحت إليها، وأحببتها حباً مفرطاً شديداً، فسعيت عامين أو نحوهما، أن تجيبني بكلمة، وأسمع من فيها لفظة، غير ما يقع في الحديث الظاهر إلى كل سامع، بأبلغ السعي، فما وصلت له من ذلك إلى شيء البتة، فلعهدي بمصطنع كان في دارنا، لبعض ما يصطنع له في دور الرؤساء، تجمعت في دخلتنا، ودخلة أخي -رحمه الله- من النساء، ونساء فتياننا ومن لاث بنا من خدمنا، ممن يخفّ موضعه، ويلطف محله، فلبثن صدراً من النهار، ثم تنقلن إلى قصبة كانت في دارنا، مشرفة على بستان الدار، ويطلع منها على جميع قرطبة وفحوصها، مفتحة الأبواب، فصرن ينظرن من خلال الشراجيب، وأنا بينهن، فإني لأذكر أني كنت أقصد نحو الباب الذي هي، أنساً بقربها، متعرضاً للدنوّ منها، فما هو إلا أن تراني في جوارها، فتترك ذلك الباب، وتقصد غيره في لطف لحركة. فأتعمد أنا القصد إلى الباب الذي صارت إليه، فتعود إلى ذلك الفعل من الزوال إلى غيره، وكانت قد علمت كلفي لها، ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه، لأنهنّ كنّ عدداً كثيرا.

وإذ كلهن يتنقلن من باب إلى باب. لسبب الاطلاع من بعض الأبواب على جهات لا يطلع من غيرها عليها. وأعلم أن قيافة النساء في من يميل إليهن أنفذ من قيافة مدلج

في لآثار، ثم نزلن إلى البستان فرغب عجائزنا وكرائمنا إلى سيدتها في سماع غنائها، فأمرتها، فأخذت العود وسوته بخفر وخجل لا عهد لي بمثله، وإن الشيء يتضاعف حسنه في عين مستحسنة، ثم اندفعت تغني بأبيات العباس بن الأحنف في فوز حيث يقول:

إني طربت إلـى شمس إذا غربت ... كانت مغاربها جوف المقاصير

شمس ممثلة في خلق جارية ... كأن أعطافها طي الطوامير

ليست من الإنس إلا في مناسبة ... ولا من الجنّ إلا في التصاوير

فالوجه جوهرة والجسم عبهرة ... والريح عنبرة والكل من نور

كأنها حين تخطو في مجاسدها ... تخطو على البيض أو حد القوارير

فلعمري لكأن المضراب إنما يقع على قلبي، وما نسيب ذلك اليوم، ولا أنساه إلى يوم مفارقتي الدنيا، وهذا أكثر ما وصلت إليه من التمكن من رؤيتها وسماع كلامها، وفي ذلك أقول:

لا تلمها على النفار ومنع الـ ... وصل ما هذا لها بنكير

هل يكون الهلال غير بعيد ... أو يكون الغزال غير نفور(١٨)

بعد أن نقل دوزي هذا النص بلغة فرنسية شفافة عقب عليه قائلا:

"يلاحظ دون ما شك في القصة التي انتهينا من قراءتها، ملامح عاطفة رقيقة غير شائعة بين العرب، الذي يفضلون بصفة عامة الجمال المثير والعيون الفاتنة، والابتسامة الآسرة، والحب الذي كان يحلم به ابن حزم، يختلط دون، دون ريب، بما هو حسي جذاب، وعندما يكون الحبيب المنشود اليوم غيره بالأمس، يصبح الإحساس.

أقل قسوة ولكن ما فيه أيضاً ميل إلى ما هو أخلاقي، من رقة بالغة واحترام وحماسة، وما يأسره جمال رائق وديع، فياض بالكرامة الحلوة، لكن يجب ألا ننسى أن هذا الشاعر الأكثر عفة، وأكاد أقول الأكثر مسيحية، بين الشعراء المسلمين، ليس عربياً خالص النسب، إنما هو حفيد إسباني مسيحي، لم يفقد كلية طريقة التفكير والشعور والذاتية لجنسية هؤلاء الأسبان المتعربين يستطيعون أن يهجروا دينهم، وأن يبتهلوا بمحمد بدل المسيح، وأن يلاحقوا بالسخرية إخوانهم القدامى في الدين والوطن، ولكن يبقى دائماً في أعماق أرواحهم شيء صاف رهيف روحي غير عربي(١٩).

أود الإشارة إلى أن دوزي كان حجة في الدراسات الأندلسية ولاسيما في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وبالتالي فكلامه عن ابن حزم وجد قبولاً كبيراً في أوروبة وقبل أن ندلي برأينا فيما ذكره دوزي عن نص ابن حزم، نود الإشارة إلى رأي مستشرق آخر جاء بعد دوزي وهو الراهب الإسباني ميغيل آسين بلاثيوس، إذ خص ابن حزم بدراسة عميقة، وهو عالم وحجة أيضاً في مجال الدراسات الأندلسية، وقد تناول أفكار دوزي في النص السابق والتي تتلخص في اعتباره ابن حزم نموذجاً للحب الروحي العفيف، وهو ما يسميه علماء النفس بالحب الأفلاطوني، وأن نفسيته ليست من خصائص الجنس العربي وإنما حبه الأفلاطوني أو الرومانتي ما هو إلا ارتداد لخصائص جنسه المسيحي والإسباني، وبالتالي فكان ابن حزم ضحية الحب الأول في شبابه، يبكي بلا أمل، الحظ التعس لقلبه المصدود.

ويرد بلاثيوس على دوزي في أن ابن حزم ليس كما يقدمه، وسرعان ما يدخل في حب اخر، لينسى أحزان حبه الأول ويورد لنا النص التالي لابن حزم:

"وذلك أني كنت أشد الناس كلفاً، وأعظمهم حباً، بجارية لي كانت فيما خلا اسمها نعم وكانت أمنية المتمني، وغاية الحسن خلقاً وخلقاً، وموافقة لي، وكنت أبا عذرها، وكنا قد تكافأنا المودة، ففجعتني بها الأقدار، واخترمتها الليالي ومر النهار، وصارت ثالثة

التراب والأحجار، وسنّي حين وفاتها دون العشرين سنة، وكانت هي دوني في السن، فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابي، ولا تفتر لي دمعة على جمود عيني وقلة إسعادها وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف.."[٢٠].

ويعلق بلاثيوس بعد إيراد هذا النص لابن حزم، أنه لم يكن هذا الحب الثاني هو الأخير لأيام شبابه وبعد ذلك بأعوام عندما استطاع العودة إلى قرطبة وسط مغامراته السياسية، وقع في حب آخر، ويذكر نصاً لابن حزم يحدثنا فيه عن نفسه: "ولقد ضمني المبيت ليلة في بعض الأزمان عند امرأة من بعض معارفي، مشهورة بالخير والصلاح والحزم، ومعها جارية من بعض قراباتها، من اللاتي قد ضمها معي النشأة في الصبا، ثم غبت عنها أعواماً كثيرة وكنت تركتها حين أعصرت، ووجدتها قد جرى على وجهها ماء الشباب، ففاض وانساب، وتفجرت عليها ينابيع الملاحة، فترددت وتحيرت، وطلعت في سماء وجهها نجوم الحسن فأشرقت وتوقدت، وانبعثت في خديها أزاهير الجمال فتمت واعتمت، فأتت كما قال:

فريدة صاغها الرحمن من نور — جلت ملاحتها عن كل تقدير

لو جاءني عملي في حسن صورتها — يوم الحساب ويوم النفخ في الصور

لكنت أحظى عباد الله كلهم — بالجنتين وقرب الخرد الحور[٢١]

من خلال هذه النصوص أراد بلاثيوس أن يقول: إن ابن حزم لم يخفق في حبه مرة واحدة، وإنما كان ذلك مرات عدة، بالتالي لم يعرض دوزي لهذه الحالات كي لا ينال من حب ابن حزم المثالي الأفلاطوني، ومع ذلك لا يمكن الإنكار أنه ينطوي على مشاعر رقيقة ولا تعرف ما هو حسي، وربما كان ذلك نتيجة ميل فطري عنده، وهذا ما صرّح فيه ابن حزم غير مرة في طوقه، وهو عزوفه عن كل ما هو جنسي، وإن

اجتماع الأرواح وليس التقاء الأبدان هو الذي يبقي على الحب، ويـرى بلاثيـوس أن دوزي تأثر بما هو شائع معاد عن حسية الحب عن الجنس العربي أكثر مما تأثر بمـا هو حق، وكانت تنقصه وغيره في ذلك العصر. تحليـل المعـاني العظيمـة لـلأدب الإسلامي عامة(٢٢). ويضيف بلاثيوس أنه منذ العصر الجاهلي ظهر لون من الغـزل الروحي والعفيف كالحب المسيحي ويضرب مثالا على ذلك ما ظهر فـي الصحـراء العربية لدى قبيلة بدوية من بني عذرة، إذ كانوا يفضلون الحـزن الحلـو المستسـلم "المشوق على العواطف الحادة للغرائز الحيوانية وهاهو جميل بن معمر الذي تتجسـد فيه العفة والطهارة، مات من الحب دون أن يجرؤ في يوم من الأيـام أن يمـس يـد محبوبته بثينة وهو القائل فيها:

لقد ذرفـت عينـي وطـال سـفوحها وأصبح من نفسي سـقيما صحيحـها

ألا ليتنـا نحيـا جميعـا وإن نمـت يجاور في الموتى ضريحي ضريحـها

فما أنا فـي طـول الحيـاة براغـب إذ قيل قد سـوّي عليـها صفيحـها(٢٣)

يؤكد بلاثيوس الحب العذري والعفيف لبني عذرة، المطهّر بحـرارة الزهـد البـدوي وباختصار يقول بلاثيوس:

((إذا كان ثمة أثر من مشاعر مسيحية حقيقية، يمكن أن ينبض بها قلب ابـن حـزم، العدو اللدود للعقيدة المسيحية، وللأخلاق الإنجيلية، فليست بالتأكيد المشاعر التي ورثها عن أجداده عبر دمائهم، وإنما التي اكتسبها لا شعوريا، وعلى الرغم منه، بفعل عدوى لا محيص عنها، لجو المثالية المسيحية القوي، والذي ازدهرت فيه الحضارة الأدبيـة الإسلامية في المشرق طوال حياتها...))(٢٤).

هكذا نجد بلاثيوس المعروف بغزارة علمه، وتمكنه من العربية ومعالجته الموضوعيـة للقضايا الأدبية، إلا أن كتاباته كرجل دين كانت تخضع لمراجعة السـلطات الكنيسـية

ورقابتها، ومن هنا استطاع المستشرق بلاثيوس وبكل مهارة أن يرد الغزل العـــذري كله لا الأندلسي فحسب إلى أصول مسيحية، وكذلك المستشـــرق دوزي والمعـــروف بكرهه لرجال الدين وبعده عن التعصب، إلا أنه تأثر وكما أسلفنا سابقاً بما كان شـــائعاً في أوروبة في عصره، أن السمو في الحب وليد المسيحية. ونحن بدورنا نجـــد كـــلا الرأيين ينقصهما المعرفة الدقيقة لواقع الأندلس وتاريخه وبهذا الشأن نثبت رأي الســـيد الطاهر مكي إذ يقول:

"إنهما أي دوزي وبلاثيوس، يعرفان جيداً أن مسيحية الإسبان عند الفتح كانت رقيقـــة وأن علم الناس بها كان مشوشاً باستثناء رجال الدين، وأن جانبا لا بأس به من النـــاس كانوا وثنيين. وإذا كان من المرجح أن ابن حزم ينحدر من أصـــول إســـبانية، فمـــن المرجح أيضاً أن أجداده لم يكونوا قد اعتنقوا المسيحية عند دخول الإسلام، لأنه مـــن المنطقة الفقيرة في جنوب غربي إسبانية، وغالبية أهلها عند الفتح كانوا من الوثنييـــن. وعلى أية حال فإن ما كان يجري في الجانب العربي والإسلامي من الأندلـــس مـــن مظاهر الحب الحسي، كان يجري مثله وأفحش منه في الجانب الإسباني المسيحي، ولم تجر في عروقهم دماء عربية، واتخذ جدودهم الإسلام ديناً(٢٥).

ويورد السيد مكي بعض الأمثلة عن الجانب المادي في الحب الـــذي يتنـــاقض مـــع الروحية المسيحية التي توقف عندها المستشرقان السابقان ومـــن هـــذه الأمثلـــة، أن الفونسو السادس (ت ١٦٠٣) ملك قشتالة، أفنى حياته يقاتل من أجل الكاثوليكية ودفاعاً عنها، إلا أن طقوسها لم تمنعه من أن يجمع بين ست زوجات في وقت واحد، وكـــان على علاقة جنسية مع أخته آراكة (urraca)، وذكر ذلك ابـــن عـــذاري فـــي البيـــان المغرب، وهو من المصادر المعاصرة لألفونسو، كما تحدثت عن هذه العلاقة، الأغاني الشعبية الإسبانية، منكرة أحياناً، ومتشفية أحياناً أخرى، أما إنريك الرابـــع (ت ١٤٧٤) ملك قشتالة الإسباني الكاثوليكي كان شاذاً جنسياً مخنثاً، يلاحـــق مـــن لا يخضعـــون لرغباته المخجلة من حاشيته، بالقتل والسجن والنفي، ولم ير حرجـــاً فـــي أن يعيـــن

عشيقته كتالين سندوفال رئيسة لدير راهبات القديس بطرس، في ضواحي طليطلة، بعد أن طرد رئيسته السابقة، متحدياً أوامر المطران، وقرار حرمانه من الكنيسة(٢٦). ومن الشائع أيضاً أن كارلوس بن فيليب الثاني، كان على صلة غرامية بزوجة أبيه إيزابيل، ولذلك سجنه، ومات في السجن في ظروف غامضة، مسموماً أو مذبوحاً أو مخنوقاً، فبكته إيزابيل بكاءً مراً، فأصدر لها أمراً إمبراطورياً بأن تكف عن البكاء عليه(٢٧). لا نريد أن نسهب في ذكر مثل هذه الأمثلة، فهي كثيرة جداً، والمصادر والمراجع العربية والأجنبية تعج بمثل هذه الأخبار والموضوعات، وختاماً أود القول" إن ربط الحب العذري أو الروحي أو العفيف ومهما تعددت صفاته بدين ما، أو جنس ما، فهو مخالف للواقع التاريخي، ومتناقض مع أبسط المفاهيم العلمية، ولا يمكن لأي ثقافة ما أو حضارة معينة أن تدعي فرادتها بمعزل عما حولها، وعما قبلها وبعدها، فالحضارة الإنسانية كل متكامل، فالسابق يؤثر باللاحق، ويتأثر به وفق الظروف الموضوعية التي تحيط بالجانبين، فالعرب أخذوا من الثقافة اليونانية والرومانية التي سبقتهم وعادوا ليؤثروا فيها، وينقلوا إنتاجهم إلى اللغات الأخرى، إذ ترجمت مئات الكتب العربية إلى اللغات الأجنبية وخاصة الإسبانية، فالثقافة العربية في الأندلس كانت صلة الوصل بين الوطن العربي وأوروبة، تنقل المعرفة بضروبها المختلفة، وتنشرها في أصقاع المعمورة الأوروبية، ممهدة بذلك الطريق أمام النهضة الأوروبية التي وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم . إلا أن ما حصل في عام ١٤٩٢، عام اكتشاف الآخر، أدى إلى القضاء على هذا الآخر، وفي العام نفسه بدأ فيه مسلسل طرد الآخر من أوروبة، وسقطت غرناطة، وتم القضاء على التعددية في إسبانية، وبدأ اختراق الآخر عالمياً، مما أدى إلى توزيع العالم الثالث إلى ممتلكات أوروبية ونهبه لمدة خمسة قرون، مجمّلاً بالإعلام المزيف المشوه للحقائق، التي روّج لها كثير من المستشرقين غير المنصفين، أما اليوم فما أحوجنا إلى الباحثين الدارسين المنصفين، الذين يتصفون بمنهجهم العلمي وبحثهم الموضوعي بعيدين كل البعد عن التعصب

والكراهية، يؤمنون بحضارة إنسانية مطلوب من الجميع أن ينكبّ على دراسة الحضارات البشرية من خلال حوارها وليس صراعها، وفي ذلك السبيل إلى إبراز الوحدة الإنسانية، وإن ما وصلت إليه بعض دول العالم من ازدهار حضاري في العصر الحالي، ما هو إلا حصيلة الجهود المتراكمة للحضارات الكبرى التي تركت أثرها على تاريخ البشرية وتقدّمها وبالتالي فمن حق الأمم كافة أن تشارك في بناء الحضارة الإنسانية بناءً بعيداً عن التحيز وازدواجية المعايير، التي يشهدها المجتمع الدولي الآن في ظل هيمنة القطب الواحد، وسيطرة القوى الصهيونية وتحكّمها في هذا القطب، فهذا هو العربي الفلسطيني طفلاً كان أن شيخاً، يقتل صباح مساء، في مكتبه وفي غرفة نومه، فهو الإرهابي في ظل هذه المعايير!! والإسرائيلي العنصري القاتل، الذي لم يشهد التاريخ مثيلاً له فيقتل ويذبح ويهدم البيوت ويقلع الأشجار ويحرق الأرض ومن عليها، فهو الضحية التي تدافع عن نفسها!! ولكن إلى متى سيستمر هذا الوضع الشائن فلا بد وأن ينتصر المدافع عن أرضه وعرضه وينهزم الظالمون الحاقدون، وتعود الأرض والحقوق لأصحابها طال الزمن أم قصر.

الهوامش

(١) أهم تلاميذه: خوليان ريبرا (J. rebera)، آسين بلاثيوس (Asin Placios). آنخـل جنثالث بالنثيا (A.G. Pa;encia) وغارسيا غوس (G. Gomes).

(٢) الإسلام والعرب في دراسات العلماء الأسبان (الفصل المكتوب عن كوديرا).

(٣) ابن بسام، الذخيرة ١/١/١٤٢ نقلاً عن د. إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة: ٣٠٤.

(٤) الحميدي، جذوة المقتبس: ٢٩٠، نقلاً عن المرجع نفسه.

(٥) د. إحسان عباس، ذكر سابقاً: ٣٨٥.

(٦) المرجع السابق: ٣٠٤-٣٠٥.

(٧) الطاهر مكي، دراسات عن ابن حزم: ٢١١-٢١٢.

(٨) المرجع نفسه: ١٤٥.

(٩) المرجع السابق: ١٤٦.

(١٠) نفسه: ١٤٧.

(١١) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ١/٣٥٦.

(١٢) المرجع نفسه: ١/٣٥٥.

(١٣) الطاهر مكي: المرجع السابق: ١٦.

(١٤) المرجع نفسه: ١٦١.

(١٥) المرجع نفسه: ١٦٢.

(١٦) المرجع نفسه: ١٨١-١٨٢.

(١٧) رينهارت دوزي، مستشرق هولندي ١٨٢٠-١٨٨٣، متخصص في الدراسات الإسلامية.

(١٨) ابن حزم، طوق الحمامة في الألفة والآلاف: ١٠٩-١١٠.

(١٩) الطاهر مكي، المرجع السابق: ١٩١-١٩٢.

(٢٠) ابن حزم، طوق الحمامة: ٩١.

(٢١) المرجع السابق: ١٢٦-١٢٧.

(٢٢) الطاهر مكي، ذكر سابقاً: ١٩٤-١٩٧.

(٢٣) ديوان جميل بثينة: ٢٩.

(٢٤) الطاهر مكي، ذكر سابقاً: ١٩٩.

(٢٥) المرجع السابق: ٢٠٠.

(26) Maranon Gregorio: EnsayoBiologica Enrique, Madrid, 1960

(27) Plandal Ludwing: Juna la Loca, Madrid, 1959.

مصادر البحث ومراجعه

- ابن حزم، **طوق الحمامة في الألفة والآلاف**، تحقيق حسن كامل الصيرفي، تقديم ابراهيم الأبياري، القاهرة، ١٩٦٤.
- **رسائل ابن حزم الأندلسي**، تحقيق د. إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت، ١٩٨٠.
- **ابن سعيد المغرب في حلى المغرب** (٢)، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ١٩٦٤.
- جميل بثينة، **ديوان جميل بثينة**، دار صادر ، بيروت، ١٩٦٦.
- عباس إحسان، **تاريخ الأدب الأندلسي**، عصر سيادة قرطبة(٥)، دار الثقافة ، بيروت، ١٩٧٨.
- العباس بن الأحنف، **ديوان العباس بن الأحنف**، دار صادر، بيروت ١٩٧٨.
- مكي الطاهر، دراسات عن ابن حزم وكتابه ((**طوق الحمامة**)) (٣)، القاهرة، ١٩٨١.
- Maranon Gregorio: EnsayoBiologica Sobre Enrique, Madrid, 1960
- Plandal Ludwing: Juna la Loca, Madrid, 1959.

الخطط البابوية تجاه مصر والمشرق العربي في القرن الرابع عشر حسب ما جاء في كتاب الأسرار لمارينو سانوتو

الدكتور: ابراهيم محمود زعرور

الخطط البابوية تجاه مصر والمشرق العربي في القرن الرابع عشر حسب ما جاء في كتاب الأسرار لمارينو سانوتو

الدكتور: ابراهيم محمود زعرور

أحدث تحرير عكا سنة ١٢٩١م. أثرا هائلا شمل الغرب الأوروبي كله(١). وهنا شرع رجال الكنيسة ورجال السياسة والحكم. ورجال الفكر والقلم. كل بدوره وحسب موقعه يعمل في سبيل الإعداد لمشروع حملة صليبية جديدة تتوفر لها سبل النجاح، وتوفرت هناك قناعة شاملة أن الطريق إلى فلسطين يمرّ الآن عبر مصر. وهذه القناعات كانت قد تأسست بالفعل منذ أحداث الحملة الثالثة. ومعروف أنه جرت عدة محاولات لاحتلال مصر جبهويا، وكلها باءت بالإخفاق. ولهذا وجد من اقترح الهجوم على مصر جانبيا، وهذا ما حاوله لويس التاسع لدى نزوله القاتل له. على الساحل التونسي، راجع الأوربيون خططهم أكثر من مرة وسعوا إلى الاستفادة من دروس ما وقع خلال قرنين من الزمن. وكان "المحامي الفرنسي بيير دوبوا" قد أوضح في مؤلفه **"كتاب الاسترداد"** عن مشروع أوسع وأكبر من استرداد الأرض المقدسة، مشروعا قصد بالفعل إقامة دول كاثوليكية ليس في أوروبة الشرقية، بل المشرق العربي كله مع

تونس والمغرب، وأن ترتبط هذه الدول كلها مع باريس مقر المملكة الفرنسية، وأراد دوبوا، تحويل البابوية من روما إلى فرنسة لتكون حكراً على الفرنسيين.

وندع دوبوا ومشروعه الاستعماري الهائل لنتحول نحو إيطالية، ففي إيطالية عاصر كاتب من رعايا البندقية اسمه: مارينو سانوتو Marino Sanuto، واشتهر بلقب تورسيللو Torsello، كتب بعد تحفيزات استمرت سنوات طوال كتاباً اسمه "كتاب الأسرار للصليبيين الحقيقيين لمساعدتهم على استرداد الأرض المقدسة" قدمه مارينو في سنة ١٣٢١ إلى البابا يوحنا الثالث والعشرين (ويذكر أحياناً باسم الثاني والعشرين)...

ولد سانوتو [١٢٧٠- ١٣٤٣م]، في مدينة ريفوالتي Rivoolti من أعمال جمهورية البندقية في منطقة سينت سيفرو Seivero ، وكان والده من وجهاء البندقية وعضواً في مجلس شيوخها، وقد شغل أدواراً هامة في حياة البندقية وشؤونها البحرية[٢].

ونشأ سانوتو نشأة دينية، وغالباً ما مارس العزف في الكنيسة على آلة موسيقية جديدة، ألمانية المنشأ، عُرفت باسم تورسيللو Torsello ولاختصاصه بالعزف على هذه الآلة بات يُعرف بلقب تورسيللو.

وتقلّد سانوتو عدة مناصب، من ذلك أن عُيّن مستشاراً في محكمة بلرم، ثم في البندقية نفسها، وبحكم الأجواء التي عاشها شارك بالاهتمام بالحروب الصليبية وبأوضاع المشرق العربي والأرض المقدسة وسوى ذلك، وازداد هذا الاهتمام منذ سنة ١٣٠٧م، أيام البابا كليمنت الخامس، وإلى هذا البابا قدّم مذكرة حول أفكاره وما يراه من مشاريع وكان ذلك سنة ١٣٠٩م، ومعروف أن هذا البابا عُدّ فرنسياً، وفي فرنسة عاش، وكان قد وصل إلى البابوية سنة ١٣٠٥م، أي أن سانوتو تحرّك بمشروعه بعد بيير دوبوا بوقت قصير، وعلى هذا فقد عبّر مع دوبوا عن تيارات جيلهما، ولا بدّ هنا

من افتراض وجود مؤثرات متبادلة غير مباشرة بين الرجلين وأنهما نهلا من روح العصر وعاشا طبيعته وتأثرا بكل ما فيه.

وكان ملك فرنسة آنذاك -فيليب الجميل- حفيد القديس لويس، وصحيح أن هذا الملك لم يعرف جده، ولكنه حاول أن يتلبس شخصيته، ولاسيما في المجال الديني والمشاعر الصليبية، وقد وصفه نوغاريت، الذي كان المستشار الرئيسي لفيليب، من عام ١٣٠٣م حتى ١٣١٣م، وصفاً يذكّرنا بأوصاف جوانفيل للقديس لويس، وكان جوانفيل قد كتب كتابه أيضاً في هذه الآونة، وكان فيليب الجميل في الثالثة من عمره عندما توفي جده، وقد تسلم العرش سنة ١٢٨٥م، وهو في السابعة عشرة من عمره[٣]، وحين تسلم الحكم كانت المملكة الفرنسية مثقلة بالديون، وتحتاج إلى أكثر من ثلاثمائة سنة لوفاء ما عليها، لهذا عمد إلى إنقاص عيار العملة، وإلى فرض ضرائب ثقيلة على البرجوازية في مملكته، وإلى محاولة مصادرة الممتلكات الكنسية وقام بتصفية طائفة الداوية واستولى على ثرواتها، وفعل ذلك وهو يتذكر كيف تمنع الداوية عن مساعدة جده في دفع المتوجب عليه من فدية بعد فكاك أسره من المنصورة، وأدّت أعمال فيليب هذه، وصراعاته مع إدوارد الأول ملك إنكلترا ونشاطاته الأخرى في سبيل الاستقلال الدنيوي إلى الصراع مع البابا بونيفيس الثامن، وإلى تبادل التهم والرسائل القاسية، لا بل إلى محاولة اعتقال هذا البابا في سنة ١٣٠٣م، في أناني، وكتب فيليب في إحدى المرات إلى بونيفيس يقول: "من فيليب، بفضل الرب ملك فرنسة، إلى بونيفيس العامل بمثابة حبر أعظم، قليلاً من الصحة أتمنى لكم، أو لا شيء، لتكن حماقتكم العظمى معروفة واعلموا أننا في المسائل الدنيوية لا نخضع لأحد أبداً".

وقام البابا بونيفيس بحرمان الملك الفرنسي كنسياً، وقد جرت صراعات بين البابا والملك دفع بنوغاريت ودوبوا للتشدد في ضرورة الإصلاح الكنسي الشامل، وأن هذا شرط أساسي لاسترداد الأرض المقدسة...

ولا شك أن سانوتو الإيطالي الذي عمل في الكنيسة قد عاش هذه الأجواء، وتأثر بـها، ولكن ذلك لم يثبط من عزيمته، على أساس أن الدعوة الصليبية كفيلة بإحداث التغيرات الداخلية الشاملة في العالم الكاثوليكي، وفي سبيل مشروعه ارتحل سانوتو إلى بلـدان المشرق، فزار بلاد الشام والاسكندرية، ويحتمل أنه زار أيضاً تونس ثم منطقة القبـائل في الجزائر الحالية، وعرف الأراضي البيزنطية واهتم كثيراً بدولة أرمينية في كليكيـة الشامية، وأثارته حملات السلطان الظاهر بيبرس وغيرها...

واكتمل مشروع كتابه سنة ١٣٢١م، حيث قدمه إلى البابا، فشكل البابا لجنة لفحص هذا الكتاب وبعد ذلك تابع عمله وقدم نسخاً عن كتابه سنة ١٣٣٣م إلى بعض ملوك وحكام عصره(٤).

وقد عُدّ كتاب بيير دوبوا مرآة لعصره، وقيل إنه من الصعب الحديث عن تأثير كتـاب دوبوا على السياسة الفرنسية الرسمية، لأن دوبوا عجز عـن الدخـول إلـى دائـرة المستشارين الملكيين، وعلى عكس دوبوا أثر كتاب سانوتو على السياسة الأوزوبيـة والبابوية وعلى مشاريعهما الصليبية، وواضح بالنسبة لنا لدى تعاملنا مع أفكار دوبـوا أنه قد نهلها من مصادر عصره وسواه ولم يبتكرها، كذلك الأمر نجد أن سانوتو قـد نهل من كتابات معاصريه، ولاسيما مما كتبه الراهب الفرنسيكاني فيدانزيو دي بادوفـا Fidenzio de Padova الذي كتب عن تحرير الأرض المقدسة(٥)...

هذا وقد تزوج سانوتو متأخراً، ورزق بولد واحد، كما أنه كتب رسائل أخـرى مـع بعض الكتب غير كتاب الأسرار، وجاء كتاب الأسرار بمثابة موسوعة كبيرة، ليس كل ما فيها عن الحروب الصليبية أو يهمها بشكل مباشر، لذلك وقع الاختيار على النقـاط الهامة المتصلة بالموضوع الذي نحن بصدد البحث فيه ودراسته وتمحيصه(٦)، ومـن فضول القول، الحديث كثيراً عن أهمية محتويات كتاب سانوتو، ولعله يكفي القول إنـه

كان يتوجب على العرب التعرف على هذا الكتاب ومضامينه منذ زمن طويل ونحن نرى فيه أسس المشروع الصهيوني الذي طُبّق في مشرقنا العربي، كما نرى فيه نصاً أخطر بكثير من "بروتوكولات حكماء صهيون" وربما نرى ما يجري في منطقتنا العربية من ممارسات، فيه خروج على المبادئ التي توحّد العرب تؤهلهم للدخول إلى الألفية الثالثة بكل ما فيها من تحديات مصيرية تواجه مستقبل الأمة العربية ومصالحها وقضاياها العادلة وأكثر من هذا، ما يتصل بوجودها واستمرارها في أداء دورها الحضاري والإنساني.

لنأخذ ما كتبه سانوتو وما ذهب إليه وما هي الدوافع الحقيقية لقيامه بمثل هذا العمل الخطير وهو حلقة في سلسلة بدأت ولم تتوقف إلى يوم الناس هذا، يقول صاحب كتاب "الأسرار" في ٢٤ أيلول لعام ١٣٢١م، دخلت أنا مارينو سانوتو، الملقب بتورسيللو، من البندقية، بنعمة غامرة إلى حضرة أبينا، قداسة البابا وقدمت له نسختين من كتاب حول استرداد الأرض المقدسة، والحفاظ على المؤمنين، بنسخة مغلفة باللون الأحمر، والثانية بصليب، وقدمت له أيضاً أربعة مصورات أرضية الأول عن البحر المتوسط، والثاني عن الأرض والبحر، والثالث عن الأرض المقدسة، والرابع عن أرض مصر، وكل ما كنت عازماً على قوله له، سلمته إياه مكتوباً كما هو وارد فيما يلي(٧):

(وقبل الأب المقدس كل الذي ذكرته أمامه، بكل لطف وعرفان، وأمر أن تتلى عليه المقدمة، وجزء من المحتوى وبعضاً من النص بحضوري) ولم يكتفِ بهذا بل سألني عن عدد من القضايا واستوضح حولها، وقد أجبته عن كل ما سأل عنه، وفي الختام قال لي ما يلي: "أريد إخضاع هذا الكتاب للفحص" فأجبته بكل احترام: "هذا ما يطيب لي على أن يتسم الفاحصون بالأمانة"، فأجابني: "لا يساورك أدنى شك حول هذا الشأن"، وأضاف مطمئناً لي يقول: "يمكنك الذهاب حيثما ترغب"، وعندها غادرت، وتلطف بذاته فاستدعى بوانتيودي أست Boentiade Ast، وكان من رهبنة الدومنكان،

ونائباً أسقفياً في بلاد أرمينية، ويعقوب دي كامرينو Eacab de Camerino من رهبنة طائفة الفرنسيكان الملتحين، وكان عائداً للتو من زيارة لإخوانه في بلاد فارس، ومتى الفيرصي، وبولينو من التابعية البندقية، وكانا أيضاً من طائفة الرهبان الفرنسيكان وناولهم نسخة الكتاب المغلقة بشكل صليب وطلب القيام بتفحصه بكل دقة وأن يرفعوا تقريراً حوله، إليه. وانصرف الجميع نحو دراسة الكتاب بدقة وأمانة، وأكبوا على عملهم في بيت بولينو Poulino وكتبوا تقريرهم ورفعوه بالإجماع وبعد مضي ثلاثين يوماً من تسلم البابا التقرير، وفي يوم السبت من بعد الظهر استدعى الرهبان المذكورين، ثم قابلني أنا أيضاً بترحاب، وسأل الرهبان المذكورين مراراً: "هل أنتم على رأي واحد بهذا الصدد؟"، فأجابوه باحترام: "نعم أيها الأب الأقدس، نحن على رأي واحد ومتفقين وقد كتبنا رأينا حول الموضوع"، وسألهم البابا عدة أسئلة أجابوه عليها، وأجبت أنا على بعضها، ثم أنهى الجلسة بقوله: "لقد تأخر الوقت، اتركوا تقريركم الخطي هنا، ولسوف نستدعيكم من بعد"، وهكذا غادرنا وبقي الكتاب عنده مع التقرير(٨).

وأضاف مارينو سانوتو صاحب كتاب الأسرار(٩)، الذي قال عنه إنه الموضوع المتعلق بشكل خاص بالصالح العام للمسيحية جميعاً في الماضي والحاضر، وأنا لست مدفوعاً من قبل أي ملك أو أمير أو جماعة أو محرّض من قبل أي شخص على الإطلاق، بل مدفوعاً بمحض إرادتي ورغبتي، وتقدّم إلى قداسة البابا بكل تواضع وتقوى، ذلك أن سانوتو بعد التأمل ملياً حول الخير العميم، وحول المحصلة التي من الممكن لقداسته تحقيقها بنفقة زهيدة، لا بل من دون أية نفقة أو إنفاق، والتمكن من إذلال أعداء الإيمان المسيحي وإبادتهم، وبخاصة سلطان القاهرة، وأزبك خان التتار المتحكمين بالبلاد الجنوبية، وهو الذي انتشر خبره لدى عدة شعوب على أنه قوي جداً، ومثله الترك الذي هاجموا بلا هوادة بلاد الإمبراطورية البيزنطية حتى تخوم جزيرة المورة، التي هي تحت حكم اللاتين، يضاف إلى هذا أنه من الممكن مساندة

سلطان القاهرة، وخان الجنوب، وقد حدث فيما مضى أنه دافع بكامل قدرته عن مملكة أرمينية ضد المسلمين المعتدين.

ولقداستكم تقدير ضرورة إبادة الأمة الإسلامية، ومحو العقيدة التي نشرها محمد (ص)، ولتعلم قداستكم أن هذا أمر ممكن تحقيقه، حسبما سيتضح الأمر لكم من خلال ما جاء في كتابي، وسترون أنكم ستتمكنون -بعون الرب- بسهولة ويسر من احتلال أرض الميعاد المقدسة، ومعها باقي المناطق المجاورة(١٠)، وسيكون بإمكان قداستكم إعادة الإغريق وباقي الهراطقة إلى حضن الكنيسة الرومانية الأم، وأستطيع أنا أن أقول بكل تأكيد: لقد تشوقت نفسي إلى مثل هذا اليوم، اليوم الذي أُجاب فيه إلى ما أنتظر، وأستطيع فيه المثول فيه أمام حضرتكم، لأهدي إليكم كتبي كلها.

وكنت في سبيل مشروعي هذا، قد عبرت البحر خمس مرات(١١)، حيث ذهبت إلى قبرص، وثانية إلى أرمينية، وثالثة إلى الاسكندرية، كما ذهبت إلى رودوس، وكنت قبل أن أقوم بهذا كله قد أقمت مدة طويلة في كل من الاسكندرية وعكا، وذلك دون خرق للحظر الذي فرضته الكنيسة، وقضيت على كل حال وقتاً طويلاً من أيام حياتي في جزر بلاد الإغريق، ولهذا أعدّ نفسي مطلعاً بشكل جيد على أحوالها، ولاسيما على الأوضاع في إمارة المورة، وقدمت الآن حتى أضمن وضع هذه الكتب أمام قداستكم من البندقية عبر طريق البحر إلى بروغو Beugu، ثم أخذت طريقي براً إلى بلادكم، وكلي أمل أن تنظر قداستكم في أمر هذه الكتب، أو تتكرموا بتسليمها إلى من يتفحصها، كما يطيب لي راجياً من الخالق العلي، ومن علمكم الشائع، ومن لطف قداستكم المعروف في كل مكان، أن تعلموا ما هو نافع وصالح في هذا المقام.

وقد تضمن الكتاب عدد كبير جداً من الفصول بأدق التفاصيل حول الأسباب المسوّغة لتوجب يقظة الكنيسة، والطرق الواجب اتخاذها والوسائل المتوجب استخدامها

لاسترداد الأرض المقدسة[١٢]، وأهمية وضرورة تنظيم الجيش المسيحي وحكامه، والأسرار التي يحملها الصليبيين الحقيقيين المعنيين بالسيطرة على المشرق وبلاد مصر والمغرب وسواها، وحول الألقاب التي تطلق على سلطان المسلمين، وكيفية الحفاظ على الأرض المقدسة بعد استردادها، وطرق إضعاف قدرة سلطان مصر، وكيفية محاربته بقطع خطوطه التجارية، ووصف بلاد مصر، والمناطق الخاضعة لنفوذه، وكيفية مراقبة البحر وحراسته، وكيفية تأهيل الجيش للحرب ومقدار التكاليف، وتحديد الطرق التي يرى موائمتها لركوبها من قبل الجيش للوصول إلى مصر، وكيف يمكننا التعامل مع التحصينات وملحقاتها والاستيلاء عليها، وعملية بناء سور أمني في مصر البحرية والمزيد من تحصينها بحرياً للصمود في وجه الغالبين، والأفارقة والقبارصة وأتيلا واللومبارد وسواهم، والاستعدادات التي يمكن للمسيحيين بوساطتها حماية أنفسهم في مصر ضد جيرانهم المسلمين، مثلما فعل البنادقة، وكيف يمكن للصليبيين زعزعة أركان مصر، وحول إمكانية مهاجمة السلطان من جهة النيل، وطرح تساؤلات دقيقة ومحددة عما إذا كان عدد المراكب عند المسلمين على النيل يمكنها مقاومة جيش الصليبيين وإيجاد حل لهذه المشكلة وسواها، ثم البحث عن مصادر المؤن والدفاع وتجهيز سفن الجيش الصليبي، والحالة التي يفترض أن تكون عليه السفن كي تكون صالحة لعبور البحر وتحقيق مشروع مصر بنجاح، ثم الإيضاح بشكل لا يقبل الاحتمال والتأويل كيف أنه للإبحار إلى مصر ينبغي توفر رؤية جيدة ومناخ مناسب، وإيضاح لفوائد مناخ مصر وكثرة المياه فيها، وحول المناطق والأماكن التي يمكن أن يتوفر بها ملاحون مهرة للملاحة في المياه العذبة مثلما في البحار، ثم حول التبشير من أجل حملة صليبية عامة وأنواع العساكر اللازمين لاحتلال مصر[١٣]، ثم حول دور الصليبيين المأجورين من قبل الكنيسة الرومانية المقدسة، لدى نزول الجيش المسيحي على الشاطئ المصري، وحول ضرورة الاستيلاء على نهر النيل[١٤]، وتبيان كيفية الاستيلاء على جزيرة رشيد، وكم ينبغي أن

يبلغ تعداد أولئك الصليبيين . وفيه إيضاح على أن من المتوقع منطقياً اضطرار المسلمين إلى التخلي عن أرض مصر للمسيحيين، ثم أسئلة وأجوبة وتعليقات وتحليل حول الاعتراضات المثارة ضد قدرة المسيحيين، أي بمعنى هل يستطيعون بعد إخضاع أرض مصر مجابهة قوات السلطان. لا بل وقوات المسلمين جميعاً ومن ثم متابعة العمل للاستيلاء على أرض القدس وسورية وإيجاد الحلول للمشاكل الناجمة عن مجاورة القدس وسورية. ووسائل اكتساب صداقة التتار. وحول تبيان الأسباب التي جعلت أرض الميعاد المقدسة عرضة لهجمات جميع الأمم. ولماذا حدث لأهلها أن نكبوا مراراً. وطردوا من أرضهم. الإجراءات الموائمة للحفاظ على الأرض المقدسة. مع تجنب العثرات والأخطاء الكثيرة التي ورد ذكرها. وهو في خمسة وعشرين فصلاً(٦٥). ثم أوضاع مملكة مصر والحج إلى الأماكن المقدسة (القدس. بيت لحم. الخليل) وسواها. ثم يوضع بشكل تفصيلي كيفية وجوب تطبيق الحظر بجدية أكبر وفعالية أعظم في سبيل إضعاف قوى السلطان مع الشعب الخاضع له. بحيث لا يمكن لأي إنسان من الوصول إلى البلدان الخاضعة للسلطان. وما يسري على البحر يسري على أيضا على البر. ويجري انزال أشد العقوبات بالذين يخالفون وكذلك الذين يتعاملون معهم. وخاصة في حقل التجارة. وأن تكون هذه العقوبات مثل التي تطبق ضد الهراطقة. وليكن على الجميع محرماً تحت طائلة العقوبة المماثلة، وتسلم بضائع واردة من افريقية. لا بل حتى من إسبانية من المناطق المقطونة من قبل المسلمين، وكذلك أية سلع قادمة من الهند عبر المناطق الخاضعة للسلطان. وتوفرت لديه معلومات هامة جداً وتفصيلية عن مصر(٦٦). وأقاليمها وتضاريسها البرية وخطوط تجارتها البحرية وسواها وعن إنتاجها وثرواتها على تعدد أنواعها والمواد التي تستوردها والتي تصنعها ويشرح كل هذه القضايا والأمور بشكل مسهب وواسع ودقيق بقصد الاستيلاء على مصر والتحكم فيها وإسقاط السلطنة والسيطرة أيضاً على ما حولها من مناطق وخطوط تجارة وبخاصة الجزء الجنوبي من بلاد الشام وتسوق مثالاً

لوضعه لبلاد مصر في جانب من أنشطتها وفعاليتها "لما كانت الأخشاب غير متوفرة في مصر وأيضاً لا يوجد فيها الحديد ولا القار، وهذه هي المواد التي تتحكم بتطور السلاحة البحرية وجودتها، وبما أن المسلمين لا يقدرون على الحصول عليها إلا عبر البحر المتوسط، فإذا لم تكن لديهم سفن فمن الصعب إن لم يكن من الاستحالة أن تتمكن مصر من الصمود ولاسيما القاهرة، ومثلها في ذلك مثل المناطق المكتظة بالسكان في بلادهم.

ومردّ ذلك إلى أن القاهرة قائمة على ضفاف نهر النيل، والمسافة من القاهرة إلى البحر تبلغ قرابة المائة ميل، ونهر النيل(١٧) يصب في البحر المتوسط، وله أربعة فروع،واسم الفرع الأول منها فرع "تنيس"، من جهة الصحراء، واسم الفرع الثاني فرع دمياط،،واسم الفرع الثالث فرع البرلس، وأما الفرع الرابع فهو فرع رشيد، وفرع رشيد قريب من الاسكندرية وهو من جهتها، وبين هذه الفروع الأربعة اثنان أكبر حجماً وأهمية وهما فرعا دمياط والبرلس، ولأحد الفرعين الآخرين المسمى فرع تنيس حوض أعمق، وهو قادر على استقبال السفن الأكبر حجماً، والأكثر ثقلاً، حيث يوجد داخل الحوض بحيرة كبيرة وفسحة واسعة تسمع لعدد كبير من السفن أن ترسو فيها، والميناء موجود في المياه المالحة، وأما الفرع المدعو البرلس، فإن حوضه أقل عمقاً من الثلاثة الآخرين، ويستقبل سفناً أقل ضخامة، هذا وتستطيع الغلايين دخوله في موسم الفيضان، وبعده بمسافة وجيزة بحيرة ثانية، واحد من أجزائها تارة عذباً وتارة أخرى مالحاً، ويبلغ داخل الزوايا الأربع لهذه الفروع نزولاً من الدلتا حتى البحر مائة وعشرين ميلاً وإذا ما سرنا من دمياط إلى الاسكندرية بمحاذاة البحر فالمسافة مائتي ميل، وإذا ما سايرنا مجرى النيل من القاهرة نحو الجنوب، يقال إن الذي تحت سيطرة السلطان يبلغ مسافة مائة ميل، وللنيل الواقع تحت حكم السلطان فروع عديدة، حولها بحيرات كثيرة، مستنقعات وتشعبات وأقنية كثيرة تجري في أرض مصر وتتدفق فيها وتستقي الأراضي وتؤمن ريها، وعلى ضفاف النيل وفوق مياهه عدد

كبير من المحطات، ولهذا السبب تنقل البضائع والأغذية، ومختلف أنواع البضائع والمنتجات على السفن، وحركة النقل والتجارة هذه نشطة جداً، هذا ويستوفي السلطان مكوساً على الأخشاب والحديد والقار التي تحملها السفن هنا وهناك ما يعادل ربع قيمتها، ولا شك أن هذا مبلغاً كبيراً، ويستوفي السلطان على كل مركب مبحر سواء أكان كبيراً أم صغيراً ثلاثة دنانير ذهبية، وهي تعادل ثلاثة فلورينات ذهبية ونصف فلورين.

ويتضح من هذا كم هو مهم عدد السفن التي تمر في موسم الفيضان عند حمل القمح إلى القاهرة، حينها تزداد حركة الملاحة على النيل وعلى بحيراته ذهاباً وإياباً، وإذا تأملنا حركة الملاحة وكثرة الرحلات نرى بالفعل ما يثير الدهشة، ويسكن في القاهرة مجموعات كبيرة من التجار والحرفيين، ويحكم في القلعة بالقاهرة السلطان ويقيم بها مع قيادته وأعوانه وتمتد سلطته لتشمل مساحة قدرها نحو ألفي ميل، وأعداد المسلمين في مصر أعداد كبيرة، ويمكن أن نضم إليهم أعداد كبيرة أخرى من كثير من الشعوب وبما أن سلطة السلطان متمركزة في مكان واحد، فهو على ذلك السيد الوحيد الذي سيحكم أرض مصر كلها مع الصحراء والمناطق التي خلفها امتداداً إلى أرمينية والمياه الباردة المتاخمة للأراضي الخاضعة للمغول[١٨]، وهكذا إذا ما حُرم المسلمون من القدرة على الملاحة، لن يعود بالإمكان نقل البضائع والمؤن والإمدادات لا إلى القاهرة ولا إلى القلعة، لأنه وقتذاك تصبح كلفة النقل أغلى من الثمن آخذين بعين الاعتبار أنه لا يمكن نقلها عن طريق البر، ولهذا إنه من المناسب أن يتشتت سكان القاهرة وجند القلعة، والشعب الموزع بينهم في جميع أرجاء مصر التي هي مناطق شاسعة واسعة[١٩]، فإذا تشتتوا في أنحاء مصر يغدو من الطبيعي وقوعهم منطقياً تحت حكم سلطات متعددة مما يثير المنازعات بينهم، وحيث يستبد التشتت تسود التفرقة وقد كتب في الإنجيل:"كل أمة منقسمة على ذاتها تخرب"، وهكذا لم تتبدل نظرة الغزاة والمعتدين منذ قرون طويلة في سعيها المستمر لتمزيق أوصال الأمة من أجل سهولة

السيطرة عليها وهذا ناموس تعلمناه من التاريخ وعايشناه ولا زلنا "فما أقرب اليوم من الأمس"، بل "ما أشبه اليوم بالأمس البعيد والقريب"[٢٠].

ونشطت تجارة الرقيق الأبيض وتنوعت استخدامات هـــذا الرقيـــق فـــي المجـــالات والأنشطة المتعددة للمجتمع، سواء داخل المناطق الخاضعة لنفوذ السلطان مباشـــرة، أو في الأقاليم المجاورة، أو المنقوليـــن مـــن منـــاطق بعيـــدة، ويحملـــون إلـــى البـــلاد المصرية[٢١]، ويؤكد في أماكن متعددة من صفحات كتابه، إلى أنه ممنوع تمام المنـــع السفر إلى الأراضي التابعة للسلطان، وأن كل من يخالف هذا الحظر، خرقاً لأوامـــر سادتهم وجماعاتهم سينال العقاب، ولسوف يلقى القبض على المســـيحيين المخـــالفين، وعلى المسلمين غير الملتزمين بهذا المشروع المقدس، ورقتها فقـــط ســـيكون الذيـــن أوكلت إليهم أمور الإشراف والرقابة على البحر على استعداد لتأدية مهامهم طواعيـــة وعن طيبة خاطر، ومن ثم فرض الالتزام بهذا التبرير الصارم والمفيد، وعلينا علـــى كل حال أن نتذكر أنه لما ضاعت سورية وعكا، أعلن رسمياً الحظـــر علـــى الذيـــن يذهبون إلى الأراضي الخاضعة للسلطان أو الذين يعودون منها مجمليـــن بالبضـــائع، وكان الحظر قد قضى بإعلان أن الذين يخالفون هم سفلة، ويعدّون محروميـــــن مـــن الوصية، أي أنهم لا يستطيعون كتابة وصاياهم، ولا وراثة ما ترك لهم مـــن وصايـــا غيرهم، مع الإعلان أنهم غير مؤهلين للقيام بأي حصر إرث سواء أكان ذلك من جهة المعطي أو من جهة المستفيد ثم طردهم من جميع الوظائف العامة التـــي يشـــغلونها، ومنع منحهم أية وثيقة شرعية، وبشكل عام يتوجب مصادرة جميع ممتلكاتـــهم[٢٢]، وإذا ما ألقي القبض عليهم يستوجب إبقائهم سجناء تحت حراسة الذين ألقوا القبض عليـــهم، ومع وجوب إغلاق الطرق في وجه البضائع التي اعتاد التجـــار علـــى نقلـــها مـــن الأراضي التابعة للسلطان عبر إفريقية كلها، ثم عبر الأندلس حيث يقيـــم المســـلمون، وبالتالي من المواعم إيقاف حركة نقل البضائع القادمة من الأراضي التابعة للســـلطان، وكذلك من أراضي ملك تونس، وفي الأراضي الواقعة تحت سيطرة المســـــلمين فـــي

الأندلس، وكل من يتجرأ على تسلم أية بضائع أو أصناف نادرة أو منتجات قادمة من الهند، أو شرانق الحرير أو السكر أو الكتان، ينبغي إنزال العقوبات نفسها المقررة على من يتلقى بضائع واردة من أراضي السلطان وبلاده، وبذلك لن يتجرأ هؤلاء المسلمون المقاربة من الجنوب على ركوب طرق أراضي السلطان لكي يبتاعوا منها تلك الأصناف والبضائع، وهذا ما وقع في الماضي يوم كان تطبيق الحظر تطبيقاً شديداً وكان ذلك خلال شهر كانون الأول لعام ١٣٠٨م، وهو يتركز بشكل أساسي حول شؤون الأرض المقدسة(٢٣)، وهو متمم لما ذهب إليه في كتابه الأول ومثبت له وداعم، موضحاً فيه الوسيلة والأسلوب لاسترداد الأرض المقدسة، وقد انتهى من تصنيف ما كتب في هذا الجزء الثاني في شهر كانون الأول لعام ١٣٢١م، في مدينة كلارنسيا Clarensiae(٢٤).

ويؤكد صاحب الكتاب أن احتلال مصر(٢٥)، سيجعل المسيحيين الموجودين في الشرق أكثر استعداداً للحرب والشعوب الأوروبية أعظم حماساً لتقديم المساعدة، عندما توضع أمامهم المرحلة الأساسية من المشروع، ألا وهي استرداد الأرض المقدسة ويعرفون أن المهمة المقدسة تنجز بوساطة رجال الحرب ، ورجّالة الجيش مع عدد لا بأس به من الفرسان، وبقدرة الذي يتم هذا العمل لمجده، وسينجز ذلك بنفقات أقل، وبضمانة أعظم، ومن الضرورة بمكان الاستفادة القصوى من دروس الماضي "فتاريخ الماضي أفضل معلم لصنع المستقبل".

ويؤكد سانوتو أن أرض مصر أسلم صحياً من أرض قبرص(٢٦)، ومياهها أفضل، وفيها كميات وافرة من الأسماك لتغذية الشعب، ويستبعد فكرة العبور البري إلى مصر من خلال إسبانية عبر مضيق جبل طارق إلى مدينة سبتة ومنها إلى تونس أو عبر أي جزء من بلاد المغرب ويجزم بأن هذه الطرق غير مناسبة وغير صالحة للسفر نحو الأرض المقدسة وبالتالي احتلالها، خصوصاً بسبب الصحارى الواقعة في وسطها،

ومن جانب آخر حدث أنه عندما أبحر الملك النبيل القديس لويس، ملك فرنسة، إلى تونس هو وابنه جين تريتان، مع نائب الكرسي الرسولي، ومعهم عدد كبير من الأمراء من مرتبة كونت وبارون، حدث أنهم وقعوا ضحية الوباء الذي أودى بعدد كبير من الشعب المسيحي، وكثيرة هي الطرق التي جرى الكلام حولها من أجل استخدامها لمهاجمة الأعداء أعداء الإيمان الكاثوليكي، ولاسترداد الأرض المقدسة، والذي نراه هو: إن الطرق التي وضعناها هي الأفضل والأجدى لذلك قيدتها وقارنت فيما بينها وبيّنت أن الطريق البحرية إلى مصر هي الأفضل، وإن كنت أدع دوماً لفطنة قداستكم تقرير اختيار الطريق، وكل ما قيل وسرد وعبّر عنه برموز وأمثال دافعة وصادقة ومتشابهة تماماً، من شأنه حملنا على إظهار الحقيقة التالية التي لا جدال فيها أبداً: إن الطريق البحرية إلى مصر هي بكل تأكيد أفضل الطرق جميعاً وهو الباب الصالح الذي ينبغي الدخول منه لإبادة ملة محمد (ص)، بادئين ذي بدء بقطع الدرب والمنبع الذي تصل منه الموارد المالية باستمرار وذلك عن طريق ملاحقة المخالفين وتسليح الغلابين وغير ذلك[٢٧]... وقد عنى بالقلعة المحصنة أرض مصر التي ظلت منذ أمد بعيد الحصن الحصين في المشرق للذين يتبعون ملة محمد (ص) وقصدت الدهاليز والستائر الرملية الصحراء الشرقية التي تحيط بأرض مصر من جهات مملكة القدس وسورية، ومثلها الصحراء الغربية من جانب إفريقية، والتي لها تخوم مشتركة مع مملكة تونس، ومن ثم الصحراء الكبرى، أما الأسوار العالية والأبراج الكبيرة والستائر التي حولها، ففيها إشارة إلى تلك الصحراء الواسعة وإلى أن عبورها يوازي بمشقته تسلّق تلك الأسوار والأبراج وهو عبور مرهق، وصعب وشاق جداً، وهكذا الحال بالنسبة لعبور الصحراء الممتدة على مسافات طويلة، وأن سلوك تلك المعابر مرهق وخطير جداً بالنسبة لأي جيش كان وعالي التكاليف، أما الخنادق ونقاط الدفاع في تلك الأرض، فمن الممكن تسميتها قلاع سورية وتركية، المشحونة بعناصر جيدة من الرجالة هم أمهر من الذين في مصر، أما أسوار القلعة المذكورة

والمشرفة على الخنادق ونقاط الدفاع، فالمقصود بها صحراء مصر التي ضمنت دوماً في الماضي أمن القلعة وسلامة حاميتها، وقد سيطرت هذه الحامية في الماضي ومـا تزال تسيطر اليوم على خنادق ونقاط دفاع هي حصون مملكة القدس وسورية، فهذا ما اتضح من خلال حملات الفرنجة الذين قدموا في الماضي إلى مملكة القدس وسـورية، ويتجلى هذا بشكل أبين مما جرى للتتار، والمقصود بالعبارات والجسور التي تربـط بين الخنادق والأبراج، الطرق والمسالك التي تربط ما بين الصحراء وبيـن مملكـة القدس وسورية، وعلى هذه الطرق اختزن المصريون ببراعة كميات كافية من المـاء، اعتادوا الاحتفاظ بها لحاجتهم فقط عندما يضطرون إلى عبور تلك الصحراء، وعندمـا يريد السكان إخفاء تلك المياه أو إتلافها حتى لا يكشفها الأجانب والغرباء، يفعلون ذلك كلما أرادوا، ومن الواضح أنه يتعذّر على أي إنسان عبور تلك الفيافي مع جيشـه دون ماء وهذا ما دفع سانوتو إلى تسمية تلك المعابر بالأبواب الحديدية، وباب القلعة الكبير يبقى دوماً مفتوحاً فهو بمثابة مصر البحرية الذي تصل عبره إلى المصرييـن جميـع الحاجيات المناسبة وخاصة الضرائب والرسوم والبضـائع التـي يرسـلها الأمـراء والأعيان والعساكر من جميع بلدان العالم وشعوبه،ولاسيما أصحاب الـثروات الذيـن يأتون بالشكل والأسلوب المناسبين، وأهم البضائع والمنتجات التي تدفع تلك الضرائـب من قبل اتباع الكنيسة الرومانية المقدسة إلى السلطان: الفضـة وألـواح القصديـر، والرصاص والزيت، والأعلاف، وشقق الصوف والحرير وأقمشة الكتان، والمرجـان، وأثواب المنسوجات، والزعفران وغير ذلك من البضائع، والمصريون يستخدمون هذه السلع وهي عندهم بوفرة، أما الفائض فإنها تنقل إلـى الـهند، حيـث يتـاجر بـها المصريون[٢٨]، ويشترون التوابل وأنواعاً من الأصناف النادرة، ويعودون بـها إلـى أرض مصر للمتاجرة بها، ويتضح بشكل جلي أن الفضة وسواها من المواد المتقـدم ذكرها تستبدل بغيرها، أي بمعنى آخر أن تلك المعادن وسـواها تسـمح للمصرييـن بالحصول على التوابل والأصناف الهندية الأخرى مقايضة، ومن ثم تشحن إلى قلعـة

المصريين المذكورة، وللحصول عليها يسافر التجار إلى هناك حاملين معهم من بلدان الشمال -عبر البحر الكبير- الغلمان والجواري الذي يسميهم المصريون المماليك، فضلاً عن هذا يحمل التجار معهم من البلدان المذكورة ولا سيما من جزر اليونان وبلاد الصقالبة [السلاف]: الخشب والحديد، والقار ويعبرون بهذه البضائع البحر، ويقايضون بها في القلعة المذكورة، أي أصناف نادرة من الهند، وهذا ما يصنعه التجار، ذلك أنهم يحملون بشكل كبير أكثر من سواها الغلمان والجواري إلى أرض مصر، وغالباً ما يأخذونهم من أرض اليونان(٢٩)، وبات الآن واضحاً أكثر من ذي قبل، أن الفضة والقسم الكبير من البضائع التي يصدرها المؤمنون الساكنون في الغرب تطلب يومياً في مصر، لأنها تتحول لصالح تجارة المماليك المرعبة، ذلك أن المماليك عبارة عن جواري وغلمان من أصل مسيحي أو وثني، ومثلها تجارة الخشب والحديد والقار، وهي البضائع التي تصدر بشكل دائم إلى ذلك الحصن الذي هو أرض مصر، ولأجل ذلك كله تتضح صوابية لأي الذين أشاروا بحظر وصول الذهب والفضة والنحاس والقصدير والمرجان إلى أرض مصر، ذلك أنه من المؤكد أن هذه السلع سوف تنتقل إلى المقاطعات المصرية، دون الاكتراث بالحظر الصادر عن الكنيسة الرومانية المقدسة، وبرأي سانوتو أنه بسبب حاجة مصر للسلع التي تأتي من مصر، فإنها تنتظرها دوما، ويقوم السلطان والخاضعون له باستمرار بأخذ قسم كبير منها، مما هو لازم لقوتهم وطياتهم، وبدون الاتجار بها لا يمكنهم الحصول على التوابل ولا غير التوابل من الأصناف النادرة، وغير ذلك من بضائع الهند وكذلك لن يمكنهم الحصول على المماليك والحديد والأخشاب والقار، وإذا حصلوا على ذلك، يكون ذلك دون الكميات المرغوبة، وبناء عليه أن الذي يتأمل بالطريقة الموائمة حتى يمنع ويحول دون نقل المماليك والحديد والأخشاب والقار إلى هناك عليه أولاً أن يحظر شحن الذهب والفضة وصفائح القصدير والنحاس والزعفران والمرجان وما

شابه ذلك إلى مصر. لأن أهل مصر يبادلون هذه البضائع بالسلع والأصناف والمنتجات الهندية.

وشبّه صاحب كتاب الأسرار سانوتو ملة محمد (ص) بالشجرة وتوابعها (٣٠)، وهي العقيدة التي نشرها في أيامه. ويُراد بها أيضاً شعبه والبلدان التابعة لهم وهذه العقيدة هي الجذور والأساس الذي تغلغل في أرض مصر وترسخ فيها، وأما أغصان تلك الشجرة. فهي البلدان والقادة التي يحكمونها خاصة في تركية وسورية وأرض الميعاد كما يتوهمون. لا بل في بلاد المغرب في مملكة تونس. وعلى طول شاطئ إفريقية كلها، وفي سائر بلدان العالم التي تدين بعقيدة محمد (ص) وتخضع لشريعته أما أوراق تلك الشجرة، فهي شعوب تلك البلدان الساكنة فيها(٣١). وضخامة الشجرة وقدمها هي تجذر المصريين وقوتهم. فمصر ظلت دوما هي الأقوى بين جميع اتباع تلك العقيدة، وخاصة في الشرق. أما الينابيع التي تروي الشجرة وتغذي جذورها وفروعها. فهي بدون شك المنتجات والثمار التي تستخرج من أرض مصر. أما النهر الذي يروي تلك الشجرة، ويجعلها موئلا للجميع فهو المعبر الذي تنقل الخيرات بكثرة خلاله إلى السكان وسواهم. مما يجعلهم اليوم يمتلكون جميع الأصناف النادرة، وبضائع الهند،التي لولاها لما كان بإمكان السكان المقيمون في مصر تأمين سبل عيشهم أو تنظيم شؤون حياتهم واستهدف سانوتو صاحب كتاب الأسرار القول: إن الشجرة لا تعطي أية ثمار. تبيان أنه لا يمكن أن يقطف من عقيدة محمد (ص) أية ثمار صالحة أو ينتج أي عمل صالح. المقصود مدى الحقد والكراهية مما يحمل سانوتو تجاه العقيدة الإسلامية. أما الثمار الجيدة حسب رأيه التي تنبت تحت الشجرة فهي الثمار التي تنتجها البلدان التابعة للسلطان والخاضعة لسيطرته، والبضائع التي تنزل في هذه البلدان يوميا، ذلك ان هذه البضائع بحد ذاتها صالحة. أما الذين ينتقلون وعيونهم مغمضة، ويقبعون في الظلمات الدامسة. فهم بدون شك الذين يعطلون بصائرهم وأبصارهم عن رؤية أوامر الحرمان والعقوبات التي فرضتها كنيسة يسوع المسيح...

أما المؤمنين الذين يختلفون عنهم تماماً فإنهم يفكرون ليلاً نهاراً حول كيفية إزالة تلك الشجرة أي عقيدة محمد (ص)، واسترداد مملكة القدس وانتزاعها بشدة من أيدي أولئك الأشرار(٣٢)، ويوضح بشكل دقيق وتفصيلي ما تحتاجه الحملة لاحتلال مصر من رجالة وفرسان وسواهم وأشار إلى أن الإبحار إلى مصر ينبغي توفر رؤية جيدة، ومناخ مناسب، وإيضاح لفوائد مناخ مصر وكثرة المياه فيها، ويفضل ذلك بقوله من حيث المبدأ على الذي يريد الذهاب إلى الشواطئ المصرية سواء من الغرب أو من الجزر اليونانية عليه أن يرسو في جزيرة كريت، طبعا عند رأسها الشرقي، وهناك يُعطى شارة الصليب المميزة لكي يقلع نحو مصر عندما تكون الرياح شمالية وشرقية.

وبسبب التيارات التي تتدافع من الشرق نحو الغرب في تلك المناطق، يلزم هناك التوجه إلى وسط مجرى الريح، والسير بوضع مقدمة السفينة باتجاه الشرق مقدار الربع من الريح الشرقية، وبعد ذلك من وسط مجرى الريح حتى الاسكندرية مع الريح بخط مستقيم(٣٣)، ويقدر هذا العبور مع مجرى الريح بأربعمائة وخمسين ميلاً، هناك من يؤكد أن هذا العبور مع مجرى الريح يبلغ خمسمائة ميل، وبما أن جزيرة كريت تتمتع بمناخ جيد، لكن كثيراً ما يتفاجأ الذين يعبرون من هناك بحراً أنهم كلما اقتربوا من مصر أن المناخ يتحسن ويتبدل ويغدو صافياً نقياً، تبدو زرقة السماء، علماً بأن مصر البحرية تسقط فيها الأمطار باعتدال كبير، لكن بكفاية وكلما مضيت داخل مصر نحو القاهرة والقلعة وما وراءها نحو الصعيد، هناك لا تسقط الأمطار إلا بالنادر، وإذا سقطت لا تكاد تبلل تلك الأرض وهذا ما يدفع إلى الاعتقاد بكل تأكيد أن مناخ مصر، بسبب هذه المواصفات هو مناخ جيد، لا بل ممتاز، ويمكن البرهنة على هذا من خلال الأعلاف، فإنها إذا ما حملت إلى مصر، وقد أصيبت بالعفونة، أو بدأت تتلف، تصح وتستعيد جودتها، نتيجة جودة ذاك الهواء، وجدير بالتنويه أن المياه غزيرة بمصر، وهي من أفضل مياه العالم، وخير ما فيها أنها خفيفة تساعد على الهضم، ولذلك لا يجوز مطلقاً التراجع عن هذا المشروع، بل يلزم إنجاز كل ما يمكن عمله حتى تتحقق

آمال الجميع ممن يسعون في سبيل مجد الرب وكنيسته، ولكي يتمتعوا بتلك الأرض بسلام وأمن... ويتحدث سانوتو(٣٤)، بإفاضة ودقة عن رواتب طواقم الغلايين والفرسان وخدمهم وكذلك النساء اللواتي يرافقن أزواجهم في احتلال مصر ورماة القسي والمجذفين والملاحين والنجارين والطباخين وعمال الطلاء والمعجونة بالإضافة إلى مستشارين ومفتشين ومشرفين وأطباء وجراحين، وحجارين وصانعي نشاب وموسيقيين ينفخون بالأبواق ويقرعون على الطبول ويضربون على النقارات ويحسنون استخدام سائر الآلات الموسيقية الناعمة مثل الرباب والقيثارة والكمنجة الكبيرة وسواها بقدر ما يُرى أن في ذلك فائدة الجيش... وعن الأسلحة وأنواعها وطريقة صناعتها وتطويرها.

ثم يضيف سانوتو المناطق البحرية الخاضعة للسلطان وأسماء الشواطئ والمراسي البحرية والجزر، والفوارق بين مكان وآخر، مع وصف للشواطئ التونسية التي هي امتداد بحري لها.. من مرعش إلى الاسكندرونة إلى ارسوز إلى رأس الخنزير إلى مصب نهر العاصي في السويدية ومن مصب العاصي بمحاذاة جبل اللكام حتى برج بُسلام ثم رأس البسيط إلى اللاذقية حيث برج أوغاريت عند المدخل الجنوبي للميناء إلى مصب نهر السن ثم بانياس وحصن المرقب ومن المرقب إلى طرطوس وجزيرة أرواد ومن هناك إلى طرابلس ثم رأس شقعة فالبترون فجبيل إلى بيروت فصيدا فصرفند ثم صور ثم البياضية فالناقورة فعكا ومن جبل الكرمل حتى عتليت إلى قيسارية إلى أرسوف إلى يافا ومن جبل الكرمل حتى دمياط لا يوجد عند الشاطئ أي جبل وكلها أرض منبسطة فيها صخور رملية بيضاء(٣٥)، أما في داخل البلاد صعوداً من الشاطئ فهناك جبال اسمها جبال القدس، ومن الممكن رؤية هذه الجبال حتى جبل الكرمل على سلسلتين.. ثم الشواطئ البحرية الممتدة من يافا إلى دمياط والشواطئ البحرية الممتدة من دمياط إلى الاسكندرية، والمسافة من الفرما إلى الاسكندرية هي مائتين وثمانية وستين ميلاً، وهذا هو عرض المنطقة الساحلية من مصر، لكن مملكة

مصر تمتد حتى ميناء السلطان(٣٦)، وهو ميناء يقع بعيداً عن الاسكندرية ويبعد عنـــها سبعين ميلاً باتجاه الغرب، والمسافة من الاسكندرية إلى الفسطاط هي مائتين وثلاثيـــن ميلاً وذلك عبر نهر النيل، والمسافة من الفرما، عبر تنيس ودمياط إلى الفسطاط هـــي مائتي ميل فقط وذلك على سطح نهر النيل، ومن الفسطاط إلى أســوان -التـــي هـــي أقصى جزء من مصر باتجاه الجنوب واتجاه الحبشة هي مائة وأربعين ميلاً إلى غـــير ذلك من تحديد للمسافات والمواقع باتجاهاتها المتعددة- وإذا ما مضينا صعــوداً فــوق النيل من دمياط نصل أولاً إلى بدالة ثم إلى المنصورة حيث ينقسم النيل(٣٧)، والفـــرع الأصغر هو الذي يجري إلى الفرما، لكن المكان الذي ينقسم فيــــه النيـــل انقســـاماته الرئيسية، ويجعل من الجزء الأكبر من مصر جزيرة، يدعى باسم الدلتا، وذلـــك لأن شكل الجزيرة شكل مثلث، وهو مثل حرف دلتا ويجري الفرع الأكبر نحو الاسـكندرية والفرع الأصغر نحو دمياط، ومن الدلتا إلى عين شمس ثلاثة أميال، ويجـــري فـــرع تنيل من هنا باتجاه الشمال نحو مدينة بلبيس، ويجري من هناك خلال القفـــار نحـــو الأرض المقدسة، ويدخل البحر قرب مدينة العريش، وهي على مسافة يوم من غـــزة وبير السبع وهذا ربما الذي ورد ذكره في العهد القديم باسم "وادي مصـــر" [الملـــوك الأول: ٦٥/٨. الملوك الثاني: ٧/٢٤]، لكن لا يمكن الملاحة به، وعين شـــمس بلـــدة جميلة جداً، غير أنها ليست محصنة ومثلها كذلك جميع بلدان مصر الأخرى باســـتثناء الاسكندرية والقاهرة، وعلى مسافة سبعة فراسخ من عين شمس تقوم مدينة الفســـطاط وهي مدينة محصنة بشكل جيد وعظيمة وتقوم على الضفة الشمالية لنهر النيل، هـــذا يجري وسط المدينة فرع كبير من ذلك النهر، وكذلك وسط مدينة القاهرة التـــي هـــي مرتبطة بالفسطاط، وفي القاهرة يعود هذا الفرع إلى مجرى النهر الأساســـي ثانيـــة، ويوجد إلى جانب القاهرة شجر نخيل قديم جداً، و(راس نباس) الميناء الرئيسي لمصـــر على البحر الأحمر، لأنه بالنسبة للذين يرغبون بالإبحار نحو الهند ، ونحو الجنـــوب الغربي، ونحو الشمال، هناك قفار واسعة تمتد حتى الأرض المقدســـة، ولا يســـتطيعه

الإنسان عبور هذا القفار إلى سورية بأقل من ثمانية أيام، وعلى هذا نجد مملكة مصر محاطة من كل جانب -باستثناء ساحل البحر- بالرمال والقفار، والمناخ في مصر صحي، والطعام جيد، والأرض أكثر اعتدالاً منها في فلسطين أو سورية، مع أنه من خلال وضعها قد يخيل لإنسان أنه سوف يجد العكس. ويتطرق سانوتو إلى كيفية توضع الجيش وإقامة المعسكر والمخيم وتوزع المقاتلين والخطط الموائمة لطبيعة الأرض والمناخ، ويؤكد على ضرورة أن يكون المعسكر على مقربة من مكان آمن حيث تتوفر كمية من الأخشاب والعلف والماء، ولهذا عندما خدع الخونة إمبراطور ألمانية ومعه ملك فرنسة وملك القدس أثناء حصار دمشق، فبدلوا موقعهم المناسب بموقع آخر لا ماء فيه، دحروا وتخلوا عن حصارهم لدمشق، وبالطريقة نفسها هزم صلاح الدين غي لوزغنان وأسره(٣٨)، وإذا كانت الإقامة ستطول يتوجب اختيار المكان الصالح، والمناخ الجيد، لنصب المعسكر، كذلك ينبغي تجنب أن يكون هناك جبل قريب ولا بأس أن يكون المكان مرتفعاً حتى لا يسهل على العدو احتلاله، ومن غير المناسب أيضاً أن تكون هناك كثرة من سواقي المياه، فإن أهل دمشق قد دحروا التتار بسبب ذلك، كذلك ينبغي تجنب حصر الجيش الكبير في مكان ضيق أو زج الجيش الصغير في مكان ممتد أكثر من اللازم، ويجب نصب المعسكر حسب المعطيات والظروف، بحيث يكون أحيان مربعاً وأحياناً مثلثاً على شكل نصف دائرة، وذلك حسبما يقتضي وضع المكان آخر ما هنالك من شروح وتفاصيل ودقائق وسوى ذلك.. ويصف توضع الجيش في مواقعه وكذلك مواقع الجيش الإسلامي.

فيؤكد أن المسلمين ينصبون معسكراتهم حسب نظام دقيق، حيث يضعون في الوسط سرادق السلطان. ومن حوله الإشراف والرجالات الأشداء حيث يكون تعدادهم حوالي الألفين، ويدعى هؤلاء باسم الحلقة السلطانية، ثم يوزعون ما تبقى ويرتبونه حسب تلك الدائرة، وهم يتبعون هذه الطريقة وينفذونها جميعاً. وهي مناسبة، ذلك أن كل مسلم يعرف في أي دائرة هو. وفي أي دائرة ينبغي أن يكون، ومكان خيمته بالتمام

والكمال، ثم يسوق سانوتو توضيحات وأمثلة تدل على خطورة ترك العدو يستدرجنا إلى خوض المعركة وحول مواصفات المكان الموائم لخوض المعركة وكذلك الاحتياجات الواجب اتخاذها لدى قيادة الجيش لخوض المعركة، ثم الإجراءات الاحتياطية والأمثلة لهزم جيش العدو، وكذلك الإجراءات الاحتياطية والأمثلة لإعادة تنظيم الجيش في حالة إصابته بانتكاسة وما شابه ذلك.

ونخلص من كل ذلك إلى القول إن الكتاب أشبه بموسوعة أهم ما فيه المخطط الذي وضعه المؤلف سانوتو للسيطرة على مصر[٣٩]، وبعد السيطرة إفراغها من السكان أو إفراغ المناطق الساحلية منها وتحويلها إلى بلد أوروبي/ لاتيني، فيما رواء البحار، ثم إن المؤلف امتلك معلومات جيدة ودقيقة وتفصيلية عن وضع مصر وعن جغرافيتها ومسافاتها وإمكانياتها الاقتصادية والعسكرية ثم أراد الوصول إلى نتيجة مفادها أن إسقاط مصر يؤدي إلى السيطرة على الأرض المقدسة، وذكر أيضاً بأن أهم عوامل الازدهار الاقتصادي والإمكانيات المادية لمصر متوفرة بالتجارة الهندية وبالمنتوجات المصرية، فالتوابل وسواها كانت تجلب من الهند إلى عدن وتحمل من ثم إلى مصر لتُصدّر مجدداً بعد تصنيعها إلى أوروبة وهذا يُزيد في القوة الاقتصادية لمصر ولسلطاتها... وبناءً على هذا وغيره، اقترح حصار بحري على الموانئ بوساطة أسطول كبير وحوالي ١٥٠٠٠ من الرجالة و ٣٠٠ من الفرسان، وبعدما تقوم هذه القوات بالحصار تقوم بالإنزال على أرض مصر وتحتل دمياط وتزحف حتى القاهرة وإلى أن يتحقق هذا المشروع تحويل الطرق التجارية بحيث تحمل البضائع من عدن إلى العراق، ومن العراق إلى كليكية فأوروبة، وكانت بلاد العراق خاضعة لحكم المغول، وكليكية تحت سيطرة الأرمن، ولهذا اقترح المؤلف سانوتو إنشاء تحالف ما بين أوروبة الغربية والمغول، وبالوقت نفسه إرسال نجدات إلى كليكية لحمايتها من جيش المماليك خاصة من بيبرس البندقداري، والمثير للانتباه أن سانوتو قدم دراسة لنفقات الحملة وإلى كل ما كانت تحتاجه من مؤن وسلاح وعتاد وأموال ...إلخ. وألح

على ضرورة أن يرافق المبشرون الحملة لتحريك عواطف وحماسة الجند الفرنجي والقيام بتحويل سكان مصر إلى الكاثوليكية[٤٠].

"كتاب الأسرار لسانوتو" مفيد جداً في دراسة الأوضاع الاقتصادية والنشاط التجاري في أيامه كما أنه مفيد من الجوانب التقنية والعسكرية والجغرافية.

ويمثل ما امتلكته أوروبة من معلومات عن مصر والمشرق العربي، كما أنه اهتم بضرورة طرد العرب من الأندلس أو تحويلهم إلى الكاثوليكية.. ولعل هذا وغيره يفسر لنا الحملات الاستعمارية الأوروبية على الوطن العربي في مشرقه ومغربه في القرن الثامن عشر والتاسع عشر وكذلك اتفاقيات سايكس بيكو ١٩١٦م، ووعد بلفور بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، وقرارات سان ريمو ١٩٢٠م. بل أكثر من ذلك فيه الكثير من الدلالات حول ما يجري في أيامنا في الوطن العربي وحوله ودور إسرائيل المركزي في تنفيذ ما عجزت عنه أوروبة عن تنفيذه قبل بضعة قرون أهو تبدل بالاستراتيجية أم بالرؤيا أم أنه المزيج بين الاستراتيجية والتكتيك...

الهوامش

(١) كتاب الأسرار لمارينو سانوتو - الصادر ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية- دمشق ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م،الجزء السادس والثلاثون - تأليف وتحقيق وترجمة د. سهيل زكار، ص ٧.

(٢) كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ٨.

(٣) كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ٩.

(٤) كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ١٠.

(٥) كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ١١.

(٦) كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ١٢.

(٧) كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ١٣.

(٨)كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ١٤.

(٩) كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ١٥.

(١٠) كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ١٦.

(١١) كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ٢٢.

(١٢) كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ٣١، ص٥٦.

(١٣) كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ٧٠-٧٤.

(١٤) كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ٨٤-٨٩.

(١٥) كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ١٠٧-١٢٤.

(١٦) كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ١٣٧-١٤٥.

(١٧) كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ٣١٥-٣٧٤.

(١٨) عبارات لها علاقة وثيقة جداً بالأحداث التي تشابهت في تاريخنا العربي عبر العصور التاريخية القديمة والوسطى والحديثة والمعاصرة) المشاريع الاستعمارية

الأوروبية (اليونان والرومان) +المماليك - السلاجقة - المغول- العثمانيون- وغيرهم، ثم المشروع الصهيوني، ص ٢٠-٤٠. القسم الرابع من كتاب الأسرار لسانوتو ويدور حول الخطة والأسلوب والترتيب والاحتمالات الممكن حدوثها في حال نشوب المعارك وما يتعلق بها. وذلك من أجل تحقيق مشروع الأرض المقدسة. وفيه إيضاح على أن المسلمين والمنشقين لن يتمكنوا بشكل منطقي من الدفاع عن الأرض. وفيه تسع وعشرين فصلاً تحمل عدد من العناوين والشروح التفصيلية والتي تستهدف أولا وأخيرا تسهيل مهمة السيطرة على هذه المنطقة الهامة من العالم. ص ٦:١٠. ص ٢٤٥.

(١٩) كتاب الأسرار في فصوله وأقسامه كما وردت تبحث أيضا في استكمال الخطة الشاملة للسيطرة على سورية (بلاد الشام) والقدس والخليل ومجاري المياه والأنهار في الأرض المقدسة. وعكا والناصرة. وبيت لحم. وسواها. ويحدد سانوتو في كتابه الأسرار أن أرض الميعاد المقدسة موجودة في سورية التي تحتوي جميع البلاد من الدجلة حتى مصر. ويحدها من الشرق نهر الدجلة. ومن الجنوب الخليج العربي. ومن الغرب البحر المتوسط. ومن الشمال أرمينية وكيدوكية. وهذه البلاد التي اسمها العام. هو سورية. مقسمة إلى عدة أجزاء أصغر أولاها، **سورية الأولى**. وهي قائمة ما بين الدجلة والفرات، وهي تمتد طويلا نحو الشمال ونحو الجنوب. أي أن نقول من جبال طوروس حتى الخليج العربي، وهي تعرف أيضا باسم سورية الجزرية. ومن أجل عرض حولها انظر القسم الخامس - الفصل الأول. وفيها تقع الرها. التي دعى فيها توبيت باسم راغس Rages وتعرف بشكل عام باسم "الرسا" Resse، وهي واقعة على مسافة أربع عشرة فرسخا فيما وراء الفرات. بين جبال طوروس وجبال القوقاز Caucaus، ومن أجل عرض حولها -انظر القسم الخامس- الفصل الثاني، وقد اتخذ هذا القسم الشمالي لنفسه اسم المنطقة كلها، وصار يعرف بشكل دقيق باسم

سورية الجزرية، وفي هذه المنطقة أيضاً نينوى وبابل، وزيادة على هذا، سورية هذه مقسمة إلى مقاطعات هي: ميديا وأكاد وفارس كما هو واضح على المصور (أورده سانوتو في كتابه). أما **سورية الثانية**، فتعرف باسم **سورية المجوفة "البقاع"** وهي ممتدة من جبال طوروس حتى نهر أيانا الذي يدخل البحر عند مدينة بانياس أمام قلعة المرقب، وأنطاكية هي المدينة الرئيسية في سورية هذه.

وتدعى **سورية الثالثة** باسم **"فينيقية"** وهي تبدأ عند نهر بانياس الآنف الذكر، وتمتد جنوباً حتى خربة دستري، التي تعرف باسم دستر كتوم Districtum تحت جبل "كرمل، وهي تعرف الآن باسم قلعة الحجاج (عثليت) وتمتد نحو الشرق حتى مدخل حماة، وبناء عليه أنها تحتوي على كفرنغوم (كفرلام)، والمرقب وطرطوس ومدن أخرى، والمدينة الرئيسية فيها هي صور.

وتدعى **سورية الرابعة** باسم **"سورية دمشق"** لأن المدينة الرئيسية فيها هي دمشق، وتدعى أيضاً باسم سورية ولبنان، لأنه يوجد فيها جبل لبنان المشهور، كما أنها تدعى بالغالب ببساطة باسم "سورية" كما يقول إشعيا: "رأس سورية (آارم) دمشق [راشيحيا ٨/٧] فضلاً عن هذا تدعى ثلاثة أجزاء من فلسطين بالسورية وبناء عليه إن **الجزء الخامس من سورية هو فلسطين**، وهو يدعى بشكل صحيح باسم الفلسطيني، والمدينة الرئيسية في هذا القسم قيسارية، وهو يبدأ عند قلعة الحجاج [عثليت] ويمتد نحو الجنوب مماشياً لساحل البحر المتوسط حتى غزة.

وسورية السادسة هي فلسطين الثانية، والتي المدينة الرئيسية فيها هي القدس، وهي تحتوي جميع المنطقة الهضبية حتى البحر الميت، وإلى قفار قاديش - بارينا Barea وبشكل دقيق تعرف هذه المنطقة باسم اليهودية، وهو اسم جزء أطلق على الجميع (كما يظن ويعتقد ويتوهم صاحب كتاب الأسرار).

وسورية السابعة هي الجزء الآخر من فلسطين، والمدينة الرئيسية فيه هي مدينة بيسان، عند سفح جبل جلبوع، قرب الأردن، ويضم هذا الجزء الخليل وسهل جزريل

الكبير، ومثل هذا تدعى الأجزاء الثلاثة من العربية باسم سورية، وبناء عليه هنا سورية **الثامنة**، التي هي المدينة الرئيسية فيها هي بصرى، وهي تعرف الآن باسم بصريث، وفي قديم العصور باسم برسا، ويحدها منطقة الطرخونية الإيطورية في الغرب، وتمتد حدودها في الشمال تقريباً إلى دمشق، ونظراً لقرب هذا الجزء من العربية من دمشق، فقط دعي في بعض الأحيان باسم سورية الدمشقية، ولهذا السبب عرف أرتاس [أرتاس الأول- المشابيون ٢/٥/٨/] باسم ملك العربية في حين أنه كان في الواقع ملك دمشق.

وسورية التاسعة هي منطقة العربية، التي هي المدينة الرئيسية فيها هي البتراء وهي قد عرفت بالقديم باسم النبطية، وأر، وآريوبولس، وهي قائمة عند بركة أرنون، وعند حدود المشابية والعمورية، وهي قد احتوت مملكة صهيون ملك هشيون، ومملكة عوج ملك باسان، وجبل جلعاد، وتتصل في الجنوب بالعربية الأولى.

وسورية العاشرة هي التي في العربية، ومدينتها الرئيسية هي (مونريال) التي تعرف الآن باسم الكرك وقد عرفت هذه في الأيام الخوالي باسم البتراء في القفار، وهي قائمة فيما وراء البحر الميت، ولها السلطان فوق أراضي مآب، التي قد تعرف أحياناً باسم سورية سوبال Sobal، وتحتوي في داخلها على جميع منطقة آروم، التي هي جبل سعير مع جميع الأراضي حول البحر الميت، حتى قاديش - بارينا، وإلى عزبون - جابر، ومياه الصراع على الطريق الذاهب إلى البحر الأحمر، وعبر القفار الشاسعة حتى إلى الفرات، وهذه هي العربية الكبيرة والأولى وتعرف أيضاً بالعربية الأرومية أي المقدسة ففيها توجد مدينة مكة وهي المدينة التي يُعبد فيها محمد (ص) كتاب الأسرار لسانوتو من ص ٢٥٣-٣١٤.

الهوامش

(١) الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية -تأليف وتحقيق وترجمة د. سهيل زكار- الجزء ٣٦، ص ٧.

(٢) الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية -مشاريع ما بعد الحملة الصليبية- تأليف وتحقيق وتقديم أ. د. سهيل زكار- ط دمشق، ١٤٢٠ هـ، ١٩٩٩، ص ٤، ٣٤٤٥.

(٣) الموسوعة الشامية، ص ٨/ ٣٤٤٦.

(٤) الموسوعة الشامية، كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ٨.

(٥) الموسوعة الشامية، كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ٩.

(٦) الموسوعة الشامية، كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ١٠.

(٧) الموسوعة الشامية، كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ١١.

(٨) الموسوعة الشامية، كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ١٢.

(٩) الموسوعة الشامية، كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ١٣.

(١٠) الموسوعة الشامية، كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ١٤.

(١١) الموسوعة الشامية، كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ١٥.

(١٢) الموسوعة الشامية، كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ١٥-١٦.

(١٣) الموسوعة الشامية، كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ٣١-٥٦.

(١٤) الموسوعة الشامية، كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ٧٠-٧٤.

(١٥) الموسوعة الشامية، كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ٨٤-٨٩.

(١٦) الموسوعة الشامية، كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ١٠٧-١٢٤.

(١٧) الموسوعة الشامية، كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ١٣٧-١٤٥.

(١٨) الموسوعة الشامية، كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ٣١٥-٣٧٤.

(١٩) الموسوعة الشامية، كتاب الأسرار لمارينو سانوتو. ص ١٠٧-١٢٤.

(٢٠) الموسوعة الشامية، كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ١٣٧-١٤٥.

(٢١) عبارات بها علاقة وثيقة جداً بالأحداث التي تشابهت في تاريخنا عبر العصور التاريخية (القديمة والوسطى والحديثة والمعاصرة) المشاريع الاستعمارية الأوروبية (اليونان والرومان)+ المماليك -الغز- السلاجقة -المغول- العثمانيون- وغيرهم، ثم المشروع الصهيوني.

(٢٢) ، (٢٣) (٢٤)، (٢٥)، (٢٦)، (٢٧)، (٢٨)، (٢٩)، (٣٠)، (٣١)، (٣٢)، (٣٣)، (٣٤)، (٣٥)، (٣٦)، (٣٧)، (٣٨)، (٣٩)، (٤٠).

القسم الرابع من كتاب الأسرار لسانوتو ويدور حول الخطة والأسلوب والترتيب والاحتمالات الممكن حدوثها في حال نشوب المعارك وما يتعلق بها، وذلك من أجل تحقيق مشروع الأرض المقدسة، وفيه إيضاح على أن المسلمين والمنشقين لن يتمكنوا بشكل منطقي من الدفاع عن الأرض، وفيه تسع وعشرين فصلاً تحمل عدد من العناوين والشروح التفصيلية والتي تستهدف أولاً وأخيراً تسهيل مهمة السيطرة على هذه المنطقة الهامة من العالم.

(٤١) الموسوعة الشامية، كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ١٤٦-٢٤٥.

(٤٢) الموسوعة الشامية، كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ٢٥٣-٣١٤.

أوضاع دمشق في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي من خلال كتاب ((الذيل)) لأبي شامة صاحب الروضتين

الدكتورة وفاء جوني

قسم التاريخ

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

أوضاع دمشق في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي من خلال كتاب ((الذيل)) لأبي شامة صاحب الروضتين

الدكتورة وفاء جوني

قسم التاريخ

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

مقدمة:

بعد معركة حطين ببضع سنوات، توفي صلاح الدين الأيوبي عام ٥٨٩هـ/١١٩٣م، وخلّف وراءه مملكة واسعة الأطراف، وفراغاً ضخماً، لم يستطع أحداً من أبنائه السبعة عشر، أو أخوته، أو أبنائه أخوته، أن يملأه.

لقد وزّع صلاح الدين دولته بين أخوته وأبنائه خلال حياته، وأعاد التوزيع عدة مرات، وفي المرة الأخيرة، جعل لأولاده المناطق الحساسة والكبيرة، وجعل لأخوته وأقاربه مناطق الأطراف، فأوصى بالسلطنة لابنه الأفضل، وجعله حاكماً على منطقة دمشق، وجعل مصر لابنه العزيز عثمان، وحلب لابنه الظاهر غازي، وكانت منطقة الجزيرة

إضافة إلى الكرك من نصيب أخيه العادل، وأعطى حمص لحفيد عمه شيركوه، أما حماة فكانت بيد حفيد أخيه المنصور بن تقي الدين عمر.

ويبدو أن صلاح الدين، كان قد غرس بيده نية الخلاف بين أفراد أسرته، حين عدّ أراضي السلطنة كالملك الشخصي يمكن توزيعه بين الأبناء والأخوة بحسب الرغبة، ولا نستطيع أن نقول: إن ذلك كان مفروضاً عليه، أو أن الظروف أجبرته على ذلك، ففي حديث له مع القاضي ابن شداد بعد تحرير بيت المقدس، صرّح فيه صلاح الدين عن رغبته في متابعة الصليبيين إلى بلادهم قائلاً:

((...... متى ما يسر الله تعالى فتح بقية الساحل، قسمت البلاد، وأوصيت وودعت، وركبت هذا البحر إلى جزائره، أتبعهم فيه حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت[1])).

ومن خلال هذا الحديث نستدل على أن تقسيم صلاح الدين لأملاكه، كان ضمن خطة رسمها لنفسه قبل وفاته.

لقد خلق هذا الوضع مرحلة جديدة، يمكن تسميتها مرحلة الصراع الأيوبي، فالأفضل لم يكن يصلح للزعامة، لضعفه وسوء سيرته، فقد سمي بالملك النوام، والعادل لم تعجبه حصته من دولة صلاح الدين، فأخذ يعمل على إثارة الفتن والمنازعات بين أبناء صلاح الدين، لتصبح له الكلمة العليا في السلطنة، وهكذا مرت الدولة الأيوبية بحقبة من الحروب والخلافات داخل أفراد البيت الأيوبي.

أدى انقسام الدولة الأيوبية، التي أمضى صلاح الدين عشرين عاما من عمره يشيّد بنيانها، إلى إضعاف قوتها العسكرية من جهة، فقد أصبح ملوك الدويلات الأيوبية وأمراؤها في عداء فيما بينهم، فإن كان صلاح الدين، قد أحسن السيرة، وجاهد ضد الفرنج، واستعاد بين المقدس وغيرها، فإننا نرى أن أبناءه وأفراد أسرته، الذين حكموا من بعده، قد أساءوا السيرة، وهدموا كل ما بناه صلاح الدين، وأهملوا شؤون البلاد،

والرعية، يتقاتلون فيما بينهم، وغارات الفرنج مستمرة على البلاد... لقد كان هؤلاء الحكام، ليس لهم هدف، غير الوصول إلى السلطة، وحياة الترف والبذخ بأموال الشعب، منهكين كاهله بمتطلباتهم، مستنزفين كل طاقاته وإمكاناته، مسببين له الويلات والدمار، تاركين مصيره للأقدار... في هذه الظروف القاسية والمضطربة، عاش مؤرخنا أبو شامة (من مواليد دمشق) فآلمه ما رأى من حكامه، وقارن حاضره بماضيه القريب (أي عهد نور الدين زنكي ثم صلاح الدين الأيوبي) فشرع يقرأ التاريخ، بعد أن أتقن علوم عصره، وأخذ يكتب في التاريخ، ليشجع ملوك البيت الأيوبي على الاقتداء بسيرة صلاح الدين، فبدأ بتأليف كتاب أسماه ((تاريخ الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية)). ثم هذّبه وزاد عليه وسمّاه ((عيون الروضتين)) وبعد ذلك على الروضتين بكتاب عرف بذيل الروضتين، أو ((تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجريين)). الذي بين أيدينا، وقد بدأه من عام ٥٩٠هـ/١١٩٤م إلى عام ٦٦٥هـ/١٢٦٦م، أي منذ ما قبل ولادته بتسع سنوات حتى وفاته، وفي ذلك قال: ((وكان قد سهّل الله تعالى لي، وحبّب إليّ أن جمعت في كتاب الروضتين، كثيرا من الحوادث الواقعة في زمن الدولتين النورية والصلاحية سقى الله عهدهما، وأصلح ما بعدهما، وانتهى ذلك إلى سنة وفاة صلاح الدين، ثم خطر لي أن أجمع كتابا، يتضمن كثيرا من الحوادث بعد ذلك، إلى آخر ما تدركه حياتي، وكان فيما حملني على ذلك، كثرة موت المعارف، فأردت إثباتهم لعلي بمطالعتهم أجد قلبا على الآخرة يساعف(٢))).

وعلى الرغم من أن كتاب الذيل هو تراجم وفيات الرجال والأعيان، إلا إننا يمكننا أن نكون من خلال المعلومات المتناثرة هنا وهناك، صورة وافية عن أوضاع دمشق خلال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي/، وذلك لأن أبا شامة، عاش مع الناس العاديين في دمشق، وأقام بينهم، ولم يتقرب كثيرا من ذوي السلطة، فمن المعروف أن الكتابات التاريخية في العصور السالفة، كانت بمجملها سياسية

وعسكرية، ونادراً ما اهتم المؤرخون في الماضي بغير أخبار الحكام من ملوك وسلاطين، ومن هنا كانت أهمية هذا الكتاب الذي تحدث عن أخبار شريحة واسعة من المجتمع الشامي، ضمّت إلى جانب الأعيان والقادة والشيوخ، الكثير من الناس العاديين (العامة)، من خلال حوادث غريبة، وقصص طريفة، ذكرها دون أو يوليها من الأهمية ما تستحقه، لأنها لم تكن غاية كتابه الأساسية، فالقصد من كتابه كان على حدّ قوله: كتابة ترجمة لوفيات رجال عصره من ((المعارف والأخوان والأقارب والجيران، وذوي الثروة والسلطان[٣])). ولا ننسى القصائد والأشعار الكثيرة، التي زينت كتابه، وأضفت عليه مسحة من المتعة والتغيير، سواء أكانت له أم لغيره، فكانت تلك الأشعار تحكي قصصاً كثيرة، وتجيب على أسئلة عديدة، وتشرح واقعاً مُرّاً عاشه المؤرخ ومجتمعه بأكمله.

أوضاع دمشق من خلال كتاب الذيل:

أولاً: الحياة الاقتصادية بشكل عام:

قبل الدخول في الحديث عن الأوضاع الاقتصادية، لا بدّ من القول: إن الحروب الصليبية التي استمرت طوال قرنين من الزمان، قد أرهقت المنطقة العربية الإسلامية، وكانت سبباً في حدوث تغييرات كثيرة، كما أنها تركت بصماتها السلبية على جوانب عديدة من جوانب الحياة العربية الإسلامية، فقد أنهكت الموارد الاقتصادية والبشرية للمنطقة، وكما تسببت في حدوث بعض التغيرات السلبية على المستوى السكاني والاجتماعي والثقافي... لقد استنفدت تلك الحروب موارد الأمة العربية، التي وجدت نفسها مضطرة لتوجيه كل طاقاتها وإمكاناتها نحو العمل العسكري[٤]، فإذا أضفنا إلى ذلك، ما وصلت إليه بلادنا في ظل حكّام من البيت الأيوبي من خلفاء صلاح الدين (الغرباء عن البلاد)، الذين كان لا همّ لهم إلا جمع المال والثروة، وإثارة الفتن والحروب من أجل الوصول إلى السلطة، ضاربين بمصالح الشعب عرض الحائط،

يعيشون عيشاً رغيداً على حساب فناء الشعب، كل ذلك والغزو المغولي في طريقه إلى البلاد... أدركنا واقع الحال...

لقد عاش أبو شامة في نهاية العصر الأيوبي ومع بداية الحكم المملوكي، الذي ترافق مع الاحتلال المغولي لبعض البلدان العربية، لذلك فإنه يعدّ خير من قدّم صورة المجتمع الدمشقي في تلك الحقبة. وكتاب الذيل، كغيره من كتب ذلك الزمان، اهتم بأحداث العالم الإسلامي بشكل عام، من هنا كانت للمادة السياسية، أما المعلومات الاقتصادية، فهي شذرات متفرقة في الكتاب، حاولت تتبعها وجمعها من خلال المواد السياسية، لذلك تداخلت السياسة مع الاقتصاد، وهذا أمر طبيعي ففي كل دولة من الدول مهما بلغت عظمتها، لا يمكن فصل الاقتصاد عن سياسة البلد، يضاف إلى ذلك ارتباط ما جرى في الشام بما كان يجري في مصر مقرّ السلطنة الأيوبية ومن بعدها المملوكية.

ولنتابع مع أبي شامة أوضاع دمشق الاقتصادية آنذاك... ففي أحداث سنة ست وتسعين وخمسمئة ٥٩٦هـ/١٢٠٠م، ((توفي الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين، صاحب الديار المصرية، وعمره سبع وعشرون سنة وثمانية أشهر وأيام، وتوجه أخوه الأفضل من صرخد إلى مصر، فدخل القاهرة، ثم استصحب ولد العزيز على أنه أتابكة، وخرجا إلى الشام بالعساكر، فحصر دمشق، وأحرق جميع ما هو خارج باب الجابية من الفنادق، والحوانيت، وأحرق النيرب، وأبواب الطواحين، وقطعت الأنهار، وأحرقت غلة حرستا في بيادرها(٥))).

لقد استغل الأفضل وفاة أخيه العزيز صاحب مصر، فخرج من صرخد (بعد أن خسر دمشق لصالح عمه العادل نتيجة ضعفه وسوء تدبيره) إلى مصر، وجعل نفسه أتابكاً لابن أخيه الصغير، المنصور محمد، وعمره تسع سنوات وبضعة أشهر، وهنا كان من المفروض أن يبقى الأفضل في مصر، حاكماً لها باسم المنصور محمد الطفل، لكنه

بدلاً من ذلك، أراد أن يستعيد ما ضاع منه من أملاك، وخاصة دمشق، لذلك توجه إليها مع ابن أخيه الصغير على رأس جيشه، وقام بحصارها، وإحراق ما ذكره أبو شامة من فنادق وجوانيت وغلال وغير ذلك... وبكلمة أخرى، إن الصراع على السلطة معناه أن يدفع الشعب الثمن... ثم أعاد الأفضل المحاولة مرة أخرى في العام ذاته، وذلك بمساعدة أخيه الظاهر غازي صاحب حلب، وقد حاصرا دمشق بعساكرهما ((وحفروا عليها خندقاً من أرض اللوات إلى أرض يلدا مشرقاً، احترازاً من مهاجمة من بدمشق لهم فيها[٦]))، وبعد ذلك افترق الأخوان وعاد كل منهما إلى بلاده، لكن الأفضل لم يرتدع وأعاد المحاولة من جديد، وهنا كان عمه العادل بالمرصاد له، إذ تمكن العادل من الاستئثار بالسلطنة لوحده وذلك عام ٥٩٦هـ/١٢٠٠م، وبعد ذلك بعام واحد، أي في سنة سبع وسبعين وخمسمئة، نزلت النوائب متتابعة بأرض مصر والشام، فذكر أبو شامة: ((وفيها كانت حوادث كثيرة عظيمة، منها هبوط نيل مصر، نهرب الناس إلى المغرب والحجاز واليمن والشام، وتفرقوا أيدي سبأ ومزقوا كل ممزق، أعظم من سنة اثنين وستين وأربعمئة في أيام الملقب بالمستنصر بن الظاهر بن الحاكم أحد الخلفاء الفاطميين، فإن الناس في هذه السنة كان الرجل يذبح ولده الصغير وتساعده أمه على طبخه وشيه، وأحرق السلطان جماعة فعلوا ذلك ولم ينتهوا، وكان الرجل يدعو صديقه وأحب الناس إليه إلى منزله ليضيفه فيذبحه ويأكله، وفعلوا كذلك بالأطباء، وكانوا يدعونهم ليبصروا المرضى فيقتلونهم ويأكلونهم، وفقدت الميتات والجيف من كثرة ما أكولها، وكانوا يخطفون الصبيان من الشوارع فيأكلونهم، وكفن السلطان من مدة يسيرة مائتي ألف وعشرين ألفاً، وامتلأت طرقات المغرب والحجار والشام برمم الناس، وصلى إمام جامع الاسكندرية في يوم واحد على سبعمئة جنازة[٧])).

قد يستغرب المرء تلك القصص، ويعتقد أن فيها مبالغة كثيرة، ولكن إذا عدنا إلى مصادر أخرى عاصرت تلك الحقبة، مثل كتاب ((السلوك)) للمقريزي، لوجدناه ذكر مثل ذلك بقوله:

((فكانت المرأة توجد وقد خبأت في عبها كتف الصغير أو فخذه، وكذلك الرجل، وكان بعضهم يدخل بيت جاره فيجد القدر على النار، فينتظرها حتى تنزل ليأكل منها، فإذا فيها لحم الأطفال، وأكثر ما كان يوجد ذلك في أكابر البيوت، ويوجد النساء والرجال في الأسواق والطرقات، ومعهم لحوم الأطفال، وأحرق في أقل من شهرين ثلاثون امرأة، وجد معهن لحوم الأطفال، ثم فشا ذلك حتى اتخذه الناس غذاء وعشاء وألفوه، وقل منعهم منه، فإنهم لم يجدوا شيئاً من القوت، لا الحبوب ولا الخضراوات[٨])). وكذلك ذكر عبد اللطيف البغدادي في كتابه ((الإفادة والاعتبار))، قصصاً تقشعرّ لها الأبدان، ويشيب لهولها الأطفال، فمما ذكره في حوادث تلك السنة ذاتها: ((وتجد أطفال الفقراء وصبيانهم، ممن لم يبق له كفيل ولا حارس، منبثين في جميع أقطار البلاد، وأزقة الدروب، كالجراد المنتشر، ورجال الفقراء ونساؤهم يتصيدون هؤلاء الصغار ويتغذون بهم...[٩])). وبعد أن سرد البغدادي قصصاً كثيرة عن أكل لحوم البشر، ونبش القبور، وأكل الموتى. قال: ((وأما طريق الشام، فقد تواترت الأخبار أنها صارت مزرعة لبني آدم، بل محصدة، وأنها عادت مأدبة بلحومهم للطير والسباع، وأن كلابهم التي صحبتهم من منجلاهم هي التي تأكل فيهم... وكثيراً ما كانت المرأة تتملص من صبيتها في الزحام فيتضورون جوعاً حتى يموتوا، وأما بيع الأحرار فشاع وساع عند من لا يراقب الله، حتى تباع الجارية الحسناء بدراهم معدودة، وعرض علي جاريتان مراهقتان بدينار واحد...[١٠])). والمستعرض لمواد كتاب البغدادي يجد أنها تحكي قصة انهيار كامل اقتصادياً واجتماعياً وخلقياً... وقد ترافقت تلك المجاعات مع أوبئة وزلازل هائلة. بدأت من الصعيد، ثم عمت الدنيا، وامتدت إلى الشام، وذكر أبو شامة في ذلك: ((وجاءت في شعبان زلزلة هائلة من الصعيد، فعمت الدنيا في

ساعة واحدة، هدمت بنيان مصر، فمات تحت الهدم خلقٌ كثير، ثم امتدت إلى الشام والساحل[11])).

لقد كان لذلك كل أثره على الشام، فاضطربت أوضاعها، وارتفعت أسعارها، وزادتها الزلازل بلاءً، فقد مات تحت الردم خلق كثير، وقال أبو شامة في ذلك نقلاً عن سبط ابن الجوزي: ((وأحصي من هلك في هذه السنة على سبيل التقريب، فكان ألف ألف إنسان، وكانت قوة إنسان، وكانت قوة الزلزلة في مبدأ الأمر بمقدار ما يقرأ الإنسان سورة الكهف، ثم دامت بعد ذلك أياماً[12])).

لقد امتدت الزلزلة إلى دمشق ((فرمت بعض المنارة الشرقية بجامع دمشق، وأكثر الكلاسة، والبيمارستان النوري، وعامة دور دمشق إلا القليل، وهرب الناس إلى الميادين، وسقط من الجامع ست عشرة شرفة، وتشققت قبة النسر، وتهدمت بالناس وهو بين بين[13]))، وتكررت الزلزلة في العام التالي ٥٩٨هـ/١٢٠٢م، ((ورمت بدمشق رؤوس منائر الجامع وبعض شراريفه من شماله[14])).

إن فناء تلك الأعداد من البشر (على الرغم من المبالغة بالأرقام) في ذلك الزمن، يعني فناء وخراب بلاد بأكملها، وبالتالي تعطل النشاطات السكانية والحياتية بمختلف أنواعها، وما يلزم ذلك من انقضاء سنوات طويلة لترميم وإصلاح الأوضاع، وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال، وهو ما موقف الحكام الأيوبيين وسلطانهم العادل من هذا الحال، وهل عانوا مثل ما عانى الشعب؟

وفي الحقيقة نلمس عند أبي شامة إجابة على ذلك، لكنه لم يفصّل لنا فيها كثيراً، فقد قال: ((وأشرفت الأعمال المصرية على الخراب الكلي، لولا تدارك لطف الله تعالى بإجراء نيلها، والإسعاد بما كان للملك العادل فيها من الغلال التي صرفها في تقاوي البلاد ومؤن وإعانة، وبيعاً، وصدقة، فتماسك من كان مقيماً بها، وتراجع إليها من قدر على الرجوع من أهلها[15])). أما المقريزي مؤرخ مصر، فقد أوضح لنا الحال

بتفصيل أكبر، فقد استشرى أمر المجاعة، بعدما ما استمر انقطاع النيل ثلاث سنوات، وتجمع عشرات الألوف من النازحين أمام قصر السلطنة، واضطر السلطان العادل الأيوبي لإيجاد علاج لهذه الجائحة، فأطلق للفقراء شيئاً من الغذاء وقسم الفقراء على أرباب الأموال، وأخذ منهم اثني عشر نفساً، وجعلهم في مناخ القصر، وأفاض عليهم القوت، وكذلك فعل جميع الأمراء وأرباب السعة والثراء، وكان الواحد من أهل الفاقة، إذا امتلأ بطنه بالطعام بعد طول الطوى سقط ميتاً، فكان يدفن منهم كل يوم العدة الوافرة، حتى أن العادل، قام في مدة يسيرة بمواراة نحو مائتي ألف وعشرين ألف ميت .

وهكذا جاء العلاج الحكومي متأخراً جداً، كما أنه أفاد السلطة بأن خلصها ببضع لقيمات، من عدة ألوف من الجائعين الذين تجمهروا أمام القصر، وفي أزقة المدينة وطرقاتها.

تلك كانت معاناة الحكام... فهم بالتأكيد لم يعانوا ويقاسوا ما لاقاه الشعب، فقد ظلت خزائنهم مليئة بالأموال، ومطابخهم عامرة بالحبوب والأطعمة، وبالمؤن واللحوم... بدليل أنهم لم يهملوا صراعاتهم على السلطة،حتى في تلك الظروف القاسية، إذ ظلت الحروب مشتعلة فيما بينهم، فقد حاصر الأفضل ومعه الظاهر (صاحب حلب)، دمشق في السنة ذاتها ٥٩٧هـ/١٢٠١م، وكان العادل آنذاك في مصر، ثم حضر إلى دمشق ((وزحف الأفضل والظاهر، فوصلوا إلى باب الفراديس، وأحرقوا فندق تقي الدين، فقاتلهم المعظم، وحفظ البلد، فأقاموا نحو شهرين، وبعث العادل فأوقع الخلف بين الآخرين فرحلوا...[١٦])).

ثم إن هناك أمراً جميلاً نجده عند أبي شامة، وهو قياس الزلزلة، ولعلّه أراد بذلك قياس مقدار زمن الزلزلة وليس شدتها، لأن قياس الشدة أمر يحتاج إلى مقاييس علمية دقيقة، لم يتوصل إليها العلم زمن أبي شامة، وأبو شامة عندما تحدث عن الزلزال، نقل

لنا بعض الظواهر الغريبة المدهشة التي رافقتها، مثل تساقط نجوم كبيرة، ورؤية دخان نازل من السماء إلى الأرض بنواحي أرض عاتكة ظاهر دمشق، وذلك سنة ثمان وستمئة[١٧]، وفي سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٤م، ((احترقت خزانة السلاح لحامية دمشق التي تعمل النشاب، وذهب جميع ما فيها[١٨]، ولم يبيّن لنا أبو شامة سبب الحريق، ونحن لا نلومه على ذلك لأن كتابه كتاب تراجم وفيات بالدرجة الأولى، ولكن ما أردنا الخبر لكي نصل من خلاله إلى القول: إن حادثاً كهذا يعطي الحكام مسوغاً لفرض ضرائب جديدة على الشعب لتعويض السلاح الذي احترق. أما في حوادث سنة تسع عشرة وستمئة ٦١٩هـ/١٢٢٢م، فقال" ((وفيها ظهر بالشام جراد كثير، لم يعهد مثله فأكل الزرع والشجر والثمر، فأظهر المعظم (ابن العادل الأيوبي وهو صاحب دمشق) أن ببلاد العجم طيراً يقال له السمرمر، يأكل الجراد، فأرسل الصدر البكري محتسب دمشق، ورتب معه صوفية وقال: يمضي إلى العجم فهناك عين تجتمع فيها السمرمر، فتأخذ من مائها في قوارير وتعلقه على رؤوس الرماح، فكلما رآه السمرمر تبعك، وما كان مقصوده إلا أن يبعث البكري إلى جلال الدين خوارزم شاه، واتفق معه لما بلغه اتفاق أخويه الكامل والأشرف عليه، فاجتمع البكري بالخوارزمي وقرر معه الأمور وجعله سندا له، وكان الجراد قد قلّ فلما عاد البكري كثر الجراد. قال الناس في ذلك أشعاراً، وظهر فعل المعظم للناس، وعلم الأشرف والكامل، وشاع الحديث، فقيل للمعظم؛ لو كنت بعثت رسالة مع بعض التجار الذين يسافرون إلى خراسان كان أولى. ولما عاد البكري من الرسالة ولاّه المعظم مشيخة الشيوخ مضافة إلى الحسبة[١٩])).

لقد كان قصد المعظم من إرسال المحتسب تلك الرحلة الطويلة، الاتفاق مع السلطان جلال الدين خوارزم شاه ضد أخويه الكامل والأشرف، ولم يكن قصده أن يغيث شعبه ويجد حلاً لمشكلة الجراد، وقد أراد القدر أن تتكشف حيلته فعاد الجراد بكثرة مع عودة المحتسب، والمفروض هنا أن يقل الجراد لأن العلاج قد حضر مع المحتسب... إن هذه القصة توضح لنا أموراً كثيرة، اقتصادية وسياسية وإدارية وغير ذلك... فالإنسان

العادي في ظل الحكم الأيوبي. كان يعاني أشد المعاناة من ضرائب، وكوارث بشرية (حروب وويلات) وكوارث طبيعية (زلازل وجراد) تقضي على محصوله الذي يقتات منه، فيشكي حاله للسلطان. وهذا أمر طبيعي، ولكن السلطان كان يضرب بمصلحة الشعب عرض الحائط مؤثرا عليها مصلحته الخاصة التي لا يعلو عليها شيء، تاركاً أفراد شعبه لقدرهم. وهو يعدهم ويمنيهم الآمال بالنجدة والعون. وبدلا من ذلك، قام بترقية المحتسب وسلمه مشيخة الشيوخ أيضا، هذا كان حال ملوك البيت الأيوبي بمجملهم. فقد ذكر المقريزي في أحداث عام ٥٩٢هـ/١١٩٦م، ((وسلم شد الأموال بالدواوين، إلى بهاء الدين قراقوش، مضافا إلى شد الزكوات. فكمل شد المال له، وفيه كثر الموت...[٢٠])). وكثيرا ما ذكر أبو شامة في حوادث سنواته، تعرض دمشق للحصار، وما جره ذلك من خراب وويلات على أفراد الشعب. ففي حوادث سنة ست وعشرين وستمئة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م، قال: ((تقدمت جيوش الكامل مع أخوته الأشرف، والمظفر، والعزيز، والصالح، وابني أخيه الجواد بن محمد، وداوود بن المغيث،ومعهم صاحب حمص، وعسكر حلب وحماة، فنزلوا عند الجسور وراء مسجد القدم، وقطعوا عن دمشق أنهارها: بانياس، والقنوات، ثم يزيد وتورا، ونهبت البساتين، وأحرقت الجواسق، وخربت رباع، وبادت الأشجار بانقطاع الماء، وجرت وقعات، فقتل قوم وجرح آخرون، وهدم الكثير من الرباع والخانات حول البلد من خارج لاسيما على كل باب، ولما كان يوم السبت... وقعت بينهم وقعة عظيمة قتل فيها خلق كثير، وجرح جمّ غفير، ونهب قصر حجاج والشاغور، وأطلق فيها النيران، ووصلت خيل محاصرين إلى دور البلد من جوانبه، ودخلوا الميدان الأخضر، ثم رجعوا آخر النهار إلى خيامهم وقد كثرت القتلى والجرحى في الفريقين، وكثر الحريق والنهب[٢١])).

لقد جرّد ملوك البيت الأيوبي أسلحتهم ضد بعضهم البعض، واستنزفوا طاقاتهم ليستولي أحدهم على ملك الآخر، فما إن سلم الكامل بيت المقدس إلى الصليبيين في

اتفاقية يافا ٦٢٦هـ/١٢٢٩م، حتى تفرغ لمحاربة ابن أخيه صاحب دمشق (الناصر داود بن المعظم)، فكانت تلك الوقعة[٢٢])).

وفي سنة خمس وثلاثين وستمئة، ذكر أبو شامة حصار دمشق مجدداً، فقال: ((حوصرت دمشق، وفيها الصلاح اسماعيل بن أبي بكر بن أيوب، حاصره الكامل أخوه وابن أخيه الناصر داود... فجرى نحو الحصار المتقدم سنة ست وعشرين إلا أن هذا الحصار كان أكثر خراباً في ظاهر البلد، ورحيقاً ومصادرةً، وأقل غلاءً، ولم تطل مدته،فإن الصلح جرى...[٢٣])). ولكن بعد عام واحد، أي في سنة ست وثلاثين وستمئة ٦٣٦هـ/١٢٣٩م، ((ظهر بدمشق غلاء شديد لم يعهد بمثله قبلها، بلغت غرارة الحنطة خمسة وعشرين ديناراً بالمصرية، وذلك مائتا درهم وخمسة وعشرون درهماً، وزاد رطل الخبز الخرجي على درهم، وجميع أنواع المطعومات غلت...[٢٤]))، وإذا كان الحكام لا رحمة ترجى منهم، فلننتظر إلى رحمة السماء في تلك السنوات، ففي سنة ٦٣٦هـ/١٢٤٠م، في أيام المشمش ((جاء مطر عظيم نهاراً، جرت منه سيول عظيمة، هدمت كثيراً من الحيطان والبيوت[٢٥])). وفي أواخر السنة التي تلتها: ((ظهر نقصان المياه من السماء والأرض، نقصت الأنهار، ونقصت الآبار، وهلك الزرع والثمار[٢٦]))...؟

أما في سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٥م، فقد ((كسرت الإفرنج لعنهم الله ومن انضم إليهم من منافقي المسلمين كسرة عظيمة من عسقلان وغزة، وغنم منهم أموال عظيمة وأسر من الفرنج خلق من ملوكهم وكبرائهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وذهب برؤوس المقتلين والمأسورين إلى مصر، ووقع الرعب في قلب صاحب دمشق، فتهيأ للحصار، وخرب رباعاً كثيرة حول البلد، وغرقت المساكن التي على حافة بردى، بين جسري بابي توما والسلامة، بسبب خراب جسر باب توما وسده، فرجع الماء وارتفع، وصار بحراً. فوقع ما كان على حافته والله المستعان[٢٧])).

لقد خاف صاحب دمشق من حدوث هجمة انتقامية من قبل الفرنج على دمشق، فقام باتخاذ بعض الإجراءات الاحتياطية لإنقاذ البلد، فماذا كانت النتيجة!؟

كانت النتيجة بدل أن يأتي الفرنج ويخربون البلد، خربته إجراءات الحاكم الوقائية!!

وفي السنة التالية، أي سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٦م، افتتح أبو شامة حوادث السنة، بذكر أن دمشق ما زالت محاصرة، وقد ((ضويقت مضايقة شديدة وقد اجتمع عليها عساكر عظيمة من المصريين والخوارزمية وغيرهم. ففي تلك الليلة أحرق قصر الحجاج، والشاغور، واستولى الحريق على مساجد وخانات، ودور عظيمة، ومن ذلك مسجد جراح خارج باب الصغير، وكان جامعاً تقام فيه الجمعات، ثم نصبت على دمشق المجانيق، ورميت به بين بابي الجابية والصغير، ونصبت أيضاً مجانيق داخل البلد، وترامى الفريقان، وأمر بتخريب حارة العقيبة خارج باب الفراديس، وباب السلامة، وباب الفرج، وأحرق حكر السماق خارج باب النصر، واشتد الغلاء، وعظم البلاء... ثم أحرقت العقيبة في أول ربيع الأول(٢٨))). ولكن بعد ذلك تم فك الحصار عن دمشق، وتحقق الصلح والحمد لله... ولكن الناس لم ينعموا طويلاً بذلك الصلح، ففي أواخر السنة ذاتها ذكر أبو شامة: ((وفيها اشتد الغلاء بسبب قطع الخوارزمية الطرقات،... بلغت غرارة القمح ستمئة درهم ناصرية نصفها بثلاثمئة درهم، وبيع الخبز كل رطل بثلاثة دراهم أو بأربعة دراهم على تفاوت الأخبار، والله يكشف هذا الضر برحمته،... وبقيت الصعاليك مرميين في الطرقات، وكانوا يطلبون لقمة، ثم صاروا يطلبون فلساً يشترون به نخالة يبلونها ويأكلونها كما تطعم الدجاج، وشاهدت ذلك بعيني ثم اشتد الغلاء زيادة على ذلك فبلغ كل غرارة حنطة بمئة دينار صورية ثم ناصرية، ثم سمعت أنه بيع عشرة غرائر بعشرة آلاف درهم، وكتب بها وثيقة على المشتري إلى أجل شهرين، واشتريت أنا الخبز كل رطل بأربعة دراهم غير مرة، ثم تفاقم الأمر.. فبيع الخبز الأسود كل أوقيتين بدرهم، وخبز الشعير كل أوقيتين ونصف بدرهم، وبلغت الغرارة ألفاً ومئتي درهم وخمسين درهماً فضة ناصرية، وببيع الدقيق

كل أوقية بدرهم، كل رطل بنحو عشرة دراهم، وبيع الشعير كل كيل بخمسين درهماً الغرارة بستمئة درهم... وكذا الدبس بلغت الحلاوة الجوزية من الدبس كل أوقية بدرهم، وسمعت من ينادي عليها وقد نزل السعر بباب الجامع الغربي من باب البريد يقول أرخص الله أسعار المسلمين كل أوقية بستة عشر قرطاساً، فقال بعض السامعين: كنا نأخذها بعشرة فلوس الوقية، واليوم نفرح كيف وصلت إلى ستة عشرة قرطاساً، وبيع البقلاء الأخضر كل رطل بدرهم وربع... والفحم الردي كل رطل بستة دراهم، ولم تنزل الأسعار في اشتداد وارتفاع إلى أن بيع مد الحنطة بعشرين درهماً ونحوها، وبلغت الغرارة ألفاً وخمسمئة درهم، وبيع الخبز كل أوقيتين إلا ربع بدرهم والرطل سبعة دراهم في يوم عيد النحر وقبله، ثم إن الله تعالى نفسَ عن الناس بنزول السعر من بعد عيد الأضحى، ولم يزل يأخذ في النزول إلى أن بيع الخبز آخر السنة كل رطل بدرهمين، واللحم كذلك...[٢٩]))، واستمرت الأوضاع على ذلك حتى السنة التالية حيث ((كسرت الخوارزمية أشد كسرة وقتلت ملوكهم، وسبيت نساؤهم، وغنمت أموالهم بين أرض بعلبك وحمص، وكسرهم الملك المنصور إبراهيم بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص، ومعه جيوش حلب وحماة، وغيرها من البلاد، وجاءنا الخبر بذلك إلى دمشق فبيع الخبز كل رطل بدرهم ونصف، والحمد لله على هذه النعمة، ونسأله المزيد بفضله[٣٠])).

وهكذا كان يتكرر حصار دمشق بين الحين والآخر، وبأوقات متقاربة، وكان يزداد الضغط على السكان، فينقطع عنهم الطعام والمؤن، كما تقطع عنهم مياه الأنهار، وتبدأ المعارك، ويكثر القتل والأسر والحرائق، ويجوع الناس ويطرحون في الطرقات، من شدة الجوع، وليس هناك من يرجم من جهة الملوك والحكام وذوي السلطان "مع قدرتهم على ذلك بالأموال المكدسة لديهم"[٣١])). وكانت ترتفع الأسعار، وتستمر في الارتفاع، ولا يأتي الفرج إلا بعد طول جهد ومشقة، وما إن يتنفس الناس الصعداء حتى يبتلون بغزو جديد وحصار جديد... وكان من يفرض الحصار، إما من ملوك

البيت الأيوبي أنفسهم، أو من الفرنج، أو الخوارزمية أو التاتار والمغول، فأين الفـوج، وكل هؤلاء محدقين بالبلاد...!؟ ولو تتبعنا تطور الأحوال الاقتصادية في دمشق، بعـد قيام دولة المماليك، لوجدنا أنها ازدادت سوءً وذلك بسبب قدوم المغـول واحتلالـهم بغداد، والدمار الذي ألحقوه بالبلاد، وبالتالي وصول أنباء عن قرب وصولـهم إلـى الشام، ففي أخبار السنة التي احتل فيها المغول بغداد، ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، قـال أبـو شامة: ((وكثرت الرجفات بقصد التاتار بلاد الشام، ونزولهم علـى الفـرات...[٣٢]))، وفي أخبار السنة التالية، شرح لنا أبو شامة الوضع بدقة: ((وفي هذه السـنة، كـثرت الأراجيف بدمشق بسبب التاتار أهلكهم الله، وردت أخبار بأنهم قطعوا الفرات، وأغاروا على بلاد حلب، فهرب كثير من الدمشقيين، وباعوا حواصلهم، وخرجوا على وجوههم متفرقين في البراري والجبال والحصون، وصادف ذلك أيام الشتاء وقوة البرد، فمـات كثير منهم، ونهب آخرون، وثبت في البلد من قوّى الله قلبه وإيمانه[٣٣])).

هكذا كان حال الناس، والمغول لم يصلوا بعد إلى دمشق، فكيف سيكون الحـال بعـد وصولهم. تابع أبو شامة أخبار المغول في حوادث سـنة ثمـان وخمسـين وسـتمئة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، ((ورد الخبر إلى دمشق باستيلاء التاتار علـى حلـب بالسـيف، وهرب صاحبها من دمشق بأمرائه الموافقين له على سوء تدبيره، وزال ملكه عن تلك البلاد، وكان نزول التاتار على حلب في ثاني صفر، واستولوا عليها بعد سبعة أيام في تاسع صفر، وأمنوهم ثم غدروا بهم فقتلوهم، وكان رسل التاتار عندنا بقرية حرسـتا، فأدخلوا دمشق...[٣٤])). ثم تابع الأحداث بعد ذلك قائلاً: ((وفي ربيع الآخر، رجعـت عساكر التاتار التي كانت عبرت على دمشق، بعدما عاثت في بلاد حـوران، وارض نابلس وما حولها... فقتلوا على عاداتهم الرجال، وسبوا الصبيان والنساء، واستاقوا من الأسارى والغنائم من البقر والغنم والأسلاب شيئاً كثيراً، ووصلوا بذلك إلـى دمشـق، فاشترى من الأسرى شيء كثير، وهرب بعضهم، واستحيوا خلقاً كثيراً...[٣٥])).

وبعد ذلك تحدث عن حصار قلعة دمشق في السنة ذاتها بقوله: ((وقد كانت قلعة دمشق، امتنع بها الوالي والنقيب في جميع كثير بها، فاحتيج إلى حصارها، فجاءها من التاتار خلقٌ كثير... فباتوا تلك الليلة حتى قطعوا من الأخشاب ما احتاجوا إليه، وكانوا استصحبوا معهم المجانيق تجرها الخيل وهم ركاب عليها، وقدموا قبل ذلك أسلحة تجرها البقر على العجل، وأصبحوا يوم الاثنين يجمعون الحجارة لرمي المجانيق، فأخربوا حيطاناً كثيرة، وأخذوا الحجارة من أساسها، وأخربوا طرقاً من القنوات بسبب الحجارة وهيأوها للرمي، ونصبت المجانيق في ليلة الثلاثاء، وكانت أكثر من عشرين منجنيقاً، وأصبحوا يرمون بها رمياً متتابعاً كالمطر، فأخرب كثيراً من القلعة من غربها، فما أمسوا حتى طلبوا الأمان فأمنوا وخرجوا من الغد، ونهب ما في القلعة، وأحرق فيها مواضع كثيرة، وهدم من أبراجها أعاليها، ثم ساروا إلى بعلبك فتسلموها، وحاصروا القلعة وأخذوها، وساروا إلى نابلس وغيرها، ووكلوا بخراب كل مدينة بين برجين من قلعة دمشق ففعل ذلك(٣٦))).

وصار الناس يهربون من دمشق إلى مصر، ومات قسم كبير منهم على الطريق، وقد عدد أبو شامة أسماء عدد منهم ممن كان يهمه أمرهم، وبعد معركة عين جالوت، تحسنت أحوال الناس كثيراً، وارتفعت معنوياتهم، وعاد الهاربون إلى بلادهم، لكن الغلاء استمر بسبب زغل العملة، وهكذا ظلت الأوضاع الاقتصادية والأحوال المادية سيئة بشكل عام عند أفراد الشعب، لذلك ختم أبو شامة أخبار السنة ذاتها ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، بقوله: ((وابتلي الناس في هذه السنة بغلاء شديد عام في جميع الأشياء من المأكول والملبوس وغيرهما، بلغ رطل الخبز درهمين، ورطل اللحم خمسة دراهم، ... والجبن درهماً ونصف، والثوم أوقية بدرهم، والعنب رطل بدرهمين، ومن أكثر أسبابه ما أحدثه الفرنج من ضرب الدراهم المعروفة باليافية، وكانت كثيرة الغش بلغني أنه كان في المئة منها خمسة عشر درهماً فضة والباقي نحاس وكثرت في البلد كثرة عظيمة، وتحدث في ابطالها مراراً، فبقي من عنده شيء

حريصاً على إخراجه خوفاً من بطلانها، فتراه يدأب في شراء أي شيء كان، فيتزايد في السلع بسبب ذلك، إلى أن بطلت في أواخر السنة، فعادت تباع كل أربعة منها بدرهم ناصري مغشوش أيضاً بنحو النصف[٣٧])). ومثل ذلك أيضاً ما ذكره حوادث سنة ٦١١هـ/١٢١٤م، من تعامل الناس بدراهم سوداء، حيث قال: ((وفيها حدثت المعاملة بالقراطيس السود العادلية، فبقيت زماناً بطل ضربها، وتناقصت من أيدي الناس إلى أن فنيت[٣٨])). وهكذا ترافقت الأحوال الاقتصادية السيئة لأهل دمشق مع انتشار العملة المغشوشة، وما يتبع ذلك من غلاء الأسعار، بسبب هبوط سعر العملة، وهو ما يدعى في زماننا هذا بالتضخم النقدي، وكل هذه الويلات وقعت على كاهل أفراد الشعب وغيرهم... وفي ظل هذه الأوضاع، من الطبيعي أن تتعطل النشاطات الاقتصادية بمختلف أنواعها من زراعة وصناعة وتجارة، فالدولة بحاجة دائمة إلى المال، بسبب كثرة الحروب والمشاكل، والمال يجبى من الشعب، والضرائب تزداد باستمرار... وعلى جهود هذا الشعب، استطاع الأيوبيون والمماليك، الاستمرار، وتأمين نفقات حياتهم العالية وقصورهم ثم الأعطيات، ومختلف نفقات الجند... هذه كانت باختصار صورة عن أوضاع دمشق من الناحية الاقتصادية، زمن أبي شامة في القرن السابع الهجري، الثالث عشر للميلاد.

ونتعرف الآن إلى الأحوال الاجتماعية في دمشق.

ثانياً: الحياة الاجتماعية بشكل عام:

لعل أجمل صور الحياة الاجتماعية، يمكن أن نرسمها من خلال قصيدة أبي شامة لزوجته (ست العرب ابنة شرف الدين بن دنو القرشي العبدري الأندلسي وكان من أهل الفضل والرئاسة في الدنيا ومن وجوه بلده)، فهي تعكس لنا صورة المرأة الدمشقية في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر للميلاد. كان أبو شامة معجباً

بزوجته، يعدّد خصالها الحميدة، فمن يقرأ قصيدته يشعر بأنها كاملة الأوصاف، فـــهي بنت حسب ونسب، ومما قال فيها:

تزوجت من أولاد دنـــو عقيلـــة ... بها من خصال الخير ما حيّر العقلا

مكملة الأوصاف خلقـــاً وخلقـــة ... فأهلاً بها أهلاً وسهلاً بها سـهلا(٣٩)

ولا بدّ من الانتباه إلى أن أبا شامة مقدسي الأصل، وهي أندلســية الأصــل، ولعلــها اختلفت ببعض عاداتها عن أهل دمشق، فدافع عنها.

واسترسل أبو شامة في تعداد خصالها، فهي صغيرة السن، كبـــيرة العقـــل، مداريـــة للأهل، رقيقة قلب مع سلامة دينها، مطرزة، خياطة، ذكية، مربية، حنانة ذات رحمـة، سريعة دمع العين من رقتها... عدّد ذلك كله من خلال ستة وأربعين بيتاً لطيفـــاً مـــن الشعر، وبالإضافة إلى ذلك فإنها:

لم ينكشف عنها بنانٌ، يحارُ مـــن ... مشى معها في حفظها يدهـــا قبـــلا

عديمة لفظٍ والتفـــات إذ مشـــت ... صموتٌ فلا قطعاً ترد ولا وصـــلا

ومن الصور الاجتماعية التي يمكن استخلاصها من القصيدة، الطريقة التي كانت تفتـح بها باب بيتها إذا طرق، فقال في ذلك:

يعزُّ على من يطرق الباب لفظـــها ... جواباً فلا عقـــد تراهـــا ولا حـــلا

يطيل قوفـــاً لا يجـــابُ محـــرّم ... عليها كلام الأجنبـــي وإن قـــلا(٤٠)

أي أنها كانت تفتح الباب، وتقف وراءه، ولا تظهر وجهها، ولا تتكلم بكلمـــة واحـــدة، فيفهم الطارق أن الزوج غير موجود، وليس في البيت إلا الحريم.

هكذا كانت المرأة الدمشقية المثالية، فهي تنذر نفسها لبيتـــها ولزوجـــها ولأولادهـــا، وتقضي عمرها في بيت زوجها لا تغادره أبداً، حتى ولو أشارت عليها النسوة بالذهاب معهن للتفرج في بعض المناسبات، فقال:

يُشرن عليـــها بـــالتفرج مـــرة فتأبى وقعر البيت في عينها أحلى

ملازمة للشغل في البيت دائمـــا على صغر سنها لا تني فعـــلا(٤١)

ولعله من المفيد أيضا، أن نجد عند أبي شامة، صورة المرأة المغوليـــة، فـــي مقـــابل صورة المرأة الشامية الدمشقية، فقال في أحـــداث ســـنة ثمـــان وخمســـين وســـتمئة ٦٥٨هـــ/١٢٦٠م، ((قرئ فرمان القاضي محي الدين بالجامع تحت قبة النسر، وفيـــه توليته القضاء من قنسرين الى العريش... وحضر قراءة الفرمان نائب ملك التاتار مـــن المغل (إيل سبان) وزوجته قعدت معه على طراحة نصبت لها بين زوجها والقـــاضي إلى جانب العود الشرقي الكبير الأوسط من أبواب النسر بالجامع، وشرع القاضي فـــي جر الأشياء إلى نفسه وأولاده، من يتعلق به عدم الأهلية...(٤٢))).

ولا يفهم من هذا، بأن المرأة الدمشقية، جلست حبيسة الدار فقط، وأن المرأة المغوليـــة شاركت زوجها الحرب والسياسة، فمن الصور الاجتماعية الجميلة التي نقلها إلينا أبـــو شامة في أحداث سنة سبع وستمئة ٦٠٧هـــ/١٢١٠م، ((وقال أبو المظفر ســـبط ابـــن الجوزي: وفيها: خرجت من دمشق إلى نابلس بنية الغزاة، وكان الملك المعظم عيســـى رحمة الله بها، وجلست بجامع دمشق... وكان الناس من باب المشـــهد الـــذي لزيـــن العابدين الى باب الناطفانيين، إلى باب الساعات، وكان القيام في الصحن أكثر، بحيث امتلأ جامع دمشق وحزروا ثلاثين ألفا، وكان يوم لم ير في دمشق مثله ولا بغيرهـــا، وكان قد اجتمع عندي شعور كثيرة، يعني التي كان يقطعها من رؤوس التائبين، قـــال: وقد وقفت على حكاية أبي قدامة الشامي مع تلك المرأة التي قطعت شعرها، وبعثت به إليه، وقالت: اجعله قيدا لفرسك في سبيل الله، قال: فعملت من الشعور التي اجتمعـــت

عندي شكلاً لخيل المجاهدين وكرفسارات، ولما صعدتُ المنبر أمــرت بإحضارهــا، فحُمِلت على أعناق الرجال، وكانت ثلاثمئة شكال، فلما رآها الناس صــاحوا صيحــة عظيمة، وقطعوا مثلها وقامت القيامة ٧٥)). وهناك صورة جميلة أخرى لدور المــرأة ، ذكرها أبو شامة عرضاً خلال ترجمته للشيخ عماد الدين بــن محمــد بــن قدامــة المقدسي، الذي توفي عام ٦٥٨هــ /١٢٦٠م، حيث قال عنه: ((... وكان لــه روايــة للحديث عن الثقفي وغيره، وقد أجاز أولادي رواية ما يجوز له عنه روايتــه، وهــم محمد رحمه الله، وأحمد واسماعيل، وفاطمة جبرهم الله[٤٤])). ويفهم من ذلك أن ابنــة أبي شامة (فاطمة) كانت من بين النساء اللواتي كن يستمعن للدروس وللأحاديث علــى أيدي أعلام الشيوخ في ذلك الحين، وهذا أمر يستحق التقدير. ومن مظـــاهر الحيــاة الاجتماعية الجميلة، التي نراها عند أبي شامة، تزيين المدينة في بعــض المناســبات، وما رافق ذلك أحياناً من توزيع المال على الفقراء، مع أن هذه الصورة الجميلة وحيدة عند أبي شامة فقال في أحداث سنة أربع وأربعين وستمئة ٦٤٤هــ/١٢٤٦م: ((وفــي تاسع عشر ذي القعدة يوم الخميس سابع ساعة فيه، دخل دمشق صاحبها نجم الديــن أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب، وكان يوماً عظيماً بكثرة الخلق والزينة... فأقــام بها خمسة عشر يوماً، ثم رحل إلى بعلبك فكشفها ثم رجــع ومضــى نحــو صرخــد وتسلمها من صاحبها عز الدين أيبك المعظمي، ورحل إلى بلاد بانياس وتسلم حصــن الصبيبة من الملك السعيد بن العزيز بن العادل وهو ابن عن السلطان وفي خدمته، ثــم تسلم حصن السلط. من ابن عمه داود بن عيسى بن أبي بكر بن أيوب، وفرق بدمشــق نحو تسعين ألف درهم على الفقراء، فخان فيها المفرقون، فنظمت فيهم قصيدة نحـــو أربعمئة بيت في شرح حالهم فيها[٤٥])).

إن كلمات أبي شامة الأخيرة، قليلة لكنها معبّرة، وهي تدل على أن الفقــراء، كــانوا كثيرين في المجتمع الدمشقي، لأن المبلغ الذي أُمر بتوزيعه كان كبيرا، وتــدل أيضــا على أن الناس عامة، والفقراء خاصة، كانوا يعانون من جشع وتسلط وقســوة عمــال

الحكام، ونوابهم، وموظفيهم، حتى أنهم طعموا بمال الصدقة المخصص للفقراء... ثم إن تأليف قصيدة من أربعمئة بيت لشرح ذلك الحال، معناه أن الواقع مرّ والألم عميق حتى احتاج كل تلك الأبيات.

ففي جميع المجتمعات التي ينعدم فيها الاستقرار السياسي الداخلي، مع وجود التهديد الخارجي، وإذا اقترن ذلك بطغيان الجند الغرباء... تولد حالات شاذة من السلوك، فيها السرقة والانتهازية والاستغلال والفساد الخلقي والرشوة والشذوذ... وغيرها من الأمراض الاجتماعية التي تصيب المجتمع، وهذا يقودنا إلى صورة مأساوية أخرى في ذلك العصر، فبعد عامين من زيارة الصالح نجم الدين أيوب لدمشق، حدثنا أبو شامة عن قصة محزنة مخزية افتتح بها أحداث سنة ست وأربعين وستمئة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م: ((وفي يوم الجمعة سادس ربيع الآخر، صلب مملوك تركي صبي بالغ، كان لبعض الأمراء الصالحية النجمية يدعى السقسقيني، زعموا أنه قتل سيده لأمر ما، فصلب على حافة نهر بردى، تحت القلعة في آخر سوق الدواب، وجعل وجهه مقابل الشرق، وسمرت يداه وعضداه، ورجلاه، وبقي من ظهر يوم الجمعة إلى ظهر يوم الأحد، ثم مات، وكان يوصف بشجاعة، وشهامة، ودين، وأنه غزا بعسقلان وقتل جماعة من الفرنج، وقتل أسداً على صغر سنه، وكان منه في صلبه عجائب، فمن ذلك أنه جاد بنفسه للصلب، غير ممتنع ولا جازع، بل مد يديه فسمرتا، ثم سمرت رجلاه وهو ينظر لم يتأوه، ولن يتغير وجهه، ولا حرك شيئاً من أعضائه. أخبرني من شاهد ذلك منه جماعة وبقي إلى أن مات صابراً ساكناً لم يئن، ولم يزد على نظره إلى رجليه وجانبيه، تارةً يميناً وتارةً يساراً، ينظر إلى الناس، قيل إنه استسقى ماءً فلم يسقى وتألمت قلوب من عندهم رحمة وشفقة على خلق الله تعالى من أنه صبي صغير، وقد ابتلي بمثل هذا البلاء، والمياه تتدفق بجوانبه وهو ينظر إليها، ويتحسر على قطرة منها وهو صابر على ذلك،... ولعله كان شهيداً رحمه الله، فإني أخبرت أنه

دافع عن نفسه أمراً لم يرضَ وقوعه به... وكان من أجلّ الصبيان، وأحسنهم وجهاً وأطولهم شعراً، وقد كان ثمنه ألوفاً من الدراهم...[٤٦]، ومما قيل فيه:

ومتفردٌ من فوق أعواد حتفه … يجود بنفس صانها خوف ربه

فيا عجباً ممن أشار بصلبه … ألا أعجب وأخبرْ عن قساوة قلبه[٤٧]

وهكذا نرى أن الترف المادي، الذي عاشه الحكّام ورجال السلطة الأيوبية، وكذلك المملوكية على حساب الشعب، كان من العوامل التي أدّت إلى إصابة المجتمع بأمراض الشذوذ، فكثرت الحالات، وتحدث عنها المؤرخون بلا حرج... وإذا كان هذا الشاب سُمّر ظلماً لأنه رفض ما طلبه منه سيده من فحش، فهناك حالات أخرى صلب فيها مجرمون يستحقون تلك العقوبة، ففي سنة إحدى وستين وستمئة ٦٦١هـ/١٢٦٣م: ((سُمّر شاب، ذُكر أنه كان يرسل زوجته، وتدخل في بيوت النساء، فتحسن للمرأة الخروج معها لابسة أفخر ثيابها وحليها، وتشوقها، بأن تقول لها: هاهنا عرس أو وليمة، وقد اجتمع فيه من جماعة من النساء الأكابر، فلا تتركن من الزينة شيئاً ليحصل لك التجمل بينهن، فتفعل تلك المغرورة، أقصى ما تقدر عليه، وتخرج معها، فتجيء بها إلى بيت زوجها، فيأخذ جميع ما عليها، ثم يخنقها ويرميها في بئر داره، فعل ذلك بجماعة من النساء، وهو نظير ما فعله شخص يعرف بالمكحلة في سنة ثمان عشرين وستمئة، سُمّر وبقي أياماً ومات ثم هتكه الله تعالى، فأخذ هو وامرأته فضربا، فاعترفا. فأما المرأة فخنقت وجعلت في جوالق، وعلق تحت الخشب الذي سمّر عليها. فأصبح الناس فوجدوا الجولق المعلق والرجل المسمّر خارج باب الفرج...[٤٨])). وكثرت القصص من هذا النوع، فكلما كثر الفقر والمعاناة، كلما كثرت حوادث السرقة والقتل، ففي سنة اثنين وعشرين وستمئة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م، (صلب المعظم في سوق الغنم العتيق في طريق الميدان الأخضر، شمس الدين بن الكعكي، رأس حزب، وخلفه جماعة، ورفيقاً له منكسين على رؤوسهما، وكانوا ينزلون على

الناس في البساتين ويقتلون وينهبون، والمعظم في الكرك، وبلغه أن ابن الكعكي، قال لأخي المعظم الصالح اسماعيل، وكان صاحب بصرى، أنا آخذ لك دمشق، فكتب إلى والي دمشق بأن يصلب ابن الكعكي ورفيقه منكسين فصلبهما في العشر الأواخر من رمضان، فأقاما أياماً في حر الشمس يسفي الريح والتراب على وجوههما ورؤوسهما، ولا يقدران على طعام أو شراب إلى أن ماتا. مات ابن الكعكي أولاً، وكان يستغيث كثيراً ويقلق، وكان رفيقه أجلد منه وأصبر، وكان رجلاً خياطاً آدم اللون، وقيل إنه كان بريئاً مما رمي به، فمات بعد ابن الكعكي بيوم أو نحوه. وكان ابن الكعكي من المترفين ذوي الثروة، وله أملاك كثيرة ظاهر باب الجابية وغير ذلك. قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: وقدم المعظم دمشق بعدما ماتا فمرض مرضاً عظيماً أشفي منه ثم أبل ولم يزل يستنقض عليه حتى مات(٤٩))).

تلك كانت عقوبة من يحاول الخروج على السلطة، ليس الصلب فقط، بل بوضعية منكسة. لقد استهدفت السلطة من وراء تنفيذ العقوبات، إرهاب الشعب وإشغاله أكثر بتطبيق القانون وإحقاق الحق، ومعظم العقوبات في العصرين الأيوبي والمملوكي، كانت شديدة غير إنسانية، وزاد في بشاعتها، أنها نفذت على مرأى ومسمع من جميع أفراد الشعب، وقد تنوعت العقوبات فهناك: الصلب، والشنق، والحرق، والتوسيط، والتسمير، والتعليق بالكلاليب. أو ضرب الأعناق، والخوزقة، والتجريس، وغير ذلك. وفي حوادث سنة ثلاث وعشرين وستمئة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م، ذكر أبو شامة حادثة غريبة حدثت في دمشق، حيث قام رجل فاتك بقتل طفل صغير، من أجل أقراط ذهب في أذنيه، ثم حمله في قفة، ودفنه في باب الصغير. وشكت والدة الطفل بالرجل (كونه بجوارهم) واتهمته، وعُذِّب، فلم يعترف، فما كان منها إلا طلقت زوجها وتزوجت القاتل، وظلت معه مدة تستدرجه حتى أخبرها بجريمته، وأخذها إلى مكان القبر، وفتحه وأراها ولدها، فلم تتمالك وضربت القاتل بسكين أعدتها له فشقت بطنه ودفعته فألقته في القبر، ثم أخبرت المسؤول، وأخذته إلى مكان القبر، فقال لها: ((أحسنت والله

ينبغي لنا كلنا أن نشرب لكل فتوة))، لقد مات هذا الطفل خنقاً طمعاً في حلية الذهب، لكن أطفالاً كثيرون ماتوا لأسباب عديدة، فلو أخذنا مثلاً عائلة أبي شامة لوحدها، وأقصد بذلك أولاده من بنات وبنين، للاحظنا أنه أكثر في كتابه من ذكر عبارة، وفي هذه السنة ولد لي مولود ذكر، أو ولدت ابنتي فلانة، ثم بعد عام أو عامين يقول: وفي يوم كذا في الساعة كذا، مات ابني فلان أو ابنتي فلانة، فمثلاً في سنة ثلاث وأربعين وستمئة، توفي ابنه محمد، وبعد ذلك بأربعة أيام توفيت ابنته زينب[٥٠].

وهكذا مات شخصان من أسرة واحدة في بضعة أيام، ومع أن أبا شامة لم يذكر سبب الوفاة، لكن من الممكن أن يكون السبب في حالة كهذه، أحد الأمراض السارية. وقد ذكر في أحداث سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م: ((ووقع وباء كثير في زمن الربيع وهو من أعجب ما يؤرخ، فعم الناس المرض وكثر الموت))، ويمكن أن نذكر هنا موت الفجأة، الذي انتبه له أبو شامة، فقال في بدايات أحداث سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م: ((وكثر موت الفجأة في تلك الأيام، فمات بها جماعة[٥١])). ولعله قصد بذلك الذبحة القلبية، التي كثرت في أيامنا هذه أيضاً.

ومن الصور الاجتماعية القاتمة، التي نقلها لنا أبو شامة، صورة القضاء، فلو تساءلنا عن القضاء، كيف كان حاله؟ لأجابنا أبو شامة، بأنه لم يكن بأفضل حال من غيره، وكثيراً ما كان الناس يشكون من القضاة وسوء أخلاقهم، ومن كثرة تبديلهم، ففي سنة تسع وخمسين وستمئة ٦٥٩هـ/١٢٦١م، قال: ((عزل عن قضاء دمشق النجم بن الصدر بن سني الدولة، وتولى القاضي شمس الدين أحمد... ابن خلكان، الذي كان نائبا في الحكم بالقاهرة سنين كثيرة وجلس مكان النجم وأبيه بالمدرسة العادلية، ثم وكّل على النجم، وأمره بالسفر إلى الديار المصرية وكان حاكما جائراً، فاجرا، ظالماً، متعدياً، فاستراح منه العباد والبلاد، وهو الذي شاع عنه أنه أودع كيسا فيه ألف دينار، فرد بدله كيساً فيه فلوس، وذكر ذلك في القصيدة التي هجي بها، ولما تولى الحكم، ورُفعت إلى الملك المظفر، وفي الجملة تولى الحكم في زماننا ثلاثة مشهورون

بالفسق، هذا الظالم، والرفيع الجيلي، وابن الجمال المصري، كان نائباً لأبيه[٥٢]))، وقال أبو شامة في ذلك:

دمشق في عصرنا مع فضلها بُليتْ مـن القضاة بجهّالٍ وأوقاحِ
بأعجمين ومصري وصائغهم والإربلي وخيّاط وفلاّح
هم ضعف ستة والنواب كلهم ضعفان أحزانهم أضعاف أفراح[٥٣]

أي أنهم كانوا اثني عشر قاضياً مع نوابهم، حاول أبو شامة حصرهم وتعدادهم في شعره. ومن الأخبار الطريفة عن القضاة، ما ذكره في حوادث سنة ثلاث وستين وستمئة ٦٦٣هـ/١٢٦٥م، حيث قال: ((جاء من مصر من السلطان الملك الظاهر بيبرس الصالحي ثلاثة تقاليد للقضاة شمس الدين محمد بن عطاء الحنفي، والزين بن عبد السلام الزواوي المالكي، وشمس الدين عبد الرحمن بن الشيخ أبي عمر الحنبلي، وجعل كل واحد منهم قاضي القضاة من المذاهب الأربعة، ولكل منهم نائب، وهذا شيء ما أظنه جرى في زمان سابق، فلما وصلت العهود الثلاثة، لم يقبل المالكي فوافق الحنبلي واعتذر بالعجز، وقبل الحنفي، فإنه كان نائباً للشافعية، فاستمر على الحكم، ثم ورد كتاب من مصر بإلزامهما بذلك، وأخذ ما بأيديهما من الأوقاف إن لم يفعلا، فأجابا، ثم أصبح المالكي فأشهد على نفسه بأنه عزَلَ نفسه عن القضاء وعن الأوقاف، فترك واستمر الحنبلي ثم ورد الأمر بإلزامه فقبل واستمر الجميع، لكن امتنع المالكي والحنبلي من أخذ الجامكية على القضاء وقالا: نحن في كفاية، فأعفيا منها، ومن العجب اجتماع ثلاثة على ولاية قضاء القضاء في زمن واحد، وكل منهم لقبه شمس الدين، واتفق أن الشافعي منهم استناب من لقبه شمس الدين، فقال بعض الظرفاء:

أهل دمشق استرابوا من كثرة الحكّام
وهم جميعاً شموس وحالهم في ظلام

وقيل أيضاً:

أظلم الشام وقد ولي الحكم شموسٌ

ليس فيهم من بيتٌ الحكم علماً أو يسوس(٥٤)

وكانت هذه باختصار، صوراً عن أوضاع دمشق الاجتماعية في عصر أبي شامة، وهي بالفعل بمثابة صور حقيقية، التقطت لدمشق من خلال عدسة أبي شامة.

ثالثاً: الحياة العمرانية في عصر أبي شامة:

بعد أن استعرضنا أوضاع دمشق من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية، ورأينا أن الحياة الاجتماعية، لا يمكن أن تزدهر في ظل أوضاع اقتصادية متردية، لأن الاقتصاد هو عماد الحياة، فمن الطبيعي والحالة هذه، أن يؤثر ذلك على الحياة العمرانية في دمشق في تلك الحقبة، لأن العمران يحتاج إلى مقومات وركائز أساسية منها: توفر الأمن والسلام، وتوفر المال... لذلك تركزت الأعمال العمرانية على العمارة الدينية بشكل خاص، وما يتعلق بها من مساجد ومدارس... وترميم القديم منها، والقليل منها ما يتعلق بالشؤون الحياتية الأخرى... ففي أحداث سنة ثمان وتسعين وخمسمئة ٥٩٨هـ/ ١٢٠٢م، ذكر أبو شامة ما يلي: ((وفيها شرع الشيخ أبو عمر محمد بن أحمد بن قدامة شيخ المقادسة رحمه الله تعالى، في بناء الجامع بالجبل، وكان بقاسيون رجل فامي يقال له أبو داود محاسن، فوضع أساسه وبلغ قامة، وانفق عليه ما كان يملكه، وبلغ ابن زين الدين مظفر الدين صاحب إربل، فبعث إلى الشيخ أبي عمر مالاً فتممه ووقف عليه وقفاً، وبعد ذلك أراد ابن زين الدين أن يسوق الماء من برزة، وبعث ألف دينار لذلك، فقال الملك المعظم عيسى بن العادل: طريق الماء كلها قبور، وكيف يجوز أن تنبش عظام المسلمين، اشتروا بغلاً واعملوا مداراً وبالباقي مكاناً أوقفوه عليه ولا تؤذوا أحداً، ففعلوا(٥٥))).

وهنا يمكن القول لم لمْ يتبرع المعظم صاحب دمشق بالمال لإنهاء الجامع، حتى تبرع صاحب إربل، طالما أن المعظم اهتم بأمر المسلمين حتى في قبورهم؟!

وبعد ذلك بعام واحد ((ابتدئ بعمارة قلعة دمشق[٥٦])).

أما في سنة أربع وستمئة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م، ((ركبوا الساعة بالمئذنة الشمالية بالجامع، شرعوا في عمارة البرج الذي في قبالة المدرسة القيمازية[٥٧])).

وبعد ثلاث سنوات أي في سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م، شرع في عمارة المصلى بظاهر دمشق، المجاور لمسجد النارنج، برسم صلاة العيدين، وهدم حائطه القبلي، ومنبره ليجدد فبنى بغير سقف، بل انتهت حيطانه من الجوانب الأربع، وفتحت له الأبواب، وشرفت أعالي حوانطه، وبني له منبر كبير عالي بجوانب المحراب، وفوقه قبة مبيضة، وتحت أرض القبة خلو الى الأرض، يتصل به الصف الأول خلف الإمام، وكان يركز العلمان الأسودان في أعلى الدرج، ويقف الخطيب بينهما فيراه جميع من في المصلى من كل جانب، وكان بناء حيطانه وإغلاق أبوابه صيانة له مما كان يوضع في أرضه من الدواب الميتة، والعظام والأرواث ولاسيما مؤخر المصلى من شاميه [شماله]. ثم انه في سنة ثلاث عشرة وستمئة ترتب الخطيب لإقامة الجمعة فيه سابع عشر رمضان، بعد أن جدد في قبلته رواقان سقف أحدهما، ولم يتمم الآخر لوفاة الملك العادل الآمر بذلك ولزم من خراب ذلك المنبر، فجعل له منبر خشب، كالذي في سائر الجوامع، وترتب فيه امام راتب يصلي الجمعة وغيرها[٥٨])).

ثم تابع أبو شامة ما جرى من أعمال عمرانية في السنة ذاتها ٦١٣هـ/١٢١٦م، فقال: ((وفيها جددت أبواب جامع دمشق الغربية من جهة باب البريد بالنحاس الأصفر، وركبت في سادس عشر شوال، شرع في إصلاح الفوارة بجيرون، وعمل الشاذروان والبركة بساحتها، واتخذ فيها مسجدا بإمام راتب[٥٩])).

لقد اهتم أبو شامة بالمنشآت الدينية، لذلك فصل الحديث عنها، ولعل سكان دمشق شاركوه الاهتمام نفسه، وفي ذلك دلالة على ما شغل الناس آنذاك، وعلى نظرتهم إلى الأمور المهمة. وكان أول الأحداث الهامة سنة عشر وستمئة ٦١٠هـ/١٢١٣م، التي افتتح بها أبو شامة أخباره هي أن الملك العادل ((أمر بإحداث تركيب سلاسل، على أفواه السكك المجاورة للجامع، ومدها في أيام الجمع، ليمنع الخيل من قرب أبواب الجامع، وذلك لما كان ينال الناس من المشقة في زحمة الخيل التي يركبها بعض المصلين إلى الجامع، فحصل للناس بذلك رفق عظيم، ثم ترك ذلك بعد زمان، وعاد الأمر إلى ما كان عليه إلى الآن، وعمل بعض المتفرغين في ذلك نظماً، كان يغني به في الأسواق أوله:

إن ذا عام جديد	إن ذا يوم سعيد
والمدينة هاربة	قيدوها بالحديد
كل جمعة يسجنوها	كأنهم ما يعرفوها
والنبي لو أطلقوها	ما برح باب البريد(٦٠)

ومن الأخبار الطريفة التي وقعت في هذه السنة، ما جرى في حلب، فقد: ((ظهرت بلاطة وهم يحفرون في خندق حلب، فقلعت، فوجد تحتها تسع عشر قطعة من ذهب وفضة على هيئة اللبن فاعتبرت ما كان منها ذهباً مصرياً ثلاثة وستون رطلاً بالحلبي، وعشرة أرطال ونصف صوري، وأربعة وعشرون رطلاً فضة، ثم وجدوا حلقة من ذهب وزنها رطلان ونصف، فكمل الجميع قنطاراً(٦١))).

كما افتتح أبو شامة أحداث السنة التالية، إحدى عشرة وستمئة ٦١١هـ/١٢١٤م، بقوله: ((ففيها شرع في تبليط رواقات الجامع الداخلية، وابتدأ بالحجر الشرقية، مكان السبع الكبير في ثالث عشر المحرم، وكانت أرض الجامع كلها، قد تكسر رخامها،

فبقي حفراً وجوراً[٦٢])). وفي هذه السنة أيضاً: ((هدمت الدور والحوانيت المجاورة للقلعة، لتوسيع الخندق، ومن جملة ما هدم، حمام قايمار النجمي، ووقف دار الحديث النورية، وكان قريباً، وحوانيت تقابل المار من جهة دار الحديث إلى القلعة،... وفيها أنشأ المعظم الفندق الكبير المنسوب إليه بأرض عاتكة قبلي القنوات[٦٣])).

وبعد عام ٦١١هـ/ ١٢١٤م، لم يرد العمارة ذكر حتى قدوم سنة ثلاثين وستمئة ٦٣٠هـ/١٢٣٣م، فذكر أبو شامة في بداية أحداثها ما يلي: ((وفيها تم بناء دار الحديث الجديدة التي أنشأها الأشرف موسى بن أبي بكر بن أيوب[٦٤])). لكن بعد ذلك بعام واحد، قامت أعمال عمرانية تتعلق بالتجارة والأسواق، حيث قال: ((وفي هذه السنة أحدثت القيسارية التي وراء سوق النحاسين بفتح بابها إلى الزيادة، ونقل إليها سوق الصاغة، كذلك ما أحدث من الدكاكين في وسط الزيادة، كان في هذه السنة[٦٥])).

وفي مقابل أعمال العمران والتوسيع هذه، حدثت في بعض السنوات انهيارات وتهدمات، فمن الطبيعي في هذه الحالة، أن تقوم أعمال إصلاحية، لإعادة البناء والعمران. ففي سنة ست وأربعين وستمئة ٦٤٦هـ/١٢٤٩م: ((سقطت قنطرة عظيمة رومية، كانت على علو سوق الرقيق بالسوق الكبير، فانهدم بسببها حوانيت ودور كثيرة كانت عليها، ومتصلة بها وقعت نهاراً، وفي ليلة الأحد، الخامس والعشرين من رجب، وقع الحريق في المئذنة الشرقية بجامع دمشق، فأحرق أعلاها وجميع ما فيها من البيوت والمطلع جميعه، فإنه كان سقلات من خشب، وسلم الجامع بفضل الله تعالى ورحمته[٦٦])). وبعد ذلك بعام ((أمر ببناء المنارة الشرقية بالجامع، وهي سنة سبع وأربعين وستمئة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م، الشروع ((في بناء المسجد خارج دمشق على نهر يزيد عند جسر ابن البعلبكي المسامت للجسر الأبيض[٦٧])).

ويلاحظ أن أبا شامة، كان يذكر دائماً الشروع في بناء مسجد أو سور أو قلعة، لكنه لم يخبرنا فيما بعد هل تم الانتهاء من البناء أم لم يتم...؟!

ولعله من المفيد أيضاً، أن نذكر في هذا المجال أيضاً اهتمام الحكام بالأمور الأخلاقية في المجتمع، على الرغم من أنها كانت الحالة الوحيدة التي ذكرها أبو شامة، فقال في أحداث سنة اثنتين وثلاثين وستمئة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م: ((وفي هذا الشهر (رجب) خرب خان بالعقيبة، كان كثير الفسق والفساد، ليجعل مسجداً تصلى فيه الجمعة، فتم جامعاً كبيراً حسناً، سني بجامع التوبة، وذلك في أيام الأشرف أبي الفتح موسى بن أبي بكر بن أيوب، وهو المجدّد أيضاً لمسجد جراح خارج باب الصغير[٦٨])).

هذه كانت النواحي العمرانية، التي ذكرها كتاب أبي شامة، والتي يظهر منها أنها كانت أعمال إصلاح وترميم وتجديد، أكثر منها بناء جديد، وذلك بسبب الظروف الاقتصادية والسياسية والعسكرية والاجتماعية الصعبة التي ألمّت بالمجتمع الدمشقي.

خاتمة:

عاش أبو شامة، مؤرخ دمشق في القرن السابع الهجري/ الثالث للميلاد، في عصر حافل بالصراعات السياسية، تعددت فيه الدول والحكام، تشابكت فيه الأحداث، فقد عاصر الدولة الأيوبية، منذ ما بعد صلاح الدين، كما شهد الحكم المملوكي، والغزو المغولي، هذا في الوقت الذي كانت فيه الفرنجة الصليبيون، ما زالوا يحتلون قسماً كبيراً من البلاد، ففي زمانه قامت الحملات الصليبية الخامسة والسادسة والسابعة، وفي زمنه استلمت شجر الدار الحكم في مصر، وبعدها قامت دولة المماليك، وفي زمنه حدثت معركة عين جالوت الشهيرة...

لقد آلمه ما رآه من تمزق بلاده، وترف حكامه، ومعاناة شعبه، فدرس التاريخ، بعد أن أنهى علومه الدينية، فأراد أن يكتب تذكره وموعظة لحكامه من بني أيوب، ليقتدوا

بسيرة صلاح الدين ونور الدين زنكي، فكتب الروضتين، ثم أعاد كتابته باسم عيون الروضتين، ثم كتب الذيل على الروضتين، الذي يعدّ من أثمن وأنفس الكتب التاريخية، في ذلك العصر، خصصه لوفيات الأعيان في زمانه، لكنه زوده أيضاً بكثير من الأخبار المهمة والحوادث الطريفة، والقصص المدهشة، والمعلومات المفيدة، وحمله جملة من الأشعار والقصائد العذبة، التي تكلمت فأفصحت، وأنشدت فأطربت، وشرحت فعبرت، فساعدت بذلك على رسم صورة شبه متكاملة عن أوضاع دمشق اقتصادياً، حيث كانت ريشته ترسم خطوطاً حزينة مأساوية فيها الفقر والغلاء والجلاء والجوع والزلازل والجراد والحرائق، أما ريشته الاجتماعية، فكانت تتخبط ما بين الألوان القاتمة والباهتة، ولم تقترب من الألوان المضيئة البراقة إلا ما ندر... وهكذا استمر يكتب التاريخ، حتى قبيل وفاته، على الرغم من المحن التي ابتلي بها.

الحواشي

(١) ابن شداد: "**النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**" تحقيق الشيال ، طبعة عام ١٩٦٤، الدار المصرية للتأليف والنشر، ص ٢٢.

(٢) أبو شامة: "**تراجم رجال القرنين السادس والسابع/ المعروف بالذيل على الروضتين**"، عرف الكتاب وترجم للمؤلف، وصححه محمد زاهد بن الحسن الكوثري، عني بنشره وراجع أصله ووقف على طبعه السيد عزت العطار الحسيني، دار الجيل، بيروت الطبعة الثانية، ١٩٧٤، ص ٥، وسأذكره اختصاراً بـ "الذيل".

(٣) أبو شامة: **الذيل**، ص ٥.

(٤) قاسم عبده وعلي السيد علي، "**الأيوبيون والمماليك، التاريخ السياسي والعسكري**"، ط٢، ١٩٩٦، ص ٤-٥.

(٥) **الذيل**، ص ١٦.

(٦) **الذيل**، ص ١٩.

(٧) **الذيل**، ص ١٩.

(٨) المقريزي: "**السلوك لمعرفة دول الملوك**"، صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة، ط٢، ١٩٥٦، القاهرة، ج١، ق١، ص ١٥٧.

(٩) عبد اللطيف البغدادي، "**الإفادة والاعتبار**"، تحقيق أحمد سبانو، دمشق، ص ٨٧.

(١٠) عبد اللطيف البغدادي، المصدر السالف، ص ٩٢-٩٣.

(١١) **الذيل**، ص ٢٠.

(١٢) **الذيل**، ص ٢٠.

(١٣) **الذيل**، ص ٢٠. عبد اللطيف البغدادي، ص ١٠١.

(١٤) **الذيل**، ص ٢٩.

(١٥) **الذيل**، ص ٢٠.

(١٦) **الذيل**، ص ٢٠.

(١٧) **الذيل**، ص ٧٨.

(١٨) **الذيل**، ص ٥٠.

(١٩) **الذيل**، ص ١٣٢.

(٢٠) المقريزي: **السلوك**، ج١، ق١، ص ١٣٢.

(٢١) **الذيل**، ص ١٥٤.

(٢٢) المقريزي: **السلوك**، ج١، ق١، ص ٢٣٣–٢٣٥.

(٢٣) **الذيل**، ص ١٦٥.

(٢٤) **الذيل**، ص ١٦٨.

(٢٥) **الذيل**، ص ١٧٠.

(٢٦) **الذيل**، ص ١٧١.

(٢٧) **الذيل**، ص ١٧٤.

(٢٨) **الذيل**، ص ١٧٥.

(٢٩) **الذيل**، ص ١٧٨.

(٣٠) **الذيل**، ص ١٧٨.

(٣١) المقريزي، "**إغاثة الأمة بكشف الغمة**"، ص ٣١.

(٣٢) **الذيل**، ص ٢٠١.

(٣٣) **الذيل**، ص ٢٠٣.

(٣٤) **الذيل**، ص ٢٠٣.

(٣٥) **الذيل**، ص ٢٠٤.

(٣٦) **الذيل**، ص ٢٠٤-٢٠٥.

(٣٧) **الذيل**، ص ٢١١.

(٣٨) **الذيل**، ص ٨٦.

(٣٩) **الذيل**، ص ١٩٦.

(٤٠) **الذيل**، ص ١٩٧.

(٤١) **الذيل**، ص ١٩٦.

(٤٢) **الذيل**، ص ٢٠٥.

(٤٣) **الذيل**، ص ٦٩.

(٤٤) **الذيل**، ص ٢٠٤.

(٤٥) **الذيل**، ص ١٧٩.

(٤٦) **الذيل**، ص ١٨١.

(٤٧) **الذيل**، ص ١٨١.

(٤٨) **الذيل**، ص ٢٢١-٢٢٢.

(٤٩) **الذيل**، ص ١٤٤.

(٥٠) **الذيل**، ص ١٧٦.

(*) الذيل، ص ٢٠٠.

(٥١) الذيل، ص ١٨٩.

(٥٢) الذيل، ص ٢١٤.

(٥٣) الذيل، ص ٢١٤.

(٥٤) الذيل، ص ٢٣٥-٢٣٦.

(٥٥) الذيل، ص ٢٩.

(٥٦) الذيل، ص ٣٣.

(٥٧) الذيل، ص ٦٤.

(٥٨) الذيل، ص ٧٦.

(٥٩) الذيل، ص ٧٦.

(٦٠) الذيل، ص ٨٢.

(٦١) الذيل، ص ٨٤.

(٦٢) الذيل، ص ٨٦.

(٦٣) الذيل، ص ٨٧.

(٦٤) الذيل، ص ١٦١.

(٦٥) الذيل، ص ١٦٢.

(٦٦) الذيل، ص ١٨٢.

(٦٧) الذيل، ص ١٨٣.

(٦٨) الذيل، ص ١٦٣.

أثر السيطرة السياسية والعسكرية العثمانية على الخليج العربي ما بين ١٥٤٦ و ١٩١٤

الدكتور محمد رجاتي ريان

جامعة اليرموك

إربد

الأردن

أثر السيطرة السياسية والعسكرية العثمانية على الخليج العربي ما بين ١٥٤٦ و ١٩١٤

الدكتور محمد رجاني ريان
جامعة اليرموك
إربد
الأردن

مقدمة:

جاء اهتمام العثمانيين إلى الخليج العربي متأخراً، إذا قارنا ذلك بالفترة الزمنية التي بدأوا فيها سياستهم التوسعية، فهم لم يعمدوا إلى ذلك إلا بعد سيطرتهم على بغداد علم ١٥٣٤م، في عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦م)، ثم على ميناء البصرة في عام ١٥٤٦م.

الهدف من هذه الدراسة هو الإجابة على هذا التساؤل: ما هو أثر السيطرة السياسية والعسكرية العثمانية على الخليج العربي؟ وهي السيطرة الواقعة ما بين ١٥٤٦م و١٩١٤م. والإجابة على ذلك؛ تحتم علينا الخوض في عدة أمور تشكل عناصر هذا الموضوع، وتلقي الضوء بالتالي على هذا الأثر في السيطرة العثمانية. وهذه الأمور تجعلنا نتخذ أسلوب الترتيب الزمني لمراحل تلك السيطرة، المبنية على مدى هذا الأثر

الذي كان يتم بين مدّ وجزر، حسب الظروف والأحوال التي كانت تمـرّ بـه الدولـة العثمانية، وحسب تأثير القوى الخارجية والداخلية في الخليج.

وتتوزع هذه المراحل كما يلي: المرحلة الأولى تبدأ بوصول العثمانيين إلـى الخليـج العربي عام ١٥٤٦م، والثانية تبدأ عام ١٨٤٠م، أي بعد انسحاب القوات المصرية من الجزيرة العربية، والثالثة تبدأ عام ١٨٧٠م، إثرَ تعيين مدحت باشا والياً على بغـداد، والرابعة والأخيرة تبدأ عام ١٨٨٢م، إثر احتلال بريطانية لمصر وتستمر هذه المرحلة حتى عام ١٩١٤م، عند اندلاع نيران الحرب العالمية الأولى.

البرتغاليون في الخليج العربي:

من المعروف تاريخياً أنه منذ أوائل القرن السادس عشر، بدأ البرتغاليون فـي غـزو الخليج العربي، بعد أن كانوا قد وصلوا إلى الهند عام ١٤٩٨م، فقد كـانت المحاولـة الأولى بقيادة دي الميدا (De Almedia) المقيم البرتغالي في الهند ونائب ملك البرتغـال عام ١٥٠٥م، فقد قاد أول أسطول برتغالي في ذلك العام واقتصـرت زيارتـه علـى الدرس والاستطلاع[١].

لكنّ قصة الغزو البرتغالي للخليج العربي ترتبط بسيرة البوكيرك (Albuquerqe)، الذي قاد حملة بحرية إلى جزيرة مصيرة في أواخر آب (أغسطس) سنةَ ١٥٠٧م، ثم أبحـر إلى الحد، وبعدها إلى قلهات، وكانت قلهات يومئذٍ محطة لتموين السفن القادمـة مـن الهند، ومحمية تابعة لمملكة هرمز الفارسية، لكن البوكيرك احتل المدينة ودمرهـا[٢]. وهاجم مسقط واقتحمها، بعد أن قاومه سكانها بضراوة ثم سار إلـى صحـار، التـي استسلمت دون مقاومة. وبعدها توجه إلى خورفكان، وقد دمرها ونهبـها لأن سـكانها قاوموا البرتغاليين[٣].

والجدير بالملاحظة أن هذه المدن العربية الواقعة في الخليج العربـي، كـانت تحـت سيطرة هرمز، التي كانت تدين بالولاء اسمياً لملك الفرس، وتتحكم فـي جلّ جـزر

الخليج العربي وموانيه، من عمان إلى القطيف إلى البحرين(٤)، ونظراً لأهمية هرمز الاستراتيجية والسياسية، حظيت باهتمام البوكيرك، الذي فرض على هرمز -بعد معركة بحرية انتصر فيها- شروط الاستسلام، وهي دفع ضريبة سنوية والخضوع لملك البرتغال، وخضعت هرمز للحكم البرتغالي المباشر(٥).

في سنة ١٥٢٩م، جرت أولى المحاولات البرتغالية على رأس الخليج العربي، حيث ظهر البرتغاليون للمرة الأولى في البصرة، فقد استعان أميرها راشد بن مغامس بالبرتغاليين ضد خصمه أمير الحويزة، وأرسل البرتغاليون حملة من الهند، ولكن دبّ "خلاف بين قائد هذه الحملة وأمير البصرة(٦)، فقام القائد البرتغالي بتدمير بعض القرى العراقية التابعة للبصرة، وعاد أدراجه إلى هرمز(٧).

وبالنسبة للبحرين والإحساء، فقد كانتا تتبعان هرمز، وقامت فيهما حركات ضد حاكمها، في الوقت الذي أصبحت فيه هرمز تابعة للبرتغاليين بفرض سيطرتهم أولاً على البحرين في أعوام ١٥١٥م- ١٥٢١م، لكنهم فشلوا في السيطرة عليها عام ١٥٢٩م، بينما تم إعادة الإحساء إلى حظيرة حكم هرمز بعد هجوم البرتغاليين على القطيف عام ١٥٣٩م(٨).

مما سبق ذكره، نستخلص أن البرتغاليين ما بين ١٥٠٧-١٥٣٩م، سيطروا على هرمز والموانئ العربية التابعة لها في الخليج العربي، وتمكنوا من إخماد الثورات التي كانت تقوم ضدهم من آن لآخر في مناطق الخليج التي سيطروا عليها مثل هرمز والبحرين ومسقط والقطيف.

المرحلة الأولى -وصول العثمانيين إلى الخليج العربي:

بعد أن أمّن العثمانيون مدخل البحر الأحمر، إثر إسقاطهم دولة المماليك ودخولهم "القاهرة ١٥١٧م، وإبعادهم الخطر البرتغالي، وضعوا أمام أعينهم هدفاً هو تطهير

الخليج العربي من البرتغاليين، وجرت محاولة تحقيق هذا الهدف في عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦م).

في عام ١٥٣٤م، سقطت بغداد في يد السلطان سليمان، كما تسلّم مفاتيح البصرة في نيسان (إبريل) ١٥٣٥م، من حاكمها راشد بن مغامس بواسطة ابنه، وفي أثناء إقامة السلطان العثماني في بغداد التي امتدت من كانون الأول (ديسمبر) ١٥٣٤م، إلى نيسان (إبريل) ١٥٣٥م، قدمت بغداد وفود من شيوخ القطيف والبحرين حاملين معهم رسائل الترحيب إلى السلطان الذين كانوا بحاجة إلى حماية أو تحالف مع العثمانيين ضد البرتغاليين[٩]، فأصبحوا كلهم تابعين للباب العالي ومنحوا ألقاباً عثمانية وتأكيدات ثابتة بالدعم والحماية[١٠]، ويذكر أحمد العناني في مجلة "الوثيقة"، أن وفدي القطيف والبحرين لم يلتزما بأية تبعية للدولة العثمانية، لكنه مع ذلك يقول: "إن الاتصال الذي تمّ بهذه الصورة بين البحرين والدولة العثمانية كان أول اتصال ويرجع العثمانيون ادعاءاتهم بالسيادة على البحرين إلى هذا الحادث كأقدم أساس قانوني لذلك الادعاء[١١].

تحدّدت سلطة الباب العالي في هذه المرحلة بشكل أساسي في تكريس خطبة الجمعة للسلطان، وفي أحسن الحالات كان العثمانيون يرسلون السلاح ويبنون الحصون وينشئون الحاميات الصغيرة، في نفس الوقت تذكر الوثائق العثمانية أنه في سنة ١٥٣٥م، منح السلطان العثماني حاكم البحرين في ذلك الوقت واسمه رئيس مراد لقب سنجق بك لتقديمه الولاء، وكانت هذه السنة قد شهدت اهتماماً عثمانياً بالخليج، كما شهدت تواجداً واضحاً للقوات العثمانية، جعل لها دوراً بارزاً ومباشراً في الصراع الدائر في الخليج، مما كان له أثره على الأحداث القادمة، فقد أرسل شرف الدين حاكم هرمز رسالة إلى السلطان يطلب منه إرسال مساعدة للتخلص من البرتغاليين في هرمز، واستجاب السلطان، فأرسل أسطولاً إلى خليج البصرة بقيادة بيري بك[١٢]، الذي توجه بأسطوله إلى مسقط، ويقال إنه احتلها، ثم انسحب منها دون أن يستطيع

مهاجمة هرمز، وعادت سفينة عثمانية محملة بالغنائم، ولكنها غرقت قرب البحرين(١٣).

ولا بدّ أن نذكر هنا، أنه في هذه المرحلة أيضاً، حدث سوء تفاهم ما بين العثمانيين وحاكم البصرة، فتحركت القوات العثمانية والأسطول النهري بقيادة والي بغداد في حملة باتجاه البصرة، وبعد عدة معارك تمكن العثمانيون في ١٥ كانون الأول (ديسمبر) ١٥٤٦م، من دخول البصرة، وتحوّل جنوب العراق إلى ولاية تابعة للسلطة العثمانية، أما البصرة فقد أصبحت بيللر ببلك وتحت سيطرة عثمانية مباشرة(١٤).

من الملاحظ أن استنجاد بعض عرب الخليج بالعثمانيين، ساهم في وصول هؤلاء إلى تلك المنطقة، وبالتالي تدخلهم في شؤونها، لكن استيلائهم على البصرة سنة ١٥٤٦م، كان فاتحة سيطرتهم السياسية والعسكرية على مناطق من الخليج.

السيطرة العثمانية على الإحساء(١٥):

مما لا شكّ فيه أن أهم إنجاز سياسي وعسكري عثماني في هذه المرحلة التي لا زلنا بصددها كانت السيطرة على الإحساء، فقد اتخذ العثمانيون من البصرة نقطة انطلاق لهم نحو التقدم في مياه الخليج العربي لضم أقطاره إلى إمبراطوريتهم وكانت البداية ـي الإحساء.

كان أجود بن زامل القيسي أميراً على الإحساء، أوائل القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وتعرضت الإحساء أثناء ذلك لضغط البرتغاليين الذين سيطروا على هرمز وسواحل عمان، وفرضوا على شيخ القطيف الخضوع إلى ملك هرمز التابع لملك البرتغال، ولكن بعد خضوع البصرة للعثمانيين خضع لهم بعد أعوام قليلة حصن القطيف في الإحساء(١٦).

لقد حدث أن استعان أهل القطيف بالعثمانيين لطرد الحاكم الهرمزي وجنوده، إلا أن البرتغاليين قاموا باستعادة القطيف وإعادة الحكم الهرمزي الموالي لهم، خوفاً من أن يؤدي احتلال العثمانيين للقطيف إلى زعزعة نفوذهم في البحرين[١٧]، ولكن العثمانيين قرروا في النهاية ضم الإحساء إليهم وحكمها حكماً مباشراً، فأرسلوا جيشاً بقيادة فتحي باشا الذي قضى على إمارة سلالة أجود عام ١٠٠٠هـ/١٥٩٢م، وقد تم هذا الاحتلال بمساعدة قبائل المنتفق، ولم يتم ذلك عن طريق البحر وإنما حققه جيش من المشاة عن طريق البر[١٨].

والمعروف تاريخياً، أنه بعد ذلك انتقل الحكم في الإحساء عام ١٠٩٢هـ/١٦٦٩م، إلى بني خالد[١٩]، بواسطة زعيمهم براك، الذي يعتبر أول من أسس حكم بني خالد في الإحساء، بعد طرد العثمانيين منها، وبذلك وضع نهاية أول احتلال قام به العثمانيون لتلك البلاد، وقد امتد نفوذ بني خالد في الإحساء إلى منطقة نفوذ العثمانيين في العراق، وكانت الكويت مقرّ حكمهم الصيفي، والملاحظ أنهم استطاعوا المحافظة على علاقات طيبة رغم انفرادهم بحكم الإحساء -بولاة البصرة- وعدوا أنفسهم حلفاء العثمانيين، والدليل على ذلك أنهم سارعوا إلى تقدين معونتهم إلى متسلم البصرة سليمان آغا سنة ١٧٧٥م، للدفاع عن البصرة عندما تعرضت لحصارها الكبير على يد الفرس[٢٠].

حكم براك الإحساء ما بين (١٦٦٩-١٦٨٢م)، ثم حدث تطور خطير في تاريخ الإحساء بشكل خاص وتاريخ المنطقة بشكل عام، فقد برزت دعوة محمد بن عبد الوهاب في العيينة، ورأى أمير الإحساء من بني خالد سليمان بن محمد في هذه الدعوة خطراً عليه، وحدثت الحرب بين الطرفين في عهد خليفة سليمان وهو عريعر، واستمرت هذه الحرب مع من جاء بعده مع الوهابيين[٢١]، وأخيراً استطاع الأمير الوهابي سعود إخضاع الإحساء، وتعيين محمد الحملي حاكماً وهابياً على الإحساء أوائل ١٢٠٨هـ/١٧٨٣م، وثار أهل الهفوف على حاكمهم الوهابي وقتلوه، واستعاد

زيد بن عريعر إمارته. فقاد الأمير سعود الوهابي حملة هزمت زيد وأجبرته على الفرار، ودانت الإحساء للوهابيين وانتهى حكم بني خالد. واستمر الحكم الوهابي في الإحساء متقطعا إلى عام ١٢٧٩هـ/١٨٧١م[٢٢].

لم تقف الدولة العثمانية مكتوفة الأيدي أمام هذا التطور الخطير وسيطرة الدولة السعودية الأولى على الإحساء. وقد أتى هذا الردّ من خلال باشوية بغداد، فعندما وصل سعود بن عبد العزيز بقواته إلى الإحساء. كان ذلك بمثابة صدمة لحاكم بغداد العثماني وحدث بين الطرفين العديد من المصادمات والمعارك، أدّت في النهاية إلى تبادل الرسائل والاتفاق على صلح يتم بموجبه عودة الجيش العثماني إلى العراق، وقد تم ذلك بالفعل سنة ١٢١٤هـ/١٧٩٩م[٢٣].

غير أن العلاقات ما لبثت أن توترت بين باشوية بغداد، وبين الدولة السعودية الأولى وقام سعود بن عبد العزيز بمهاجمة منطقة الزبير والبصرة. وألحق الهزائم بالقوات العثمانية في العراق، ولم تتوقف الهجمات السعودية إلا حين انشغلت الدولة السعودية الأولى بالحملة المصرية التي انطلقت من مصر للقضاء عليها.

هذا ما كان من أمر الإحساء. أما بالنسبة للبحرين، فإنه يستشف من الوثائق العثمانية التي تتعرض لهذه الفترة، على أن البحرين كانت موالية للدولة العثمانية، وأن حاكمها كان يتمتع باستقلال محدود، وأنه جرى تبادل السفراء بين البحرين والدولة العثمانية، كما جرى تبادل المراسلات. ومنح حاكم البحرين لقب بك في سنة ٩٦٦هـ/١٥٨٨م، ولكن يبدو أن هذه العلاقة لم تستمر طويلاً، فقد حدث ما عكّرها بسبب تصرف أحد حكام الأتراك في المنطقة[٢٤]، مما حدا بالدولة العثمانية أن تقوم بمحاولة لاحتلال البحرين عام ٩٧٦هـ/١٥٥٩م، لكنها انتهت بكارثة نجمت عن استسلام القوة العسكرية العثمانية للبرتغاليين، فعادت البحرين إلى الخضوع للبرتغاليين حتى نهاية القرن السادس عشر الميلادي[٢٥].

وبالنسبة للكويت، أقرب الإمارات إلى ولاية البصرة، فإنها كبقية إمارات الخليج كان أمراؤها يكنون عطفاً كبيراً نحو الخليفة العثماني للرابطة الدينية والمذهبية التي تربط بينهم، وربما حاولوا أن يستفيدوا من قوة العثمانيين النامية في الخليج العربي، ومن هنا جاء اندفاع شيوخ الكويت لأن يطلبوا الولاء سنة ١٧١٨م، من الوالي العثماني في البصرة، وبذلك قررت الدولة العثمانية سيادة اسمية على الكويت لم يكن لها أهمية تذكر دون أي تدخل من جانبها في الشؤون المحلية(٢٦). ومع ذلك فقد بقيت هذه السيادة تتأرجح بين الولاء والانفصال، ولكنها في كل هذا كانت على صلات طيبة مع الولاة العثمانيين، فقدمت لهم المساعدات في مناسبات عديدة عندما أعوزتهم الظروف إليها، وكان أبرز تلك المساعدات ما قدمه الشيخ جابر الأول -الحاكم الثالث (١٨١٤-١٨٥٩م)، لمتسلم البصرة عزيز آغا في حربه مع كعب سنة ١٨٢٧م، حيث جعل أسطوله البحري في خدمة المتسلم، مما غير مجرى الحرب، وجعله نصراً حاسماً، وقد استمرت صلة الشيخ جابر وثيقة بالولاة العثمانيين حتى بعد انحسار حكم المماليك في العراق، فساهم معهم في سنة ١٨٣٦م، بالقضاء على خروج أهل الزبير على السلطنة العثمانية(٢٧).

الوجود المصري في الإحساء:

لا بدّ لنا أن ننوّه، أنه في تلك المرحلة التي وصل فيها العثمانيون إلى الخليج العربي وصلت في نهايتها قوات محمد علي إلى الإحساء، وقد تم ذلك بعد استيلاء القوات المصرية على الدرعية عام ١٨١٨م، حيث أقام إبراهيم باشا عدة مراكز عسكرية، من ضنمها إقامة حامية في القطيف تحت إمرة خليل آغا، وهذا التنويه ضروري لأنه أيقظ إلى حد ما العثمانيين، وجعلهم يشعرون بخطورة الوجود المصري على وجودهم في الخليج العربي، بالرغم من أن الوجود العثماني كان اسمياً، وأن المصريين قدموا إلى المنطقة بأمر العثمانيين وموافقتهم، بل وبناء على طلبهم.

لم يستمر الوجود المصري العسكري في الإحساء طويلاً، إذ سرعان ما اضطرت القوات المصرية إلى الانسحاب في أواخر تموز (يوليو) ١٨١٩م، بضغط من السلطات العثمانية في العراق، التي كانت ترى في وجود تلك القوات في الإحساء خطراً عليها، ولم تستطيع قوات محمد علي الاستمرار في البقاء في الإحساء، فقد تلقى حاكمها المصري محمد آغا الكاشف الأوامر بأن يسلّم الإقليم لحكامها السابقين شيوخ بني خالد، لكن تم السيطرة على الإحساء للمرة الثانية عندما استطاع خورشيد باشا السيطرة على الموقف في الإحساء والقطيف في عام ١٨٣٩[٢٨]، ومن الإحساء حاول المصريون وضع جزر البحرين تحت سيطرتهم، لكن بريطانية تصدت لذلك، وساهمت بضرب سياسة محمد علي التوسعية في الخليج، مما أدى إلى خروج المصريين منه.

المرحلة الثانية وتبدأ عام ١٨٤٠م:

استطاع العثمانيون في المرحلة الأولى، التي سبق ذكرها أن يسيطروا على الإحساء سياسياً وعسكرياً لفترة من الزمن، ثم اضطروا للانسحاب منها تحت ضغط القوى المحلية، كما تمتعوا بنفوذ اسمي خالٍ من أي تأثير سياسي أو عسكري في الكويت والبحرين، وبالتالي فإنه لم يكن للعثمانيين تأثير سياسي أو عسكري أو حتى نفوذ اسمي في القسم الجنوبي من الجناح الغربي للخليج العربي، مما أفسح المجال لبريطانية أن تنمي قوتها فيه، وصارت تقف بوجه كل المحاولات التي قد يشتم منها رائحة التقدم نحو الجنوب[٢٩].

الثابت أيضاً لأن العثمانيين صاروا يوجهون اهتماماً ملحوظاً إلى الخليج العربي بعد انسحاب القوات المصرية من شبه جزيرة العرب سنة ١٨٤٠م، إذ تبيّن للعثمانيين خطر إهمال هذه المنطقة البعيدة عن مركز الدولة العثمانية في استانبول، والحال أنها منطقة ذات موقع استراتيجي هام، فصارت عرضة لطموحات البعض (محمد علي)

وضغوطات البعض الآخر (بريطانية)، ويبدو أن هذا الاهتمام قد كان محـــدوداً فـــي الزمان والمكان، ولم يتجاوز الطور الانفعالي إلا بقليل، ذلك أن بريطانية قد تقدمـــت أكثر في اتجاه ربط علاقات وطيدة جداً مع شيوخ المنطقة وسكانها وإحكـــام قبضتـــها على الساحل الغربي للخليج، بتوقيع اتفاقيات تضمن لها مصالحها المتعددة[٣٠].

حظيت الإحساء التي هُزم فيها العثمانيون منْ قبل بقسط كبير مـــن اهتمامـــهم، فـــي محاولة لتلافي ما فاتهم في المرحلة السابقة، وقد أسند السلطان حكمها إلى علي رضـــا باشا إضافة إلى ولايته على العراق، ولكن الوالي الجديد لم يعمل على إدخـــال نظـــم الإدارة العثمانية في هذه البلاد، وكان في هذا خطر كبير على مستقبل هذه الجـــهات، ارتكبه علي رضا وعدد كبير من ولاة العراق العثمانيين، إذ تركوا هذه الجهات المطلة على الخليج العربي للضغوط البريطانية المختلفة الأشكال.

وقد بدا واضحاً عندما سعى العثمانيون إلى إدخال البحرين في دائـــرة نفوذهـــم، فقـــد أرسلت سلطات البصرة وفداً عثمانياً سنة ١٨٥٨م، مؤلفاً من بعض شـــيوخ البصـــرة وبغداد لتقديم عروض كثيرة إلى شيوخ البحرين الذين أظهروا استعداداً كبيراً لقبـــول التبعية العثمانية، ونجح الوفد في إعلانِ تبعية البحرين للدولة العثمانية، ووافق شـــيخها على رفع العلم العثماني، ولكن بريطانية أرغمت البعثة العثمانية وممثلها في البحريـــن إلى الانسحاب بعد أن احتج بالمرستون (Palmereston) وزير خارجية بريطانية لـــدى حكومة الأستانة، التي تراجعت عن موقفها وأمرت الوفد بالانسحاب[٣١].

وفي الكويت، فإن هذه المرحلة تميزت باستمرار ولائها للدولة العثمانية، كـــان هـــذا الولاء واضحاً عند شيخها جابر الأول، وهو الولاء المستمد أصلاً من اعتراف أهـــل الكويت وشيوخهم بالسيادة العثمانية على أراضيهم[٣٢]، ويعتبرون أنفسهم مـــن رعيـــة السلطان العثماني مع الاحتفاظ باستقلالهم الذاتي، ومن هذا المنطلق اســـتجاب الشـــيخ جابر سنة ١٨٤٥م، لطلب الدولة العثمانية في حماية ميناء البصرة، وكانت حصيلـــة

الشيخ جابر من تلك المساعدات أن كافأته الدولة العثمانية بفرمان وعلم أخضر[٣٣]، وبلغت الصلات ما بين الشيخ جابر والدولة العثمانية من الثقة والاطمئنان ما جعله يعلن سنة ١٨٤٧م، أنه ينوي في ظروف خاصة أن يضع نفسه تحت حماية الباب العالي، وفي عهد خليفته الشيخ صباح (١٨٥٩-١٨٦٦م)، كانت الكويت متجهة بخطى سريعة نحو الدولة العثمانية، وقد أكد الشيخ للمقيم السياسي البريطاني أن حكام الكويت كانوا دائماً يدفعون الجزية للدولة العثمانية[٣٤].

وهناك مصادر أخرى، تذكر أن نامق باشا والي بغداد (١٨٦١-١٨٦٧م)، وهو معاصر للشيخ صباح، حاول أن يغري شيوخ الكويت ويخضعهم للسلطة العثمانية المباشرة، إلا أنهم لم يرضخوا للمحاولات التي أرادت فرض الضرائب عليهم، وظلوا يتمتعون باستقلالهم، ويرفعون أعلامهم الخاصة على سفنهم، وأحياناً كانوا يرفعون الأعلام العثمانية والهولندية والبريطانية، تبعاً لما توفره تلك الأعلام من امتيازات[٣٥].

المرحلة الثالثة وتبدأ عام ١٨٧٠م:

يرى بعض المؤرخين أن اهتمام الإمبراطورية العثمانية بالخليج، لن يتخذ شكلاً أكثر جدية سوى سنة ١٨٧٠م[٣٦]، إثر فتح قناة السويس ١٧٦٩، إذ أصبحت المنطقة بفعل ذلك محطة هامة في التجارة العالمية، كما كان للتطورات السياسية الخاصة داخل الإمبراطورية وخارجها الأثر في توجه الاهتمام مجدداً نحو هذه المنطقة، وقد حاول العثمانيون خلال هذه المرحلة الثالثة إعادة سلطتهم على بعض المناطق من الخليج، وكان منطلق ذلك تعيين مدحت باشا والياً على العراق (١٨٦٩-١٨٧٢م)، ثم إنشاء ولاية جديدة هي ولاية البصرة لأول مرة عام ١٨٧٥م، وذلك باقتطاع أقاليم من ولاية بغداد، وضم إقليم الإحساء إليها، وتعيين حاكم عربي المولد عليها (الناصر باشا)[٣٧].

حملة الإحساء:

حصل الوالي مدحت باشا على موافقة السلطان في استانبول على إرسال حملة إلى الإحساء، كجزء من مشاريعه في بسط النفوذ على المناطق التابعة للدولة اسمياً تعويضاً لها عن الخسائر الإقليمية التي توالت عليها في أوروبة، ولقناعته التامة بتزايد أهمية الخليج التجارية في أعقاب افتتاح قناة السويس، وأخذ يعمل بمنتهى السرية لإعداد الحملة[٣٨].

أصدر مدحت باشا أوامره بإرسال خمسة أفواج بقيادة نافذ باشا على ظهر البواخر النهرية من بغداد إلى البصرة لتنقل من هناك بواسطة البواخر البحرية إلى سواحل القطيف، وفي الوقت نفسه حشدت السلطة العثمانية في البصرة عدداً كبيراً من أفراد عشائر الكويت والمنتفق وعنزة الذين كانوا على أهبة الاستعداد، وفعلاً تم وصول الحملة إلى سواحل القطيف، ونزلت القوات على رأس التنورة على الأرض المواجهة للبحرين تماماً، وتم دخول قلعة القطيف وإلقاء القبض على قائدها عبد العزيز الديري، كما دخلت القوات العثمانية قلعة الدمام، واستمرت الدولة العثمانية في تعزيز حملتها إلى الإحساء، ووضعت عدداً من السفن الحربية المزودة بالمدافع الحديثة في مياه الخليج، مما أدى إلى قلق الأوساط البريطانية[٣٩].

ولكن ذلك لم يمنع العثمانيين من تعزيز سيطرتهم السياسية والعسكرية على الإحساء، فقد قامت الدولة العثمانية في أيلول ١٨٧٣م. بإرسال المزيد من القوات لتعزيز حاميتها في الإحساء، وفي عام ١٨٧٤م، شعرت الدولة العثمانية بأنها لا تستطيع الاحتفاظ بقواتها هناك، لذلك قررت سحبها، على أن تحل محلها قوات محلية يقوم بمهمة إعدادها وتجنيدها شيخ عشائر بني خالد[٤٠].

في تلك الفترة أصبحت الإحساء متصرفية (لواء) مرتبطة بولاية البصرة وأطلق عليها لواء نجد[٤١]، وكان يتبعها أربعة أقضية منها قضاء قطر.

في هذه المرحلة -مرحلة نجاح حملة الإحساء تبيّن أنه ما كان لمدحت باشا أن يحقق شيئاً لولا التفاهم الذي توصل إليه مع نفر من رجالات العراق، كما بدا واضحاً أن اتصالات واسعة قامت بين رجالات من البصرة وبين شخصيات محلية قوية في الإحساء والكويت وقطر، وبينهم الشيخ مبارك الصباح والشيخ قاسم بن محمد آل الثاني في قطر. وشخصيات من البحرين وبخاصة من الساخطين على نشاط الحركة التبشيرية، وعلى تدخلات الإنكليز المباشرة في شؤون البحرين، وقد ظهر أثر تلك المساعي والجهود والاتصالات المتضافرة، كما أن تعاون عرب الخليج مكّن من توفير السفن والمؤن ولنقل مهمات الحملة والكثير من تجهيزاتها وجنودها، كما مكّن العثمانيين سرعة التمركز في الإحساء وقطر[٤٢].

حانت الإحساء[٤٣]، في نظر العثمانيين تعدّ من المناطق ذات الصفة الاستراتيجية المهمة بالنسبة للدولة العثمانية، لذلك أرادوها قاعدة عسكرية أمامية لمواجهة البرتغاليين في الخليج العربي[٤٤]؛ فضلاً عن كونها نقطة لكبح جماح القبائل البدوية التي تشكل مصدر قلق للسيادة العثمانية في مناطق جنوب العراق ومن بينها قبائل بني خالد.

كذلك أدرك العثمانيون أن سيطرتهم على الإحساء تمكنهم من تثبيت سيادتهم في السواحل الغربية للخليج العربي، وقد عبّر المسؤولون العثمانيون العاملون في المنطقة عن أهمية الإحساء بالنسبة للدولة العثمانية في كثير من الرسائل التي كانوا يوجهونها إلى رؤوسائهم في استانبول[٤٥].

ولا بدّ من الإشارة هنا، ولتبيان أثر السيطرة السياسية والعسكرية العثمانية على إقليم الإحساء ، أن هذه السيطرة قبل حملة مدحت باشا عام ١٨٧١م، كانت سيطرة ضعيفة لأن الحكم العثماني فيه كان اسمياً لا واقعياً، بالرغم من أنها كانت تذكر في السجلات العثمانية خلال القرن السابع عشر باعتبارها ولاية عثمانية وأن العلاقة الوحيدة بين

حكام الإحساء المحليين والدولة العثمانية هي الالتزامات المالية التي كان يدفعها هؤلاء الحكّام لولاة بغداد(٤٦).

إلا أن هذا الحال تغير إلى حد ما بعد حملة مدحت باشا، فقد أدرك العثمانيون أهمية هذا الإقليم بالنسبة لهم أكثر من أي وقت مضى، لذلك حاولوا تثبيت أقدامهم فيه لمنع وقوعه تحت سيطرة غير سيطرتهم عليه، كما تعلموا الدروس والعبر مما حدث في الماضي، لذلك زادوا من سيطرتهم عليه، فتميز حكمهم فيه بالطابع العسكري، فعندما دخلت حملة مدحت باشا الإقليم واستولت عليه من الدولة السعودية الثانية عام ١٢٨٨هـ/١٨٧١م، طبق العثمانيون فيه النظام الإداري العسكري(٤٧)، فوضعوا فيه حاميات من الجند النظامي وصل عددهم إلى خمسة آلاف جندي، إلى جانب عدد من قوات الأمن من الفرسان (الخيالة) ورجال الأمن (الشرطة) العاديين، ورتبوا بعض السفن الحربية العثمانية قبالة الساحل(٤٨).

لقد كانت الترتيبات العثمانية مركزة على الوجود العسكري، ولكن هذا الوجود يبقى متوقفاً على قوة السلطة المركزية، ومدى انتباهها له، ولذلك بقيت نظرة الأهالي للطاعة العثمانية بالقوة، ومن هنا كان التأثير السياسي ضعيفاً، تماماً كما حدث في فترة السيطرة العثمانية الأولى، فظلت العلاقة القائمة بين أهالي الإقليم -في غالبيتهم- وبين العثمانيين مرهونة بمدى بقاء الوجود العسكري العثماني وقوته.

الحقيقة التي لا بدّ من ذكرها أن هذا الوجود كان ضعيفاً، بل كان مهلهلاً وهشّاً(٤٩)، وبالتالي فإن الدولة العثمانية لم تستطع التأثير السياسي على الإقليم، ومن هنا ظل ولاء الأهالي للدولة ولاء يعتمد كثيراً على مبدأ الخضوع للسلطة لا على مبدأ التبعية والولاء لها.

ونجمت عن أسلوب الحكم العثماني العسكري حالات من التذمّر والسخط، وعلى سبيل المثال لا الحصر ما قام به أهالي مدينة الهفوف(٥٠)، وتكررت مثل هذه الحالات في

مناطق أخرى من الإقليم. وعبرت هذه الاضطرابات أساساً عن وعي الأهالي وتفهمها السياسي لما يدور حولها. وكان يباعد بين أهالي السنجق وبين السلطة العثمانية، ما كان يقوم به بعض المسؤولين العثمانيين في الإقليم من أعمال تسيء للدولة(٥١).

وكان مما يغذي مبدأ عدم ولاء أهالي الإقليم للدولة العثمانية، ما كان يتمتع به شيوخ "القبائل من سلطات ترتكز على الولاء الكبير الممنوح لهم من قبائلهم إضافة إلى طموحاتهم السياسية التي كثيرا ما كانت تتعارض مع السلطة المركزية المحلية في الإقليم. أضف إلى هذا طموح ذوي السلطة والنفوذ من بين أهالي المدن الذين كانت لهم نزعات سياسية استقلالية. وكان مما يقوي هذه النزعة الاستقلالية وجود العدد الكبير من الشيعة في الإقليم الذين لم يكنوا للدولة العثمانية السنية الولاء(٥٢).

هذا ما كان في الإحساء في هذه المرحلة التي أعقبت حملة مدحت باشا، ولم يكن اهتمام الوالي منصبا فقط على هذا الإقليم، بل كان من اهتماماته أيضا أقاليم أخرى من الخليج العربي، ويحاول تأكيد نفوذ الدولة العثمانية فيه بعد ذلك وهي البحرين والكويت وقطر.

لقد كان هدف مدحت باشا التالي بعد الإحساء هو جزر البحرين(٥٣)، فقد أصرّ على تبعيتها إلى متصرفية الإحساء في الوقت الذي كانت تتمسك فيه بريطانية بمبدأ استقلال البحرين، لذلك كان لا بدّ من خوض تجربة المفاوضات بين العثمانيين والبريطانيين، ولكن هذه المفاوضات فشلت مما اضطر مدحت باشا إلى إرسال باخرتين إلى البحرين، في الوقت الذي أرسلت فيه حكومة الهند البريطانية باخرتين أيضا، ولم يحدث أي تصادم بين الطرفين، حتى أن البحارة العثمانيين نزلوا في الجزيرة واستقبلوا بحفاوة من قبل سكانها، ورفع القائد العثماني علم الدولة العثمانية وأطلق إحدى وعشرين إطلاقة مدفع تحية له، وقدم شيخ البحرين قطعة أرض مناسبة لتشييد مخزن للفحم، ولم تمكث الباخرتان العثمانيتان في البحرين وإنما غادرتها باتجاه

الإحساء[٥٤]. وفي أواخر كانون الأول ١٨٧١م، أراد مدحت باشا استحصال التماس يحمل تواقيع بعض تجار اللؤلؤ البحرانيين يطلبون فيه الحماية العثمانية ولكن لم يفلح في مسعاه[٥٥].

أما في الكويت، فعندما تعين مدحت باشا والياً على العراق، أراد أن يضع نهاية لتعدد الأعلام في الكويت، ويحد من التغلغل البريطاني فيها، فبدأ بمفاوضة شيوخها ومنحهم كافة الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها على أن يعتبروا أنفسهم جزءاً من الإمبراطورية العثمانية، وان يتخذوا العلم العثماني راية لهم، وقد وافق شيوخ الكويت على ذلك، وأصبحت أراضيهم قضاءً تابعاً من الناحية الاسمية إلى البصرة بموجب اتفاق رسمي وأمر سلطاني صادر من استانبول، ولكن القضاء ظل معفى من كافة الرسوم والضرائب ودون أن تمارس فيه الدولة العثمانية أو ولاية البصرة أي نفوذ سياسي أو إداري سوى استمرار العلاقات الاقتصادية، وقد نص هذا الاتفاق أيضاً على عدم إسقاط أسرة الصباح في وراثة الحاكم، وذلك بأن يختار أعضاء هذه الإدارة الحاكم، ثم ينصبه السلطان ويمنحه لقب قائمقام[٥٦].

من ناحية أخرى استطاع مدحت باشا استمالة شيوخ الإحساء عام ١٨٧١م، فوضعت الكويت مقاتليها وسفنها تحت تصرف القيادة العثمانية، واشترك الكويتيون في قوتين، إحداهما بحرية والأخرى برية، كانت الأولى بقيادة شيخ الكويت عبد الله الصباح[٥٧]، والثانية تولى قيادتها مبارك الصباح أخو شيخ الكويت، واستأنفت الحملة سيرها براً وبحراً باتجاه القطيف[٥٨]، وكل هذا يبرز الدور الفعال الذي قام به الكويتيون في مساعدة حملة مدحت باشا العسكرية للوصول إلى الإحساء[٥٩].

أما بالنسبة لقطر، فالمعروف تاريخياً أن هذا البلد لم يظهر كوحدة سياسية منفصلة إلا في أواخر القرن التاسع عشر، وبرزت قطر مسؤولة وحدها عن إقليمها تحت زعامة الشيخ محمد بن ثاني عام ١٨٦٨م، الذي كان ولده قاسم يده اليمنى.

لقد اعتبر شيوخ البحرين قطر جزءاً من أملاكهم، وأساء معاملتهم معاملة قبائل قطر وحدثت مشاكل أدت إلى إرسال شيخ البحرين حملة إلى قطر، ولكن نشبت ثورة جديدة انتهت بقتل عامل البحرين، وحاول الشيخ قاسم(٦٠) من قطر استرضاء شيخ البحرين، فقصده زائراً ومصالحاً، ولكن ألقى القبض عليه واعتقل، وهاجم قومه البحرين لإنقاذه، ولكنهم هزموا في ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م، وتعقبتهم قوات البحرين إلى ساحل قطر، وحدث أن تمكن أهل قطر من اختطاف أحد أقارب شيخ البحرين، ثم أخلوا سبيله مقابل فك أسر الشيخ قاسم الذي أصبح سيد قطر الفعلي(٦١).

انتهز مدحت باشا فرصة اضطراب الأحوال ما بين البحرين وقطر لفرض سيطرة الدولة العثمانية على قطر، فدخلت القوات العثمانية قطر عام ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م، وأجبرت الشيخ قاسم على الفرار، واعترف العثمانيون أول الأمر بزعامة أحمد أخي قاسم ثم اعتقلوه(٦٢)، ولكن في عام ١٨٧٢م، لقي العثمانيون ترحيباً حاراً من الشيخ قاسم الذي وافق على نزول سرية عثمانية في البدع، ورفع العلم التركي على قلعتها، وابتدأت العلاقة العثمانية بقطر سياسياً وعسكرياً وأصبحت تشكل الحاجز الطبيعي بين النفوذ العثماني والنفوذ البريطاني في عمان وسواحلها(٦٣).

ومما تجدر ملاحظته، أن الذي قوّى العلاقات بين الدولة العثمانية وقطر هو أن الشيخ محمد بن ثاني وولده قاسم قد أدركا أن البريطانيين الذين كانوا قد تغلغلوا إلى الصميم في شؤون جيرانهم في الخليج من كل ناحية، لن يوقف ضغطهم سوى خطة كبرى ذكية، وبالفعل فقد اتصل الشيخ قاسم بالسلطات العثمانية واتفق معهم على التنسيق مع الاتجاه الذي كان ناشطاً لتوحيد القوى الإسلامية والوطنية في الخليج، وبذلك تخففت قطر من كثير من الضغوطات البريطانية السياسية والعسكرية، ودام هذا الحال أكثر من أربعين سنة(٦٤).

ومن جهة أخرى فقد استخدمت بريطانية كل ثقلها السياسي بمنع شيخ قطر من إعـلان تبعيته للدولة العثمانية، وتشير المصادر البريطانية إلى أن نافذ باشا قائد حملة الإحساء هو الذي ألحّ على الشيخ قاسم لقبول السيادة العثمانية مستهدفاً من وراء طلبـــه ذلـك المساس بنطاق النفوذ البريطاني في الخليج العربي(٦٥)، ومع أن التبعية القطرية للدولة العثمانية لم تتم، إلا أن العلاقة بين قطر والدولة العثمانية ساهمت في إدخال قطر فـي مرحلة تاريخية صانت فيه استقلالها في مهب الصراع الكبير على الساحل الغربي من الخليج العربي فيما بين الدولة العثمانية وبريطانية.

وفي هذا السياق، فإن النفوذ العثماني في قطر كان قائماً على أساس أن قطـــر هـي قضاء تابع لمتصرفية الإحساء، وهذا القضاء كان على رأسه قائمقام وجـــهاز إداري على قدر الحاجة إلى إقرار النظام وسير الأعمال في المنطقة ولاسيما فـي السـنوات الأولى الأمر الذي أدى بعد مرور أقل من سنة إلى الإعادة التدريجيـة للجيـش إلـى البصرة، كما أن العثمانيين لم يتكلفوا جهداً من أي نوع في قطر سوى وضع حاميـة يتراوح عددها طوال الأربع والأربعين سنة التي أقامت خلالها في قطر بيـن ثمـانين جندياً ودركياً من الجندرمة وأربعمئة جندي، باستثناء مناسبة واحـدة عـززت فيـها الحامية تعزيزاً كثيفاً لفترة بسيطة في مظاهرة لفرض القوة، ولكن السفينة التي جـاءت بالتعزيزات الاستثنائية ما لبثت أن عادت بأكبر مما جاءت به، فعاد حجم الحامية إلـى ما كان عليه، إن لم يكن أكثر من ذلك(٦٦).

المرحلة الرابعة التي تبدأ من عام ١٨٨٢م وتستمر حتى قيـام الحـرب الأولى:

يقرّ جانب كبير من المؤرخين بأن مرحلة مهمة في محاولات الباب العالي في تـأكيد وجوده السياسي والعسكري بالخليج العربي انطلقت إثر احتـلال مصـر مـن قبـل بريطانية سنة ١٨٨٢م، إذ تبيّن للباب العالي أن طمع الإنكليز في السيطرة على مناطق

نفوذ الدولة العثمانية والخليج أصبح حقيقة مؤكدة، فكانت هذه المرحلة -التي امتدت حتى قيام الحرب العالمية الأولى- دفاعية تحسباً لتوسع بريطاني مرتقب، وقد انطلقت هذه المرحلة داخلياً ببداية إقامة بعض التحصينات الدفاعية وبناء بعض الاستحكامات العسكرية وإعادة بعث ولاية البصرة، وبعودة المبادرات العثمانية إلى التنسيق مع شيوخ المناطق.

أما من الناحية الخارجية، فقد عمدت الدولة العثمانية على المستوى السياسي في هذه الفترة إلى ربط الصلة مجدداً بالمناطق التي فترت علاقاتها بها، وصار الباب العالي تبعاً لذلك يعمل على تحصين نفسه بإقامة بعض الأسر الأكثر ولاء له، أو بالأحرى الأكثر وضوحاً له في عدائها للإنكليز(٦٧).

يمكن أن نعدّ فترة التسعينيات من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين تواصلاً لهذه المرحلة الدفاعية، إلا أن الأحداث قد تسارعت فيها بدرجة لم يعد الباب العالي قادراً على مواكبتها ومجاراتها، فرغم التلويح بأحقية السلطان العثماني في ضم دولة البحرين، انكفأت في الواقع الإمبراطورية العثمانية إلى مواقعها الترابية للدفاع عنها، وإتمام بعض الاستحكامات بها، على حين تنامي الشعور القوى لدى العرب برفض الهيمنة العثمانية، إذ تكاثرت الانتفاضات المناوئة للأتراك والرافضة لسيطرتهم (انتفاضة قطر ١٨٩٣م)، وهذا ما شجع البريطانيين على التمادي في نهجهم ومواصلة سياستهم التوسعية، فكبلوا الجماهير العربية بمزيد من الاتفاقيات، بل سعوا إلى المزيد من التوسع في المناطق التابعة اسمياً إلى الباب العالي (سعى إلى ضم قطر، بداية اتصالات مع شيخ الكويت ١٨٥٩م)(٦٨)، فضلاً عن ذلك فإن العثمانيين لم يستطيعوا اشراك سكان المناطق الخاضعة لنفوذهم في عملية المواجهة، وربما لم يرغبوا في ذلك مما أضعف من تأثيرهم السياسي والعسكري فيها، فسهل على القوى الاستعمارية الانفراد بالعثمانيين، فكالوا لهم الهزائم السياسية والعسكرية في الخليج العربي.

وما زاد الأمر سوءاً في هذه المرحلة، أن بعض المشاريع الإصلاحية التي سعى العثمانيون إلى تطبيقها في الخليج، لم تكن في واقع الأمر سوى خطط فردية المبادرة والإنجاز، يرتبط وجودها باسم بعض الولاة أو الأشخاص، فما أن يغيبوا أو يُغَيَّبوا حتى ينهار الصرح المنشود[٦٩].

وتوضيحاً لما سبق ذكره، فلا بدّ من التعرض للأحداث التاريخية التي واكبت هذه المرحلة، ففي عام ١٩٠٤م، سيّرت الدولة العثمانية حملة على غرار حملة الإحساء لعام ١٨٧١م، لمساعدة آل الرشيد والقضاء على آل سعود، وشارك في الحملة العراقيون[٧٠]، وعانوا فيها كثيراً، وكان هذا قد تمّ في الوقت الذي أفل فيه نجم آل الرشيد وبزغ من جديد نجم آل سعود وتزايدت انتصاراتهم وهمّت الدولة العثمانية بتعزيز حاميتها في الإحساء، وفي عام ١٩٠٩م، أرسلت ثلاث كتائب من الفوج ٤٢، وبلغ عدد الجنود النظاميين الذين أرسلوا إلى هناك ذلك العام ٧٤٦ جندي، لكن هذه التعزيزات لم تكن بمستوى الاندفاع العشائري الجديد الذي أوجد وضعاً لم يكن يتعارض مع المصالح البريطانية في الخليج[٧١]، ففي مايو (أيار) ١٩١٣م، يتمكّن ابن سعود من الإحساء، وطرد منها الحاميات التركية العسكرية، وانتقلت هذه الحاميات إلى البحرين التي وفد إليها القائد التركي "نوري" ليتولى قيادتها، وحدث أن قصد نوري القطيف وارتد عنها وتولى القائد عبد الجابر بعد نوري قيادة الجند التركي في البحرين إلى العقير، فلم يفلح فعاد أدراجه إلى البحرين[٧٢].

لم تحاول الدولة العثمانية إثر ذلك إرسال حملة لاستعادة الإحساء، وفي الواقع أنها لم تستطع أن تفعل ذلك، وإنما واصلت مفاوضة السعوديين، وسعى العثمانيون إلى مصالحة ابن سعود وأرسلوا له عن طريق مبارك الصباح يخطرونه بعزمهم على إرسال بعثة تركية تفاوضه في شأن حكم نجد والإحساء، مقابل الاعتراف الاسمي بالسيادة العثمانية على الساحل الغربي للخليج العربي، وعقد اتفاق في البصرة بين العثمانيين وابن سعود في ١٥ أيار (مايو) ١٩١٤م، وسمي ابن سعود بموجبه حاكماً

عاماً وقائداً لنجد، وضمن الاتفاق لابن سعود كل سلطات الوالي بما في ذلك تجنيد المليشيا لحفظ الأمن والنظام في نجد، ولم يحرم الاتفاق ابن سعود من التعامل مع الأجانب لتسيير أمورهم في المنطقة، وقضى الاتفاق على أنه ليس من حق ابن سعود إبرام الاتفاقيات أو التعهدات مع القوى الأجنبية، وليس له حق منح الامتيازات الأجنبية، كما أنه مقيد باحترام كافة الاتفاقيات التي أبرمتها الدولة العثمانية مع الدول الأجنبية، كما أعطى الاتفاق للحكومة العثمانية حق الاحتفاظ ببعض الحاميات التركية في الساحل، يزاد في عددها إذا طلب ابن سعود ذلك، كما عمل الاتفاق على تنظيم العلاقة المالية بين ابن سعود وبين الحكومة العثمانية(٧٣).

أما بخصوص الكويت، فإنه بعد عام ١٨٨٢م، تبيّن أن تبعيتها للعثمانيين كانت تبعية اسمية، من الناحية السياسية مشيخة مستقلة استقلالاً ذاتياً، لكنها تعترف بالسيادة العثمانية من الناحية الاسمية، لكن هذا النفوذ الاسمي كان يخيف البريطانيين، لا سيما وأنهم وجدوا أن العلم يرفع على مقر إقامة الشيخ مبارك شيخ الكويت(٧٤).

أخذ البريطانيون يحاولون إبعاد تبعية الكويت عن الدولة العثمانية، وأخذوا يركزون على بحث الوضع السياسي للكويت وعلاقاتها مع الدولة العثمانية كتمهيد لإعلان الحماية البريطانية. وفي تلك الفترة، زاد الاهتمام البريطاني بالكويت، لاسيما عند ظهور بوادر المشروع الألماني لمد سكة حديد بغداد، وعند تولي مبارك الصباح مشيخة الكويت عام ١٨٩٦م، بعد قتله لأخويه محمد وجراح(٧٥)، الموالين للدولة العثمانية ، وتذكر بعض المصادر أنه قد اتهم مبارك بقتل أخويه لأنهما كانا على وشك طلب الحماية العثمانية لمواجهة المؤامرات البريطانية في الخليج(٧٦). ومع ذلك فقد اعتبرت الدولة العثمانية أن ما حدث في الكويت هو من الأمور الداخلية الشائعة في المنطقة واعتقدت أن من مصلحتها عدم التدخل في القضية حتى لا يؤدي ذلك إلى ضياع الكويت(٧٧).

إن الأحداث السالفة الذكر تظهر بوضوح ضعف السيطرة السياسية والعسكرية العثمانية في الكويت، وأن هذا الضعف كان يسمح لبريطانية بفرض سيطرتها السياسية والعسكرية على الكويت، وكان حصيلة ذلك توقيع شيخ الكويت مبارك الصباح مع المقيم البريطاني في الخليج اتفاقية في ٢٣ كانون الثاني عام ١٨٩٩م، وبذلك فقدت الكويت حريتها الكاملة وحولت علاقاتها الخارجية لبريطانية(٧٨)، مما أدى إلى ردود فعل عثمانية، كان أهمها تحريض ابن الرشيد ضد الشيخ مبارك أسفرت عن اندحار الأخير عام ١٩٠١م، كذلك بادرت الدولة العثمانية على إقامة حاميات عسكرية في أم قصر وصفوان وجزيرة بوبيان ولمواجهة ذلك قام الشيخ مبارك بتوقيع اتفاق سري في ١٥ تشرن الأول (أكتوبر) ١٩٠٧م، مع بريطانية لتأكيد ما سبق أن تعهد به عام ١٨٩٩م، بعدم التنازل عن أي جزء من إمارته لأية حكومة دون موافقة بريطانية(٧٩)، فقطعت هذه الاتفاقية الطريق على أي نفوذ عثماني في الكويت.

لقد تبين في العقد الأخير من القرن التاسع عشر أن السيطرة السياسية والعسكرية العثمانية في الخليج العربي التي أخذت تتلاشى في المناطق التي كان لهذا الأثر وجود، وأخذت بريطانية تحاول تأكيد وجودها فيها، فقد تابعت بريطانية سياستها الرامية إلى الحلول مكان النفوذ العثماني وهذا لاحظناه واضحاً في الكويت، وتابعت تلك السياسة أيضاً في البحرين وقطر.

والملاحظ أيضا أنه لم يعقب مدحت باشا في ولاية بغداد من هو بدرجة حماسته لمتابعة المشروع العثماني أو إدراكه للأهمية السياسية والعسكرية للمنطقة، كما أن الحكومة العثمانية لم تكن مهتمة بما بدأه مدحت باشا، إضافة إلى تلك المشاكل التي واجهتها الدولة العثمانية في أوروبة وأجبرتها على التراجع تدريجياً عن حقوقها الثابتة والشرعية على أمل الاحتفاظ ببعضها، في الوقت الذي كانت بريطانية تتقدم بخطى ثابتة ومدروسة لاحتلال المراكز التي تتخلى عنها الدولة العثمانية تباعاً مستخدمة التحريض المستمر لشيوخ المنطقة ضد العثمانيين.

من خلال تلك السياسة التي اتبعتها بريطانية، استطاعت استدراج البحرين للتوقيع على اتفاقية معها عام ١٨٣٧م، وهي مثال على تلك الاتفاقية التي عقدتها بريطانيـــة مـــع شيوخ الساحل الغربي للخليج منذ أواخر القرن الثامن عشر ومع مطلع القرن التاســـع عشر[٨٠]. والتي مثلت البوابة الكبيرة التي دخل منها البريطانيون لتدعيـــم مســـارهم السياسي والعسكري، وإزالة أي أثر في هذه الجوانب كان لدى العثمانيين في المنـــاطق التي كانت تتبع الدولة العثمانية.

لقد أعقب توقيع تلك الاتفاقية تطور العلاقات تدريجيا بين بريطانية وآل خليفـــة فـــي البحرين من خلال عقد مواثيق كان أهمها ميثاق تم عقده بين الطرفين في ٢٢ ديسمبر (كانون الأول) ١٨٨٠م[٨١]. وأصبحت البحرين بموجب ذلك وكأنـــها مـــن الناحيـــة السياسية والعسكرية محمية بريطانية.

وكانت قد حدثت تطورات سياسية وعسكرية في البحرين قبل عقد هذا الميثاق، وكـــان لهذه التطورات علاقة مباشرة بالعثمانيين والقوى المحلية في المنطقـــة. ففـــي عـــام ١٨٧٤م، حاول الأمير عبد الله بن فيصل آل سعود بمساعدة شيخ البحرين بالتوجه إلى الإحساء للسيطرة على الإقليم. الأمر الذي دعا على الفور إرسال ناصر باشا السعدون شيخ المنتفق ومتصرفها على رأس حملة عثمانية للقضاء على الحركـــة. فـــاعتبرت حكومة الهند البريطانية تلك الحملة موجهة ضد البحرين. وبناءا علـــى ذلـــك قدمـــت الحكومة البريطانية تحذيرا إلى الدولة العثمانية، أوضحت فيها أنها لا تسمح بالتعرض لاستقلال البحرين[٨٢]، فكانت هذه الأحداث ممهدة لربط البحرين مع بريطانية بميثـــاق عام ١٨٨٠م.

والجدير بالملاحظة، أنه كان قد تبين من الأحداث التاريخية الســـابقة واللاحقـــة، أن الدولة العثمانية كانت عاجزة عن المطالبة بالبحرين، في الوقت الذي اضطـــرت فيـــه للتراجع عن حقوقها في مناطق أخرى من الخليج، أمام الضغط الشديد الذي مارســـته

حكومة الهند البريطانية عليها، وهي الحكومة المسؤولة عن ملف الخليج العربي، والتي كانت تتذرع دائماً بتزايد النفوذ الألماني في الدولة العثمانية منذ حصولها على امتياز بإنشاء سكة حديد بغداد.

ومن خلال العجز العثماني، قامت بريطانية بربط البحرين بها باتفاقية جديدة، كانت تتويجاً لما سبقها من اتفاقيات ومواثيق وهي اتفاقية عام ١٨٩٢م، وجاء في أحد بنودها، أن شيخ البحرين عيسى بن علي يتعهد لبريطانية بأن لا يدخل في أي اتفاق مع أي دولة سوى بريطانية(٨٣)، وبهذا الاتفاق استطاعت بريطانية قطع الطريق حول إمكانية عودة أي سيطرة سياسة أو عسكرية عثمانية في البحرين.

ومن ناحية أخرى، فإنه خلال هذا العرض التاريخي للسيطرة السياسية والعسكرية العثمانية في الخليج العربي، تبقى قطر تشكل ظاهرة متميزة عن غيرها من المناطق التي دخلتها هذه السيطرة. وحول هذا الموضوع فإن التعرض لهذه السيطرة يمكن أن ينمص خلال حكم الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني الذي بدأ سنة ١٨٧٨م، واستمر حتى ١٩١٣م.

لقد شكل هذا الحكم فترة زمنية كانت الظروف الدولية العامة تحول دون وقوع صدام مباشر بين العثمانيين والبريطانيين في الخليج، وكانت قطر تمثل كدولة حاجزة بين مناطق النفوذ العثماني والبريطاني في مياه الخليج وجزره بما فيه البحرين وجنوبا على الساحل العماني والعثماني في العراق ونجد والإحساء.

استطاع الشيخ قاسم تحمل ضغوط شتى من البريطانيين وحلفائهم في المنطقة، في الوقت الذي كان يتجه فيه العثمانيون في قطر نحو سياسة التشدد منذ عام ١٨٨٨م، فبدءوا يحاولون إدخال تنظيمات جديدة ودار للعوائد الجمركية وزيادة الحامية العسكرية، الأمر الذي اضطر الشيخ قاسم للاعتزال تاركا للعثمانيين فرصة للتأكيد من

فشل التنظيمات الجديدة الذي اقترحها عاكف باشا عام ١٨٨٩م، والتي عين بموجبها أول معاون عثماني قائمقام قطر ١٨٩١[٨٤].

لم يكن بوسع قطر أن تقدمّ الأموال لجهاز حكومي وعسكري عثماني من مواردها، وحاول العثمانيون وضع سياستهم المتشددة موضع التنفيذ عام ١٨٩٣م، حين وصل محمد حافظ باشا والي البصرة الممتلئ بالدعاية المفرطة ضد الشيخ قاسم إلى قطر تصحبه قوة من الكويتيين يسوقها الشيخ مبارك، وتقدم الوالي العثماني على رأس ٣٠٠ فارس، ولكنّ خطته لأخذ القطريين بالمراوغة والقوة الظاهرة فشلت فشلاً ذريعاً بالرغم من أنه احتجز شقيق الشيخ قاسم واثني عشر رجلاً من وجهاء القبائل القطرية، وقد خسر في معركة الوجبة عام ١٨٩٣م، (الوجبة تقع على مسافة تقارب العشرين كيلومتراً من الدوحة) مئة جندي على الأقل من رجاله، ولم يتمكن من الاحتفاظ بعين الماء التي كان يستقى منها جنده خلال إقامتهم في قلعة العسكر وهكذا، وبالرغم من وجود قطعة حربية عثمانية راسية في ميناء الدوحة، اضطر الوالي لإطلاق سراح الرهائن وتقبل الهزيمة المريرة[٨٥].

كانت هذه النكسة الكبيرة التي وقعت للعثمانيين في قطر نتيجة مباشرة لفساد ذمة بعض الإداريين العثمانيين الذين كانوا متواطئين تواطؤا تاماً مع بعض خصوم الشيخ قاسم في المنطقة فبعثوا بتقارير كاذبة يحرضون فيها الحكومة العثمانية على قاسم[٨٦]، وقد وصفت المصادر العثمانية العملية التي قام بها القطريون عام ١٨٩٣م، بأنها انتفاضة ضد الحكم العثماني تحت قيادة الشيخ قاسم، أجبرت على أثرها القوات العثمانية على الانتقال إلى شبه الجزيرة بقيادة والي البصرة نفسه في محاولة لإخماد الانتفاضة، إلا أن انهزام الجيوش التركية جعل الباب العالي يعدل عن مواقفه فبعث بممثلين عنه لتقصي الأوضاع وتقيم تقرير بهذا الشأن[٨٧].

وكان هؤلاء الممثلون هم عبارة عن اثنين من كبار الضباط أرسلهم السلطان عبد الحميد الثاني سراً إلى قطر، وعادوا له بتقرير واقعي عن حقيقة ما جرى، وبدت الأمور واضحة للسلطان الذي أمر بعزل والي البصرة، وطلب إلى وجهاء أسرة النقيب البصرية التدخل لوضع الأمور في نصابها[٨٨].

والواقع أن العثمانيين بعد انكشاف الحقيقة أدركوا خطأهم الفادح، وأصرّوا على أن يحتفظ قاسم بلقب الشرف الذي منحوه له، ولم يعودوا حتى وفاته عام ١٩١٣م، يتحركون أية حركة تعاكس إرادته وتوجيهاته[٨٩].

مشروع اتفاق بريطاني عثماني في علم ١٩١٣م، وقيام الحرب العالمية الأولى ١٩١٤:

في ٢٩ يوليو (تموز) ١٩١٣م، توصل الأتراك والبريطانيون إلى مشروع اتفاق، تضمن بنوداً تتعلق بالكويت وقطر والبحرين[٩٠]. كان أبرزها ما جاء فيه بشأن الكويت أنها تشكل قضاءً أتونوميا (حكم ذاتي) للدولة العثمانية، ويجوز لشيخ الكويت أن ينشر العلم العثماني كما كان شأنه في الماضي، وأشار مشروع الاتفاق إلى أن الدولة العثمانية لن تتدخل في الشؤون الإدارية للكويت بما في ذلك مسألة وراثة الحكم التي ليس للحكومة العثمانية منها إلا إصدار فرمان التعيين للشيخ الجديد، ويذهب مشروع الاتفاق إلى اعتراف الحكومة العثمانية بشرعية الاتفاقيات التي عقدها الشيخ مبارك مع البريطانيين بتاريخ ٢٣ يناير ١٨٩٩ن، و٢٤مايو ١٩٠٠م، و٢٨ فبراير ١٩٠٤م.

وحول قطر والبحرين فقد نص مشروع الاتفاق على أن الحكومة العثمانية أسقطت دعاوى لها على قطر، وتعترف الحكومتان بحاكمية الشيخ قاسم بن ثاني ومن يخلفه على قطر، كما نص المشروع على سحب كل دعاوى للحكومة العثمانية على

البحرين. ومما لاشك فيه، "أن هذا الاتفاق عمل على تكريس الوضع الراهن وتثبيته بالنسبة للكويت وقطر والبحرين(٩١)".

لقد عدّ هذا الاتفاق دليلاً عل عجز الاتحاديين الأتراك في استانبول أمام تغلغل النفوذ البريطاني في الخليج العربي(٩٢)، بالرغم من أنهم تسلموا الحكم على أساس تثبيت سلطة الدولة في جميع المناطق التي تتبعها حتى ولو كانت هذه التبعية اسمية. وبذلك يكون الاتحاديون قد ساهموا مباشرة في تقليص السيطرة السياسية والعسكرية والعثمانية على الخليج العربي، وفتحوا المجال واسعاً أمام بريطانية لتزيد من نفوذها وسيطرتها في تلك المنطقة.

ثم جاءت الحرب العالمية الأولى وانضمت الدولة العثمانية إلى ألمانية لتصبح في المعسكر المناوئ لبريطانية، ليودي ذلك إلى زوال كل أثر سياسي وعسكري للعثمانيين في منطقة الخليج العربي، فقد تم إحباط الاتفاقية التي عقدت في ١٥ أيار (مايو) ١٩١٤م، بين ابن سعود والعثمانيين، مع أنه كان ابن سعود عملياً قد طرد الحاميات قبل عقد تلك الاتفاقية، التي اعترفت فيها بريطانية بابن سعود حاكماً على الإحساء في الوقت الذي يحترم فيه وضع بريطانية في المشيخات ذات العلاقة الخاصة معها(٩٣).

وبالنسبة لقطر، فقد تحدد وضعها كما ذكرنا سابقاً في الاتفاقية التي عقدت بين بريطانية والدولة العثمانية عام ١٩١٣م، والتي تم التوقيع عليها في ٩ آذار (مارس) ١٩١٤م، وهو الاتفاق الذي تقرر بموجبه سحب القوات التركية من قطر، ولكن عملية الجلاء تمت في عام ١٩١٥م، وذلك بواسطة مراكب الأسطول البريطاني، حيث كانت القوات التركية موجودة في القصر في الدوحة لمدة تزيد عن أربعين عاماً(٩٤).

أما بالنسبة للكويت، فقد استطاعت بريطانية قطع الطريق نهائياً على تركية حيث اعترفت باستقلال الكويت كدولة تحت الحماية البريطانية في ٣ تشرين الثاني (نوفمبر)

١٩١٤م، وقد جاء في هذا الاعتراف بأن بريطانية تعترف بأنه لا علاقة لشيخ الكويت بتركية مقابل أن يتعاون مع الحملة البريطانية المزمعة على جنوب العراق(٩٥).

والجدير بالذكر أن العثمانيين كانوا قد اندحروا في الحرب العالمية الأولى، وهذا الاندحار كان الدليل المادي التاريخي على زوال وجودهم السياسي والعسكري في الخليج العربي، وحلّت بريطانية في كل من البحرين وقطر والكويت مكانهم وحل السعوديون في الإحساء.

خاتمة:

نستخلص من هذه الدراسة ن أثر السيطرة السياسية والعسكرية العثمانية على الخليج العربي بدأ في مناطق محددة منه في الإحساء والكويت وقطر والبحرين، وهذا الأثر كان ضعيفاً، حتى أنه يمكن وصفه بأنه كان اسمياً. وهذا الأثر كان يتفاوت من إقليم لآخر حسب الظروف التي أحاطت بها وبالدولة العثمانية ولاء حكام هذه الأقاليم لتلك الدولة.

لقد تحدد هذا الأثر بالقوى الخارجية التي وفدت إلى الخليج كدول استعمارية، الأولى كانت البرتغال التي سبقت الدولة العثمانية في الوصول إلى الخليج، فمنعت الدولة العثمانية من التغلغل ضمن أقاليم محددة، ووضعت خطة لمنع النفوذ العثماني من تجاوز تلك الأقاليم التي أصبحت تابعة لها قبل وصول بريطانية إلى الخليج ، وكانت بريطانية قد مارست سياسة إخراج العثمانيين من الخليج قبل قيام الحرب العالمية الأولى، وما إن جاءت تلك الحرب حتى كان النفوذ العثماني قد زال أو في طريق الزوال ضمن اتفاقات عقدتها بريطانية مع الأقاليم التي كانت تتبع الدولة العثمانية.

ـن أهم الاستنتاجات التي توصلت اليها الدراسة أن العثمانيين لم يعطوا منطقة الخليج الاهتمام الكافي، ومحاولتهم لتأكيد سلطتهم كانت ضعيفة ينقصها الدعم السياسي والعسكري، ولذلك جاء التأثير في هذين الجانبين ضعيفاً في الخليج، وكانت حملة

مدحت باشا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لإعادة السيطرة العثمانية على الإحساء وما رافقها من مظاهر عسكرية وسياسية من بعض حكام المنطقة المحليين سوى حالة نادرة ذهبت بذهاب مدحت باشا عن ولاية بغداد.

كذلك فقد ساهم الحكام العثمانيون في الخليج مساهمة فعالة في إضعاف السيطرة السياسية والعسكرية للعثمانيين في الخليج، من ناحية الفساد وسوء معاملة السكان المحليين ما جعل هؤلاء السكان ينفرون من الحكم العثماني بل وينتفضون ضده كما حدث في قطر عام ١٨٩٣م، كما ساهم البريطانيون في الخليج بإثارة السكان المحليين على الدولة العثمانية، وأخيراً جاء الاتحاديون ليقصموا ظهر الوجود العثماني في تلك المنطقة كممثلين للسلطة المركزية العثمانية في استانبول.

الهوامش

(١) أمين سعيد، **الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة** (بيروت، د.ت)، ص ٢٨.

(٢) *S.B.* Milcs. The Countries and Tribes of the Persian Gulf (London, 1966), PP. 152-153.

(٣) للتوسع في موضوع سيطرة البرتغال على هذه المدن العربية، انظر أرنولد ويلسون، **تاريخ الخليج العربي**، ترجمة محمد أمين عبد الله، (عمان، ١٩٨٥)، ص ٦٧-٦٨.

(٤) صلاح العقاد، **التيارات السياسية في الخليج العربي** (القاهرة،١٩٨٣)،٩-١٠.

(٥) ويلسون، المرجع السابق، ص ٧٧.

(٦) المرجع نفسه، ص ٨٣.

(٧) ج. ج. لوريمر، **دليل الخليج**،القسم التاريخي، ج١ (الدوحة، ١٩٨٥)، ص ١٦.

(٨) أحمد أبو شرب، مساهمة المصادر والوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ البحرين، **مجلة الوثيقة**، مركز الوثائق التاريخية بدولة البحرين، العدد ٤، السنة الثانية، ربيع الآخر ١٤٠٤هـ/ يناير ١٩٨٤، ص ١٢٥-١٢٧.

(٩) صالح إذر بران، **الأتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي**، ١٥٣٤-١٥٨١، ترجمة عبد الجبار، ناجي (بغداد، ١٩٧٩)، ص ٢٩.

(١٠) سيتفن همشلي لونغ ريغ، **أربعة قرون في تاريخ العراق الحديث**، ترجمة جعفر الخياط (بغداد، ١٩٦٨)، ص ٢٥.

(١١) أحمد العناني، **البرتغاليون في البحرين وحولها من خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر**، **مجلة الوثيقة**، عدد ٤، السنة الثانية، ربيع الآخر ١٤٠٤هـ/ يناير ١٩٨٤، ص ١٠١.

(١٢) بيري –محي الدين، رئيس، ملاح عثماني ورسام، من أصل يوناني، صنف كتاباً في الملاحة في بحر إيجة والبحر المتوسط، وخريطة الجانب الغربي من العالم، قطع رأسه بأمر من السلطان سنة ١٥٥٥م.

(١٣) **الوثيقة**، مركز الوثائق التاريخية بدولة البحرين. رئيس التحرير الشيخ عبد الله ابن خالد آل خليفة، عدد ١. السنة الأولى. رمضان ١٤٠٢هـ/يوليو ١٩٨٢، ص ١٤٠.

(١٤) Halil linalck. The Ottoman Empire (London. 1943) P.38.

(١٥) أطلق هذا الاسم على المنطقة الساحلية الممتدة من البصرة إلى عمان، ودعيت قديما بالبحرين وهجر. أما اليوم فيطلق الاسم على المنطقة الساحلية من جنوب الكويت إلى شمال قطر.

(١٦) عبد الكريم محمود غرايبة. **مقدمة تاريخ العرب الحديث**. ١٥٠٠-١٩١٨، (دمشق، ١٩٦٠). ص ٢٤٩..

(١٧) **الوثيقة**، عدد ١. السنة الأولى. يوليو ١٩٨٢. ص ١٤٠.

(١٨) غرايبة، المرجع السابق. ص ٢٤٩-٢٥٠. وأيضا: مصطفى عبد القادر النجار، البصرة أول قاعدة بحرية للتوسع العثماني في الخليج العربي ١٥٤٦-١٨٦٩، (**مجلة دراسات تاريخية**. جامعة دمشق. العدد٣. كانون الأول (ديسمبر). ١٩٨٠، ص ١٠٠.

(١٩) هذه القبيلة من أكبر القبائل في المنطقة عددا، وأوسعها ديارا، وبالرغم من أن إقامتها الرئيسية في إقليم الإحساء، إلا أنها تتنقل في مناطق واسعة من الجزيرة العربية.

(٢٠) النجار، **البصرة أو قاعدة بحرية للتوسع العثماني في الخليج العربي**، المرجع السابق، ص ١٠٠-١٠٢.

(٢١) ينبغي الإشارة هنا إلى أن أنصار هذه الحركة لا يستسيغون تسميتها بالوهابية ويرى هؤلاء أن معارضيهم هم الذين أطلقوا عليهم هذا الاسم، ويفضل أنصار الدعوة أن يسموا بالموحدين.

(٢٢) غرايبة، المرجع السابق، ص ٢٥٠-٢٥٢.

(٢٣) عبد الله صالح العثيمين، **تاريخ المملكة العربية السعودية**، ج١، (الرياض، ١٩٨٤)، ص ١٥٨، وللاطلاع على ما جاء في هذا الاتفاق، انظر: فتحية البراوي ومحمد نصر مهنا،الخليج العربي، **دراسة تاريخ العلاقات الدولية والإقليمية**، (الاسكندرية، د.ت)، ص ٣٠٧-٣٠٨.

(٢٤) **الوثيقة**، عدد ١، السنة الأولى، يوليو ١٩٨٢، ص ١٤٣.

(٢٥) غرايبة، المرجع السابق، ص ٢٥٤.

(٢٦) النجار، **البصرة أول قاعدة بحرية**، المرجع السابق، ص١٠١.

(٢٧) المرجع نفسه، ص ١٠٧.

(٢٨) عثمان بن بشر، **عنوان المجد في تاريخ نجد**، ج٢،(الرياض، د.ت)، ص ٨٦.

(٢٩) نشير هنا إلى أن بريطانية كانت تقرّ رسمياً بأن حدود السيادة العثمانية تمتد على طول الساحل الغربي للخليج العربي من البصرة إلى القطيف، وقد جاء ذلك الإقرار في مراسلة سفير بريطانية في الأستانة إلى الخارجية العثمانية. انظر: ج. ج. لوريمر، **دليل الخليج**، ج١، ترجمة مكتب الترجمة بديوان حاكم قطر (الدوحة، ١٩٦٧)، ص ١٥٢٥-١٥٢٦.

(٣٠) ونشير هنا إلى أن الاتفاقيات كانت تباعاً، ١٨٣٩-١٨٤٧-١٨٥٣-١٨٥٦-١٨٨٠، وقد سلبت القيادات السياسية بفعل هذه العقود حرية حركتها. انظر: الكراي القسنطيني، مشروع خطة عثمانية في التصدي للأطماع الاستعمارية بالخليج العربي، أواخر القرن التاسع عشر (**مجلة المؤرخ العربي**، الأمانة العامة،

لاتحاد المؤرخين العرب، بغداد، العددان ٤١ و٤٢، المجلد (١٦)، السنة السادسة عشرة، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م)، ص ٢٦.

(٣١) النجار، **البصرة أول قاعدة بحرية**، المرجع السابق، ص١٠٨.

(٣٢) يبدو ذلك من تقارير المقيم البريطاني، في بغداد كمبل (Kemball) ومن تقرير بلي (Billy) المقيم البريطاني في الخليج العربي، حول ذلك انظر: حسين القهواتي، **دور البصرة التجاري في الخليج العربي**، ١٨٦٩-١٩١٤م، (بغداد، ١٩٨٠م)، ص ١٤٨-١٤٩.

(٣٣) النجار، **البصرة أول قاعدة بحرية**، المرجع السابق، ص١٠٧.

(٣٤) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(٣٥) القهواتي، المرجع نفسه، ص ١٤٩.

(٣٦) صلاح العقاد، **التيارات السياسية**، ص ١٧٣.

(٣٧) لوريمر، **دليل الخليج**، ج١، (الدوحة، ١٩٦٧)، ص ٤١٤.

(٣٨) صلاح العقاد، **الاستعمار في الخليج الفارسي** (القاهرة، ١٩٥٦)، ص ١٦٩، وحول أعداد تلك الحملة والسرية التي رافقتها انظر: J. B. Kelly, Britian and the Persian Gulf 1795-1880(Oxford, 1968), P.718.

(٣٩) القهواتي، المرجع نفسه، ص ١٠٥-١١٤.

(٤٠) Kelly, Op. Cit, P. 757.

(٤١) عباس العزاوي، **تاريخ العراق بين احتلالين**، ج٧ (بغداد، ١٩٥٥)، ص ٢٥٥-٢٥٩.

(٤٢) أحمد العناني، الوجود التركي في قطر ١٨٧١-١٩١٥، **مجلة المؤرخ العربي**،**الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب**، بغداد، عدد ١٢، ١٩٨٠، ص ٣٨٤.

(٤٣) نشير هنا إلى أن العثمانيين أطلقوا على الإحساء "سنجق"، حول التحديد الإداري والجغرافي لهذا السنجق. انظر: لوريمر، **دليل الخليج**، القسم الجغرافي،

ج٢، (الدوحة د.ت)،وأيضاً عبد الرحمن صادق الشريف، **جغرافية المملكة العربية السعودية**، ج١، (الرياض: دار المريخ، ١٩٨٢)، ص ٤٦.

(٤٤) Joc E. Mandaville, The Ottoman Province of Al-Hassa in the Sixteenth and Seventeenth Centuries, Journal of the American, Society, 197O,P.489.

(٤٥) عبد الفتاح أبو علية، **جوانب من الحياة الاجتماعية في سنجق الحسا في ظل الحكم العثماني**، ضمن مجموعة من الأبحاث في الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني، ج١ وج٢، جمع وتقديم عبد الجليل التميمي (زغوان، مركز الدراسات والبحوث العثمانية، ١٩٨٨م)، ص ٢٣.

(٤٦) Donald E. pitcher, An Historical Geography of Ottoman Empire (Leiden: E. T. Bill, 1972), P. 142

(٤٧) عبد الفتاح أبو علية: **جوانب الحياة الاجتماعية في سنجق الحسا**، المرجع السابق، ص ٣٢.

(٤٨) المرجع نفسه، والصفحة.

(٤٩) المرجع نفسه، ص ٣٥-٣٦.

(٥٠) المرجع نفسه، ص ٣٧.

(٥١) المرجع نفسه، ص ٣٩-٤٠.

(٥٢) المرجع نفسه، ص ٣٧.

(٥٣) A. T. Wilson, The Persian Gulf, (London, 1959), P. 247.

(٥٤) القهواتي، المرجع السابق، ١٢٨.

(٥٥) Kelly, Op. Cit., P. 735.

(٥٦) صلاح العقاد، **التيارات السياسية في الخليج العربي** (القاهرة، ١٩٨٣)، ص ١٩١، وللتوسع في هذا الموضوع، انظر: القهواتي، المرجع السابق، ص ١٥٠.

(٥٧) سيف مرزوق الشملان، **من تاريخ الكويت**، (القاهرة، ١٩٥٩) ص ١٣٦.

(٥٨) محمد بن عبد الله بن عبد المحسن الإحسائي، **تحفة المستفيد بتاريخ الإحساء القديم والجديد**، أشرف على طبعه وعلق عليه حمد الجاسر، القسم الأول (الرياض، ١٩٦٠)، ص ١٧١.

(٥٩) أحمد العناني، **بحوث خليجية، من كتاب المعالم الأساسية لتاريخ الخليج** (الدوحة، ١٩٨٤)، ص ٦٨.

(٦٠) قاسم بن محمد آل ثاني، كان اليد اليمنى للشيخ محمد ثاني ومساعده، تسلم قاسم حكم البلاد المباشر حين اعتزل والده بسبب تقدم سنه وتنازله نهائياً عن إدارة البلاد قبل وفاته بسنتين عام ١٨٧٦، وبعد ذلك بسنتين توفي الشيخ محمد وأعلن عن بدء حكم قاسم ١٨٧٨.

(٦١) غرايبة، المرجع السابق، ص ٢٥٩.

(٦٢) المرجع نفسه، ص ٢٦٠.

(٦٣) أحمد العناني، **بحوث خليجية**، المرجع السابق، ص ٦٨.

(٦٤) المرجع نفسه، ص ١٢٤.

(٦٥) Ravinden Kumar, Anglo-Turkish antagonism in the Persian Culf Islamic Culture, Vol., xxv II No.2, April.1963,p103.

(٦٦) أحمد العناني، **بحوث خليجية**، المرجع السابق، ص ٣٨٨.

(٦٧) الكراي قسنطيني، **مشروع خطة عثمانية في التصدي للأطماع الاستعمارية بالخليج العربي أواخر القرن التاسع عشر**، المرجع السابق، ص ٣٥.

(٦٨) المرجع نفسه والصفحة.

(٦٩) المرجع نفسه والصفحة.

(٧٠) عباس العزاوي، المرجع السابق، ج٧، (بغداد، ١٩٥٥)، ص ١٤٧-١٤٨.

(٧١) القهواتي، المرجع السابق، ١٢٥-١٢٦.

(٧٢) عبد العزيز عبد الغني ابراهيم، **السلام البريطاني في الخليج العربي**، ١٨٩٩-١٩٤٧، دراسة وثائقية (الرياض، دار المريخ، ١٤٠٢، ١٩٨١م)، ص ١٧٢.

(٧٣) المرجع نفسه، ص ١٧٧. ونشير هنا إلى أن السفير العثماني في لنـــدن قـدم مذكرة إلى وزارة الخارجية البريطانية بتاريخ ٩ يوليو (تمـــوز) ١٩١٤، يؤكـد تعيين عبد العزيز آل سعود والياً عثمانياً. انظر: فتحية النبراوي ومحمـد نصـر مهنا، المرجع السابق، ٣٣٢-٣٣٣.

(٧٤) TheAffairof Kuwait,Vol.1,India Office toForeign,March 24, 1897), P.2.

(٧٥) يمكن الاطلاع على تفاصيل الأحداث التي وقعت فـي الكويـت فـي: H.R. Dickson, Kuwait and Neighbors (London, 1956) وأيضاً: حسن سـلمان، **الكويت ماضيها وحاضرها** بغداد، ١٩٦٨).

(٧٦) جمال زكريا قاسم، **الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربيـة**، ١٨٤٠-١٩١٤، (الكويت، ١٩٧٤)، ص ٢٦٠.

(٧٧) المرجع نفسه والصفحة.

(٧٨) للاطلاع عل تفاصيل تلك الاتفاقية، انظر: J.C. Hurwitz, The middle East and North Africa In World Politics, A Documentary Record, Vol., 1, European Expansion. 1535-1914(New Haven and London, Yale University Press, 1975), PP475-477.

(٧٩) جمال زكريا قاسم، المرجع السابق، ٢٦٨، وللتوسع في ذلك انظـر: عبـد العزيز عبد الغني ابراهيم، المرجع السابق، ص ١٤٥-١٤٦.

(٨٠) حول هذه الاتفاقيات، انظر: هادي طعمة، **الخليج العربي في الاسـتراتيجيات الاستعمارية والبريطانية خاصة** (بغداد ١٩٧١)، ص ٣٠ وما بعدها.

(٨١) للاطلاع على نص هذا الميثاق،انظر: Huwitz, Op. Cit., Vol. 1, P. 432.

(٨٢) Kelly, Op. It, Pp. 763-784 .

(٨٣) للاطلاع على بنود هذه الاتفاقية، انظـر: Huwitz,Op.Cit.,Vol.1,P.465-466.

(٨٤) أحمد العناني، **الوجود التركي في قطـر مـن ١٨٧١-١٩١٥م**، المـؤرخ

العربي، العدد الثاني عشر، ١٩٨٠، ص ٢٩٧.

(٨٥) المرجع نفسه، ص ٣٩٨.

(٨٦) المرجع نفسه، ص ٣٨٨.

(٨٧) الكراي قسنطيني، **مشروع خطة عثمانية**، المرجع السابق، ص ٣٨.

(٨٨) أحمد العناني، **الوجود التركي في قطر** ، المرجع السابق، ص ٣٩٨.

(٨٩) المرجع نفسه، ص ٣٩٩.

(٩٠) للاطلاع على بنود مشروع هذا الاتفاق انظر:
.Huwitz,Op.Cit.,Vol.1,P.567-570

(٩١) حول هذا الموضوع انظر: عبد العزيز عبد الغني ابراهيم، المرجع السابق، ص ١٥٥-١٥٧.

(٩٢) حول ذلك راجع: صلاح العقاد، التيارات السياسية في الخريج العربي (القاهرة، ١٩٨٣)، ص ٢٠٥.

(٩٣) J. C. Hurwitz, Diplomaticy in the Near and Middle East, A. Documentary Record: 1914-1956, Vol. II (Torinto, New york, London, 1956), Pp. 17-18.

(٩٤) محمد عدنان مراد، **صراع القوى في المحيط الهندي والخليج العربي**، (دمشق، ١٩٨٢)، وللتوسع في ذلك، انظر: أحمد العناني **والوجود التركي في قطر**، المرجع السابق، ص ٤٠٠.

(٩٥) Huwitz, Op. Cit., Vol. 1, P. 4.

Directeur de la Revue	Dr. M. Issam A. Awwa Recteur de l'Université de Damas
Directeur de la Redaction	Abdul Karim Ali

Revue Historique éditée par le Comité de Redaction de l'histoire de l'histoire Arabe:

Prof. Dr. Muhammad Issam Awwa	Chairman
Prof. Dr. Feisal Abdullah	Vice-Chairman
Prof. Dr. Shaker Fahham	Member
Prof. Dr. Suheil Zakkar	Member
Prof. Dr. Kheirieh Qassmieh	Member
Prof. Dr. Tayyeb Tizini	Member
Prof Dr. Mahmoud Abdul Hameed Ahmad	Member
Prof Dr. Ibrahim Za'rour	Member
Prof. Dr. Sultan Mheisen	Member
Prof Dr. Au Ahmad	Member
Prof Dr. Eid Mir'i	Member
Prof Dr. Muhammad Al Zein	Member
Prof Dr. Mahmoud Amer	Member
Dr. Sameer Isma'eel	Member
Dr. Muhammad Shalan Al Tayyar	Member
Dr. Abdul Rahman Bitar	Member
Dr. Farouk Isma'eel	Member
Dr. Ibrahim Tawakklna	Member
M. Abdul Kareem Ali	Member

DIRASAT TARIKHIYYAH

DIRASAT TARIKHIYYAH

REVUE HISTORIQUE TRIMESTRIELLE

S'INTERESSE A L'HISTOIRE DES ARABES

25e Annee- No S 85- 86, Sun- Fri.. 2004

مطابع مؤسسة تشرين